مكاشفة القلوب

المقرب إلى حضرة علام الغيوب

في علم التصوف

للإمام حجة الإسلام

أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى ٥٠٥ هـ

وهو مختصر من كتاب "المكاشفة الكبرى" للإمام الغزالي

ضبطه وصححه

الشيخ عبد الوارث محمد علي





مكاشفة القلوب

المقرّب إلى حضرة علّام الغيوب

(في علم التصوّف)

للإمام

أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

وهو مختصر من كتاب "المكاشفة الكبرى" للإمام الغزالي

ضبطه وصحّحه

الشيخ عبد الوارث محمد علي

دار الكتب العلمية

بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

دار الكتب العلمية

بيروت ـ لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon



المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسوله وعبده سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام.

أما بعد:

فهذا كتاب «مكاشفة القلوب المقرّب إلى حضرة علاّم الغيوب» وهو مختصر للكتاب المسمى بنفس الاسم للإمام الغزالي، كما أشار إلى ذلك واضع المختصر في مقدمة الكتاب، حيث قال: «وبعد، فهذا كتاب اختصرته من الكتاب البديع حسن الصنيع المسمى بمكاشفة القلوب المقرّب إلى علاّم الغيوب المنسوب إلى الشيخ الغزالي، وقد سميته كأصله بمكاشفة القلوب»[1].

أما واضع هذا المختصر فهو بعض الأفاضل وقد بقي مجهول الاسم، وقد اختصره من «المكاشفة الكبرى» للغزالي كما سمّاه بعض الباحثين[2].

ونشير إلى أن هذا الكتاب قد طُبع أكثر من مرة؛ ولأهميته وأهمية المواضيع التي احتوته نعيد طباعته بحلّة جديدة حاولنا فيها استدراك بعض الأخطاء في الطبعات السابقة، آملين أن يلقى هذا العمل الرضى والقبول لدى القراء الكرام. والحمد لله أولاً وآخراً.

دار الكتب العلميّة

بيروت ـ لبنان

---

(١) انظر ص ٧ من هذا الكتاب.

(٢) انظر: مؤلفات الغزالي لعبد الرحمٰن بدوي ص ٢٧٧ ـ ٣٠٢، والمنقذ من الضلال تحقيق د. جميل صليبا ود. كامل عياد (ص ٣٨ ـ ٥٠) دار الأندلس بيروت ١٩٦٧، والغزالي: حياته ـ آثاره ـ فلسفته، تأليف أحمد شمس الدين ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠ (ص ٢٣).

ترجمة الإمام الغزالي[1]

هو الإمام الجليل محمد بن محمد بن أحمد الطوسي أبو حامد الغزالي، أحد أعظم أعلام الفكر في التاريخ الإسلامي وأشدّهم تأثيراً في ميادين علوم الدنيا والدين. ولد بطوس إحدى مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ. قرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده على الإمام أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان وهو دون العشرين وأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، ثم عاد إلى طوس فمكث فيها ثلاث سنين ثم التحق بعدها بإمام الحرمين الجويني بنيسابور سنة ٤٧٣ هـ، حيث لازمه وأخذ عنه أصول المذهب والخلاف والجدل والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وصنّف في كل فنّ من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها.

ولما مات إمام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ، خرج الغزالي إلى المعسكر قاصداً الوزير نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي، وكان هذا الوزير قد أسس في بغداد المدرسة النظامية، فعين الغزالي أستاذاً فيها سنة ٤٨٤ هـ، فتلقّاه الناس بالقبول والاحترام. وعلّم الغزالي في نظامية بغداد مدة أربع سنوات (٤٨٤ ـ ٤٨٨ هـ) مرّ خلالها بأزمات نفسية عنيفة وصفها في كتابه «المنقذ من الضلال»، وقد أدّته الشكوك التي اعترته في معتقداته المسبقة إلى التخلي نهائياً عن التدريس ومغادرة بغداد سنة ٤٨٨ هـ. فقصد الحجّ إلى بيت الله الحرام بعد أن استناب أخاه في التدريس. ثم دخل دمشق سنة ٤٨٩ هـ، فلبث بها أياماً يسيرة لم يجد فيها ما يقيم به أوده من قلة ذات اليد. ثم توجّه

---

(١) هناك كتب كثيرة ترجمت للإمام الغزالي، نذكر منها: إتحاف السادة المتقين للزبيدي (ج ١ ص ٩ وما بعدها ـ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٩) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (ج ٤ ص ١٠١ ـ ١٨٢، طبعة مصر ١٣٢٤ هـ) وتبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص ٢٩١ ـ ٣٠٦، طبعة دمشق ١٣٤٧ هـ) والوافي بالوفيات للصفدي (ج ١ ص ٢٧٤ ـ طبع اسطنبول ١٩٣١) وشذرات الذهب للحنبلي (ج ٤ ص ١٠ ـ ١٣، مصر ١٩٤٨). وفي كتاب المنقذ من الضلال جانب من سيرته. وانظر أيضاً كتاب «الغزالي ـ حياته، آثاره، فلسفته»، لأحمد شمس الدين (طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠).

إلى بيت المقدس فجاور به مدة، عاد بعدها إلى دمشق واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع بها. وقد أقام الغزالي بالشام نحواً من عشر سنين على ما ذكر الحافظ ابن عساكر[1]. ثم عاد بعدها إلى التنقل بين الحجاز وبغداد ونيسابور، إلى أن انتهى به الترحال إلى طوس حيث لازم بيته وانقطع إلى الوعظ والعبادة والتدريس، واستمر على ذلك إلى أن مات في جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ عن سنّ بلغت به الخامسة والخمسين.

(١) الزبيدي: إتحاف السادة المتقين (١/ ١٠).



[خطبة الكتاب]

الحمد لله الذي أحسن تدبيره الكائنات وخلق الأرضين والسموات وأنزل الماء من المعصرات وأنشأ الحب والنبات وقدر الأرزاق والأقوات وأثاب على الأعمال الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذي المعجزات الظاهرات الذي حصل من نوره وجود الكائنات.

وبعد: فهذا كتاب اختصرته من الكتاب البديع حسن الصنيع المسمى بمكاشفة القلوب المقرب إلى علام الغيوب المنسوب إلى الشيخ الغزالي وقد سميته كأصله بمكاشفة القلوب وأعوذ بالله الشرك والذنوب واقتصرت فيه على مائة وأحد عشر باباً ليحفظ ما فيها.

الباب الأول

في بيان الخوف

جاءَ في الخبر عن النَّبي ﷺ أنه قال[1]: «إنَّ الله تعالى خلقَ ملكاً له جناح في المشرق وجناح في المغرب ورأسه تحتَ العرض ورجلاه تحتَ الأرض السابعة، وعليه بعدد خلق الله تعالى ريش، فإذا صلَّى رجل أو امرأة من أُمتي عليَّ أمره الله تعالى بأن ينغمسَ في بحرٍ من نورٍ تحتَ العرش فيه فينغمس فيه، ثمَّ يخرج وينفض جناحه فيقطر من كل ريشة قطرة فيه، فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة».

قال بعضُ الحكماء: سلامةُ الجسد في قلةِ الطعام، وسلامة الروح في قلة الآثام وسلامة الدين في الصَّلاة على خيرِ الأنام قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا اتقوا الله﴾ [سورة الحشر: الآية ١٨] يعني اخشوا الله وأطيعوه، ولتنظر نفس ما قدمت لغد ـ يعني عملت ليوم القيامة ـ ومعناه تصدقوا واعملوا بالطاعة لتهجدوا ثوابها يوم القيامة واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون من الخير والشر فإنَّ الملائكة والسَّماء والأرض واللَّيل والنَّهار يوم القيامة يشهدون بما عمل ابن آدم من خير أو شر طاعة أو معصية حتى أنَّ جوارحه تشهد عليه والأرض تشهد للمؤمن والزاهد فتقول: صلَّى عليَّ وصامَ وحج وجاهدَ، فيفرح المؤمن والزاهد وتشهد على الكافر والعاصي.

فتقول: أشرك عليَّ وزنا وشرب الخمر، وأكل الحرام فيا ويله إن ناقشه في الحساب أرحم الراحمين المؤمن هو الذي يخاف الله تعالى بجميع جوارحه كما قال الفقيه أبو اللَّيث: علامةُ خوف الله تعالى تظهر في سبعةِ أشياء أولها لسانه، فيمنعه من الكذب والغيبة والنميمة والبهتان، وكلام الفضول ويجعله مشغولاً بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ومذاكرة العلم.

والثاني: قلبه فيخرج[2] منه العداوة والبهتان وحسد الإخوان لأنَّ الحسدَ يمحو الحسنات كما قال ﷺ: «الحسدُ يأكلُ الحسنات كما تأكل النَّار الحطب» واعلم أنَّ الحسدَ من الأمراض العظيمة من القلوب ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل.

والثالث: نظره فلا ينظر إلى الحرام من الأكل والشرب والكسوة وغيرها، ولا إلى

الدُّنيا بالرغبة بل يكون نظره على وجه الاعتبار ولا ينظر إلى ما لا يحل له كما قال ﷺ: «مَنْ ملأَ عينه مِنَ الحرام ملأَ الله تعالى يوم القيامة عينه من النَّار».

والرابع: بطنه فلا يدخل بطنه حراماً فإنه إثم كبير كما قال ﷺ: «إذا وقَعَت لقمة من الحرام في بطنِ ابن آدم لعنهُ كل ملكٍ في الأرضِ والسَّماء ما دامت تلكَ اللقمة في بطنِه، وإنْ ماتَ على تلكَ الحالة فمأواهُ جَهنَّم».

والخامس: يده فلا يمد يده إلى الحرام بل يمدها إلى ما فيه طاعة الله تعالى ورويَ عن كَعْب الأحبار أنه قال: إنَّ الله تعالى خلق داراً من زبرجدة خضراء فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت لا ينزلها إلاّ رجل يعرض عليه الحرام فيتركه من مخافةِ الله تعالى.

والسادس: قدمه فلا يمشي في معصيةِ الله بل يمشي في طاعته ورضاه وإلى صُحبة العلماء والصُّلحاء.

والسابع: طاعته فيجعل طاعته خالصة لوجه الله تعالى ويخاف من الرياء والنفاق فإذا فعل ذلك فهو من الَّذين قالَ الله تعالى في حقهم: ﴿والآخرة عندَ ربّك للمُتقين﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٥] وقال في آية أخرى: ﴿إنَّ المُتقين في جناتٍ وعيون﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٥] وقال الله تعالى: ﴿إنَّ المُتقين في جناتٍ ونعيم﴾ [سورة الطور: الآية ١٧] وقال الله تعالى: ﴿إنَّ المُتقين في مقامٍ أمين﴾ [سورة الدخان: الآية ٥٢] كأنه تعالى يقول إنهم ينجونَ يوم القيامة من النَّار وينبغي للمؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء، فيرجو رحمة الله ولا ييأس منها، كما قال الله تعالى: ﴿ولا تقنطوا من رحمةِ الله﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٨] ويعبد الله ويرجع عن أفعاله القبيحة ويتوب إلى الله تعالى.

حكاية: بينما داود عليه السَّلام جالس في صومعته يتلو الزبور إذ رأى دودة حمراء في التراب، فقال في نفسه: ما أرادَ الله في هذه الدودة، فأذنَ الله الدودة حتى تكلمت، فقالت: يا نبي الله أمّا نهاري فألهمني ربي أن أقولَ في كل يومٍ سُبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر ألف مرة.

وأما ليلي فألهمني ربي أنْ أقول في كل ليلة اللَّهُمَّ صلّ على مُحمدٍ النبي الأمي وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم ألف مرة، فأنت ما تقول حتى أستفيد منك، فندم داود عليه السَّلام على احتقار الدودة، وخاف من الله تعالى وتاب إليه وتوكل عليه.

وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه إذا ذكر خطيئته يُغشى عليه ويسمع اضطراب

قلبه ميلاً في ميل، فأرسل الله جبريل فأتاه، فقال له الجبار: يُقرئك السلام، ويقول لك: هل رأيتَ خليلاً يخاف خليله؟ فقال: يا جبريل إذا أذكرت خطيئتي وفكرت في عقوبته نسيت خلتي، فهذه أحوال الأنبياء والصَّالحين والزاهدين فتأمل.

الباب الثاني

في الخوف من الله تعالى أيضاً

قال أبو اللَّيث رحمهُ الله تعالى: إنَّ الله وملائكة في السَّماء السابعة سجداً منذ خلقهم الله تعالى إلى يوم القيامة ترتعد فرائصهم من مخافة الله تعالى، وإذا كانوا يوم القيامة رفعوا رؤوسهم، فقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك وذلك قوله تعالى: ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠] يعني لا يعصون الله تعالى طرفة عين. وقال رسول الله ﷺ: «**إذا اقشعرَ جسد العبد من خشيةِ الله تعالى تحاتت عنهُ ذنوبه كما يتحات الشَّجرة ورقها**».

حكي أن رجلاً تعلق قلبه بامرأة فخرجت تلك المرأة إلى حاجة لها فذهبَ الرجل معها فلما خلا بها في البادية ونامَ الناسُ أفشى سره إليها، فقالت له المرأة: انظر أنامَ الناسُ بأجمعهم؟ ففرحَ الرجلُ بقولها وظن أنها قد أجابته، فقامَ وطافَ حولَ القافلة فإذا النَّاسُ نيام، فرجع إليها، وقال لها: نعم هم نيام، فقالت: ما تقول في الله تعالى أنائم في هذه الساعة؟.

فقال الرجلُ: إنَّ الله تعالى لا ينام، ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم، فقالت المرأة: إنَّ الذي لم ينم ولا ينام يرانا وإنْ كانَ الناسُ لا يروننا فذلك أولى أنْ يخاف. فتركها الرجل خوفاً من الخالق وتابَ، ورجع إلى وطنه. فلما توفي رأوه في المنام فقيل له: ما فعلَ الله بك؟ فقال: غفرَ لي بخوفي وتركي ذلك الذنب.

حكاية: كان في بني إسرائيل رجل عابد ذو عيال، وأصابته المجاعة، وصار مُضطراً، فبعثَ امرأته لتطلب شيئاً لعيالها، فجاءت إلى بيت رجل تاجر وطلبت منه ما تقوت به عيالها، فقال الرجلُ: نعم ولكن مكنيني من نفسك، فسكتت المرأة وعادت إلى بيتها، فنظرت إلى عيالها يصيحون، ويقولون: يا أمي نحن نموت من الجوع أعطينا ما نأكله، فذهبت إلى الرجل وكلمته في أمر عيالها.

فقال لها: أتكون حاجتي مقضية؟ فقالت: نعم. فلما خلا بها ارتعدت مفاصلها حتى كادت أعضاؤها تزول عن مواضعها، فقال لها: ما لك؟ فقالت: إني أخاف الله فقال الرجل: إنَّك تخافين الله تعالى مع ما بك من الفقر، فأنا أحقُّ بالخوف منك وامتنعَ عنها، وقضى حاجتها وانصرفت بنعمة كثيرة إلى أولادها، ففرحوا، فأوحى الله إلى مُوسى عليه السَّلام أنْ قُل لفلان بن فلان أني قد غفرتُ ذنوبه، فجاء موسى عليه السلام.

فقال: لعلك قد فعلت خيراً بينك وبين الله، فذكرَ القصة عليه، فقال: إنَّ الله تعالى قد غفرَ لك ما كانَ من ذنوبك، كذا في مجمع اللطائف، ورويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقولُ الله تعالى: لا أجمع على عبدي خوفين ولَا أمنين من خافني في الدُّنيا أمنته في الآخرة ومن أمنني في الدّنيا أخفته يوم القيامة**» وقالَ الله تعالى: ﴿فلا تخشوا الناس واخشوني﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٤] وقال في آية أخرى: ﴿فلا تخافوهم وخافون إنْ كُنتم مؤمنين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٥] وكان عُمر رضي الله عنه يسقط من الخوف إذا سمع آية من القُرآن مغشياً عليه، وأخذ يوماً تبنة فقال: يا ليتني كنت تبنة ولم أك شيئاً مذكوراً، يا ليتني لم تلدني أمي، ويبكي كثيراً حتى تجري دموعه من عينيه، فكأنَّ في وجهه خطان أسودان من الدموع.

وقال ﷺ: «**لا يلجُ النَّارَ مَنْ بكى خشيةَ الله حتى يعودَ اللبن في الضرع**» وفي دقائق الأخبار: «**يؤتى به يوم القيامة فترجح سيئاته فيؤمر به إلى النار فتتكلم شعرة من شعرات عينيه، وتقول: يا ربّ رسولك مُحمد ﷺ قال: من بكى من خشيةِ الله حَرَّمَ الله تلك العين على النار وإني بكيتُ من خشيتك فيغفر الله له ويستخلصه من النار ببركة شعرة واحدة كانت تبكي من خشيةِ الله في الدُّنيا ويُنادي جبريل عليه السلام نجا فلان بن فلان بشعرة واحدة**».

وفي بداية الهداية: إذا كانَ يومُ القيامة جيء بجهنم، فزفر زفرة، فتجثوا كل أمة على ركبها من هولها كما قال الله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٨] أي على الركب كل أمة تدعى إلى كتابها، فإذا أتوا النار سمعوا لها تغيظاً وزفيراً تسمع زفرتها من مسيرة خمسمائة عام وكل واحد حتى الأنبياء يقول: نفسي نفسي إلاّ صفي الأنبياء ﷺ فإنه يقول: «أُمتي أُمتي»، وتخرج من الجحيم نار مثل الجبال، فتجتهد أمة مُحمد ﷺ في دفعها وتقول: يا نار بحق المُصلين وبحق المُصدقين وبحق الخاشعين وبحق الصائمين أنْ ترجعي فلا ترجع.

ويُنادي جِبْريل عليه السّلام أنَّ النار قد قصدت أمة مُحمد ﷺ ثم يأتي بقدح من ماء

فيناوله رسول الله ﷺ ويقول: يا رسول الله خذ هذا فرشه عليها، فيرشه عليها، فتطفأ في الحال، فيقول ﷺ: «**ما هذا الماء؟**» فيقول جبريل عليه السّلام: هذا ماء دموع عصاة أمتك الذين بكوا من خشية الله تعالى فالآن أمرت أنْ أعطيكه لترشه على النار، فتطفأ النار بإذن الله تعالى، وكان ﷺ يقول: «**اللهم ارزقني عينين تبكيان من خشيتك قبل أنْ يكون الدمع**»:

أعينــيَّ هــلا تبكيــان علــى ذنبــي   تنـاثـر عُمـري مـنْ يـدي ولا أدري

وجاءَ في الخبر أنَّ النبي ﷺ قال: «**ما منْ عبد مؤمن يخرج من عينيه من الدموع مثلَ رأس الذباب من خشيةِ الله تعالى فيصيب حر وجهه فتمسه النَّار أبداً**».

حُكي عن مُحمد بن المُنذرِ رحمه الله تعالى أنه كان إذا بكى يمسح وجهه ولحيته بدموعه، ويقول: بلغني أنَّ النارَ لا تأكل موضعاً مسته الدموع، فينبغي للمؤمن أنْ يخاف من عذاب الله وينهي نفسه عن الشهوات النفسانية، كما قال الله تعالى: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدُّنيا فإنَّ الجحيم هي المأوى وأما منْ خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنَّ الجنة هي المأوى﴾ [سورة النازعات: الآية ٣٧] ومن أراد أنْ ينجو من عذابِ الله وينال ثوابه ورحمته فليصبر على شدائد الدنيا وطاعة الله ويجتنب المعاصي.

وفي زهرِ الرياض روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا دخلَ أهلُ الجَنَّة الجنة تتلقاهم الملائكة بكل خيرٍ ونعمة، فتوضع لهم المنابر وتفرش ويؤتى لهم بألوانِ الأطعمة والفواكه، ثم تكون فيهم مع هذه النعمة حيرة فيقول الله: يا عبادي ما هذه الحيرة، وليست هذه دار حيرة، فيقولون: إنَّ لنا موعداً قد جاءَ وقته، فيقول الله تعالى للملائكة: ارفعوا الحُجب عن الوجوه، فتقولُ الملائكة: يا ربّنا كيفَ يرونك وقد كانوا عُصاة؟ فيقول الله تعالى: ارفعوا الحُجب فإنَّهم كانوا ذاكرين باكين في الدُّنيا طمعاً في لقائي فترفع الحُجب، فينظرون، فيخرون سُجداً لله عز وجل فيقول الله تعالى: ارفعوا رؤوسكم، فإنَّ هذه ليست بدار العمل بل دار الكرامة، فيتجلى لهم بلا كيف، ويقول انبساطاً: سلام عليكم يا عبادي فقد رضيت عنكم فهل رضيتم عني؟.**

فيقولون: وما لنا يا ربنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لا عين رأتْ ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلبِ بشر» وهو قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٩] وقوله تعالى: ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ [سورة يس: الآية ٥٨].

الباب الثالث

في الصبر والمرض

من أراد أنْ ينجو من عذاب الله، وينالُ ثوابه ورحمته، ويدخلُ جنته فلينهِ نفسه عن شهواتِ الدُّنيا، وليصبر على شدائدها ومصائبها. كما قال الله تعالى: ﴿والله يحبُّ الصابرين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦] والصبرُ على أوجهٍ صبرٌ على طاعة الله تعالى وصبرٌ على محارمِه، وصبرٌ على المصيبةِ وعند الصدمةِ الأولى، فمن صَبِر على طاعة الله تعالى أعطاهُ الله تعالى يوم القيامة ثلثمائة درجةٍ في الجنة، كل درجةٍ ما بينَ السماءِ والأرضِ، ومَنْ صَبِر على محارمِ الله أعطاهُ الله يومَ القيامةِ ستمائةِ درجةٍ، كل درجة مثل ما بينَ السماءِ السابعةِ والأرضِ السابعة، ومن صَبِر على المُصيبةِ أعطاه الله تعالى يومَ القيامةِ سبعمائةِ درجة في الجنةِ كل درجةٍ ما بين العرش إلى الثرى.

حُكي أنَّ زكريا عليه السَّلام هَرَبَ من اليهودِ فقفوا أثرَه، فلما دنوا منه رأى شجرةً فقال لها: يا شجرة أدخليني فيك فانشقتْ الشجرةُ فدخلَ فيها ثم التأمتْ عليه، فأشارَ عليهم إبليسُ أنْ يأتوا بالمنشارِ ويشقوها نصفين حتى يموت فيها ففعلوا كما قالَ إبليس، وذلكَ حيثُ اعتصمَ بالشجرةِ ولمْ يعتصمْ بالله، فأورثه ذلك هلاكَ نفسه فنشرَ بالمِنشارِ على فريقين.

كما روي عن النّبي ﷺ أنه يقول الله تعالى: **«ما منْ عبدٍ نزلت به بلية فاعتصمَ بي إلا أعطيتُه قبل أنْ يسألني واستجبتُ له قبل أن يدعوني، وما من عبدٍ نزلت به بلية فاعتصم بمخلوق دوني إلا أغلقتُ أبوابَ السّماء عليه»** فلمّا بلغ المنشارُ إلى دماغِه صاحَ. فقيل له: يا زكريا، إنَّ الله تعالى يقول لك: لِمَ لا تصبر للبلاء؟ تقول: آه لو قلتها مرة ثانية لأخرج اسمك من ديوان الأنبياء، فعضّ زكريا شفتيه، وصبر حتى شقوه نصفين. فيجب على العاقل أنْ يصبر للبلاء، ولا يشكو فينجو من عذاب الدُّنيا والآخرة، لأن أشد البلاء على الأنبياء والأولياء.

قال الجُنيد البغدادي رحمه الله: البلاءُ سراجُ العارفين، ويقظة المُريدين، وصلاحُ المؤمنين، وهلاكُ الغافلين لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يأتيه البلاء ويرضى ويصبر

قال ﷺ: «منْ مرضَ ليلة فصبرَ ورضي عن الله تعالى خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه، **فإذا مرضتم فلا تتمنوا العافية»**. قال الضَّحاك: من لم يبتل بين كل أربعين ليلة ببلية، أو همّ، أو مصيبة فليس له عند الله خير. عن مُعاذ بن جَبَل رضي الله عنه قال: إذا ابتلى الله العبد المؤمن بالسقم، قال لصاحب الشمال: ارفع القلم عنه وقال لصاحب اليمين: اكتب لعبدي أحسن ما كان يعمل.

وجاء في الخبر عن النبي ﷺ: **«إذا مرضَ العبدُ بعثَ الله إليه ملكين»**. فقالَ: انظر ما يقول عبدي، فإن هو قالَ: الحمد لله رفع ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول لعبدي: على إنْ أنا توفيته أنْ أدخله الجنةَ، وإن أنا شفيته أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته.

حُكي أنّه كان في بني إسرائيل رجلٌ فاسقٌ وكان لا يمتنع عن الفُسقِ حتى ضج أهل بلده، وعجزوا عن منعه عن فسقه، فتضرعوا إلى الله تعالى فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام إنَّ في بني إسرائيل شاباً فاسقاً فأخرجه من بلدهم حتى لا تقع عليهم النَّار بسبب فسقه، فجاءَ موسى عليه السَّلام فأخرجه، فذهب الشاب إلى قرية من القرى، فأمر الله موسى أنّ يخرجه من تلك القرية فأخرجه موسى عليه السلام، فخرجَ إلى مفازةٍ ليس فيها خلقٌ ولا زرعٌ ولا وحوشٌ ولا طيور، فمرضَ في تلك المفازةِ وليس عنده معينٌ يعينه فوقع على الترابِ ووضعَ رأسه عليه وقال:

لو كانت والدتي عِندَ رأسي لرحمتني ولبكتْ على مذلتي، ولو كان والدي حاضراً لأعانني وتولى أمري، ولو كانت زوجتي حاضرة لبكت على فراقي، ولو كان أولادي حاضرين عندي لبكوا خلف جنازتي، ولقالوا: اللهم اغفر لوالدنا الغريب الضعيف العاصي الفاسق المطرود من بلده إلى قرية، ومن القرية إلى مفازة ومن المفازة يخرج من الدنيا إلى الآخرة، آيساً من كل الأشياء اللهم قطعتني عن والدي وأولادي وزوجتي، فلا تقطعني من رحمتك فإنَّك أحرقْتَ قلبي بفراقهم فلا تُحرقني بنارِك لأجل معصيتي، فأرسل الله تعالى له حوراء على صفة أمه وزوجته، وغلماناً على صفة أولاده وملكاً على صفة والده فجلسوا عنده وبكوا عليه.

فقال: إنَّ هذا والدي ووالدتي وزوجتي وأولادي، حضروا عندي وطابَ قلبه ووصل إلى رحمة الله تعالى طاهراً مغفوراً له، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام اذهبْ إلى مفازةِ كذا في موضعِ كذا، فإنه مات فيه ولي من الأولياء فأحضره وتولى أمره وواره.

فلما حضر موسى عليه السَّلام ذلك الموضع، رأى الشاب الذي أخرجه من البلدِ ومن القريةِ بأمر الله تعالى، ورأى الحور العين حواليه فقال موسى عليه السلام: يا ربّ أما هذا الشاب الذي أخرجته من البلد ومن القرية بأمرك؟ فقال الله تعالى: يا موسى إني رحمته وتجاوزت عنه بأنينه في موضعه وفراقه وطنه ووالدته ووالده وأولاده وزوجته، وأرسلت إليه حوراء على صفة والدته وملكاً على صفة والده وحوراء على صفة زوجته يترحمون على مذلته في غربته، فإنه إذا ماتَ الغريبُ بكى عليه أهل السمواتِ وأهل الأرضِ رحمة له، فكيف لا أرحمه وأنا أرحم الراحمين إذا وقع الغريبُ في النزاع.

يقول الله: يا ملائكتي هذا غريب مسافر تركَ أولاده وعياله ووالديه، وإذا ماتَ لا يبكي عليه أحد ولا يحزن، ثم يجعل الله واحداً من الملائكة على صورةِ أبيه وواحداً على صورة أمه وواحداً على صورة ولده وواحداً على صورة واحد من أقاربه، فيدخلون عليه فيفتح عينيه، فيرى والديه وعياله، فيطيب قلبه وتخرج روحه بالفرح والسرور، ثم إذا خرجت جنازته يشيعونها ويدعون له على قبره إلى يوم القيامة فذلك قوله تعالى الله لطيف بعباده.

وقالَ ابن عطاء: يتبين صدق العبدِ من كذبِهِ في أوقات البلاءِ والرخاءِ فمن شكر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء، فهو من الكاذبين لو اجتمع في رجل علم الثقلين، ثم هاجت عليه رياح البلاء، فأظهر الشكوى لما نزل به لا ينفعه علمه ولا عمله كما جاء في الحديث القدسي «يقولُ الله تعالى: **من لم يرض بقضائي ولم يشكر لعطائي فليطلب رباً سواي**».

حُكي عن وَهْب بن مُنبّه أنَّ نبياً عبد الله خمسين عاماً، فأوحى الله إليه إني قد غفرت لك فقال: يا ربّ لماذا تغفر لي ولم أذنب قط، فأمرَ الله عرقه فضرب عليه ولم ينم تلك الليلة، فجاء ملك الصبح فشكا إليه ما لقي من ضربان العرق فقال: إنَّ ربك يقول لك عبادة خمسين عام ما تعدل شكوى هذا العرق.

الباب الرابع

في الرياضة والشهوة النفسانية

أوحى الله إلى موسى عليه السّلام: يا موسى إنْ أردت أن أكونَ أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ومن وسوسة قلبك، ومن روحك إلى بدنك، ومن نور بصرك إلى عينك ومن سمعك إلى أذنك، فأكثر من الصّلاة على مُحمد ﷺ قال تعالى: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ [سورة الحشر: الآية ١٨] يعني ما عملت في يوم القيامة.

اعلم أيها الإنسان أنّ النفسَ الأمّارة بالسوءِ هي أعدى لك من إبليس، وإنما يتقوى عليك الشيطانُ بهوى النفسِ وشهواتها، فلا تغرنكَ نفسُك بالأماني والغرور لأن من طبع النفسِ الأمن والغفلة والراحة والفترة والكسل، فدعواها باطل وكل شيء منها غرور، وإنْ رضيت عنها واتبعت أمرها هلكت، وإنْ غفلت عن محاسبتها غرقت، وإن عجزت عن مخالفتها واتبعت هواها قادتك إلى النارِ، وليس للنفس مرجوع إلى الخير، وهي رأسُ البلايا ومعدنُ الفضيحةِ، وهي خزانة إبليس ومأوى كل شر، لا يعرفها إلا خالقها واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون يعني من الخيرِ والشرِ، وإذا تفكر العبدُ فيما مضى من عمرِه في طلب آخرته، كان هذا التفكر غسل القلب كما قال ﷺ: «**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**» كذا تفسير أبي الليث فينبغي للعاقل أنْ يتوبَ من الذنوبِ الماضيةِ، ويتفكر فيما يقربه، وينجو به في الدارِ الآخرةِ ويقصر الأمل ويعجل التوبة ويذكر الله تعالى ويتركُ المناهي ويصبِّر نفسه ولا يتبع الشهوات النفسانية، فالنفس صنمٌ فمن عبدَ النفسَ، فهو يعبدُ الصنم، ومن عبد الله بالإخلاص فهو الذي قهرَ نفسه.

رُوي أنَّ مالكَ بن دينار، كانَ يمشي في سوقِ البصرةِ، فرأى التينَ فاشتهاهُ فخلعَ نعله وأعطاه إلى البقالِ، وقال: أعطني التينَ فرأى البقالُ النعلَ، وقال: لا يساوي شيئاً، فمضى مالك فقيل للبقال: أليسَ تعرفُ من هذا؟ قال: لا قيل: هو مالك بن دينار فحمل البقال الطبقَ على رأس غُلامه وقال له: إن قبل هذا منك فأنتَ حرٌّ فعدا الغلام خلف مالك بن دينار، وقال له: اقبل هذا مني فأبى، فقال: اقبل فإن فيه تحريري، فقال مالك بن دينار: إن كان فيه تحريرك ففيه تعذيبي، فألح عليه الغلام فقال مالك بن دينار:

حلفتُ أن لا أبيعَ الدينَ بالتينِ ولا آكل التين إلا يوم الدين.

حُكي أنَّ ابن دينارٍ مرضَ مرضه الذي ماتَ فيه، فاشتهى قدحاً من العسلِ واللبن، ليثرد فيه رغيفاً حاراً، فمضى الخادمُ وحمله إليه، فأخذه مالك بن دينار ونظر فيه ساعة، وقال: يا نفس قد صَبِرت ثلاثين سنة، وقد بقي من عُمركِ ساعة ورمى القدح من يديه، وصَبَّر نفسه وماتَ وهكذا أحوالُ الأنبياءِ والأولياءِ والصادقين والعاشقين والزاهدين.

قال سليمان بن داود عليه السلام: إنَّ القاهِرَ لنفسِه أشدُّ ممن يفتحُ المدينة وحده، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ما أنا ونفسي إلا كراعي غنم كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب آخر، من أمات نفسه يُلفُ في كفنِ الرحمةِ، ويُدفنُ في أرضِ الكرامةِ، ومن أماتَ قلبَه يموتُ في كفرِ اللعنةِ ويدفن في أرض العقوبة.

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى: جاهد نفسك بالطاعةِ والرياضةِ، فالرياضةُ هجرُ المنامِ وقلة الكلام وحملُ الأذى من الأنام والقلة من الطعام، فيتولد من قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، ومن قلة الطعام موت الشهوات، لأن في كثرةِ الأكلِ قسوةُ القلبِ وذهاب نوره، الحكمةُ بالجوع، والشبع يبعد من الله كما قال ﷺ: **«نوِّروا قلوبكم بالجوعِ، وجاهدوا أنفسكم بالجوعِ والعطشِ، وأديموا قرعَ بابَ الجنةِ بالجوعِ، فإنَّ الأجرَ في ذلك كأجرِ المجاهد في سبيل الله، وإنَّه ليس من عملٍ أحبُّ إلى الله تعالى من جوعٍ وعطشٍ، ولن يلج ملكوت السَّماء من ملأ بطنه وفقد حلاوة العبادات»**.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما شبعت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربي، وما رويت منذُ أسلمت اشتياقاً إلى لقاء ربي، لأن في كثرةِ الأكلِ قلة العبادات، لأنه إذا أكثرَ الإنسانُ الأكلَ ثقل بدنُه وغلبته عيناه وفترت أعضاؤه فلا يجيءُ منه شيء وإن اجتهد، إلا النوم فيكون كالجيفة الملقاة كذا في منهاج العابدين عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: لا تكثر النوم والأكل فإن من أكثر منهما جاء يوم القيامةِ مفلساً من الأعمالِ الصالحةِ كذا في منية المفتي.

وقال ﷺ: **«لا تُميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كُثرَ عليه الماء»** ولقد شبه ذلك بعض الصالحين بأنَّ المعدة كالقدرِ تحت القلبِ تغلي، والبخار يصل إليه فكثرة البخار تكدره وتسوده، وفي كثرةِ الأكلِ قلة الفهمِ والعلمِ، فإنَّ البطنة تُذهب الفطنة.

حُكي عن يحيى بن زكريا عليه السلام أنَّ إبليس بدا له وعليه معاليق فقال له يحيى: ما هذه؟ قال: الشهوات التي أصيد بها بني آدم، قال يحيى: هل تجد لي فيها شيئاً؟ قال: لا إلا إنَّك شبعتَ ذاتَ ليلةٍ فثقلناك عن الصلاةِ، قال يحيى عليه السلام: لا جرم أني لا أشبع بعدها أبداً، فقال إبليس: لا جرم أني لا أنصح أحداً أبداً، فهذه فيمن لم يشبع في عمره إلا ليلة، فكيف فيمن لا يجوع في عمره ليلة، ثم يطمع في العبادة.

حُكي أيضاً عن يحيى أنَّ زكريا عليه السلام أنَّه شبع مرةً من خبز شعير، فنامَ تلكَ الليلةِ عن ورده، فأوحى الله تعالى إليه، يا يحيى هل وجدت داراً هي خير لك من داري، أو وجدت جواراً هو خير لكَ من جواري وعزتي وجلالي، لو اطلعتَ على الفردوس واطلعت على جهنم اطلاعة، لبكيتَ الصديد بدل الدموع، ولبست الحديد بدل المسوح.

الباب الخامس

في غلبة النفس وعداوة الشيطان

ينبغي للعاقل أنْ يقمع شهوةَ النفسِ بالجوعِ، إذا جاعَ قهرَ لعدو الله، فإنَّ وسيلة الشيطان الشهواتِ والأكلِ والشربِ، كما قال ﷺ: **«إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع» «إن أقربَ الناسِ إلى الله تعالى يوم القيامةِ من طال جوعه وعطشه»، وأعظم المُهلكات لابن آدم شهوة البطنِ، فيها أخرج آدم وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، إذ نهاهُما بها عن أكلِ الشجرةِ فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا، فبدت لهما سوآتُهما والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات»**.

وقال بعضُ الحُكماء: من استولت عليه النفس صارَ أسيراً في حُب شهواتها محصوراً في سجن هفواتها ومنعت قلبه من الفوائد من سقى أرض الجوارح بالشَّهوات فقد غرسَ في قلبه شجرة الندامة إنَّ الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة ضروب، خلقَ الملائكة وركبَ فيهم العقل ولم يركب فيهم الشهوة، وخلقَ البهائم وركبَ فيها الشَّهوة ولم يركب فيها العقل، وخلقَ ابن آدم وركب فيه العقل والشَّهوة فمن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه، ومن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة.

حكاية: قال إبراهيم الخواص: كنتُ في جبل اللكام، فرأيتُ رماناً فاشتهيتُه فأخذت منه واحدة، فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان، فرأيت رجلاً مطروحاً قد

اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السَّلامُ عليك، فقال لي: وعليك السلام يا إبراهيم فقلت: ومن أينَ عرفتني؟ فقال: من عرفَ الله لا يخفى عليه شيء فقلتُ له: أرى لك مع الله حالاً فهلا سألته أنْ يُنجيك من هذه الزنابير، فقال: وإني أرى لك مع الله حالاً فهلا سألته أنْ يُنجيك من شهوة الرمان، فإنَّ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولذع الزنابير يجد ألمه في الدنيا، ولذع الزنابير على النفوس ولذع الشهوات على القلوب، فمضيت وتركته.

الشهوة تصير الملوك عبيداً والصبر يصير العبيد ملوكاً، ألا ترى إلى قصة يُوسف عليه السّلام وزليخا، فقد صار يوسُف سلطان مِصْر بصبره، وصارت زليخا ذليلة حقيرة فقيرة عجوزاً عمياء لأجل شهوتها فإنَّ زليخا لم تصبر عن محبة يوسف.

حكى أبو الحسن الرَّازي أنه رأى والده في منامِه بعد موته بسنتين، وعليه ثياب من القطران، فقال له: يا أبي ما لي أرى عليك هيئة أهل النار؟ فقال: يا ولدي جذبتني نفسي إلى النَّار، فاحذر يا ولدي من خديعة نفسك.

إنـي ابتليـتُ بـأربـع مـا سلطـوا ... إلاّ لشـدةِ شقـوتـي وعَنـائـي

إبليسُ والـدُّنيـا ونفسـي والهـوى ... كيـفَ الخـلاص وكلُّهـم أعـدائـي

وأرى الهوى تدعو إليه خواطري ... فـي ظلمـةِ الشهـواتِ والآراءِ

قال حاتم الأصم رحمهُ الله: نفسي رباطي، وعلمي سلاحي، وذنبي خيبتي، والشيطان عدوي، وأنا بنفسي غاده.

حُكي عن بعض أهل المعرفة أنه قال: الجهاد على ثلاثة أصناف: جهاد مع الكفار، وهو جهاد الظاهر كالذي في قوله تعالى: ﴿يُجاهدون في سبيل الله﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] وجهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة كقوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥] وجهاد مع النفس الأمارة بالسوء، كالذي في قوله تعالى: ﴿والّذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩] وقوله ﷺ: «**أفضلُ الجهاد جهادُ النفس**»، وإنَّ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كانوا إذا رجعوا من جهاد الكفار يقولون: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهادِ الأكبر.

وإنما سمّوا الجهاد مع الهوى، والنفس والشيطان أكبر لأنَّ الجهاد معها أدوم وجهاد الكفار يكون في وقتٍ دون وَقت ولأن الغازي يرى العدو ولا يرى الشيطان، والجهاد مع عدو يراه أسهل من الجهاد مع لا يراه، ولأنَّ للشيطان معيناً من نفسك وهو الهوى، وليس للكافر مِن نفسك معين، فلذلك كان أشد ولأنك إذا قتلت الكافر تجد النصر والغنيمة، وإن

قتلك الكافر تجد الشهادة والجنَّة، ولا تقدر أن تقتلَ الشَّيطان وإن قتلك الشيطان تقع في عقوبة الرَّحمٰن.

كما قيل: من فرّ منه فرسه في الحرب وقع في أيدي الكفار، ومن فر منه الإيمان يقع في غضبِ الجبار، نعوذُ بالله منه ومن وقع في أيدي الكفار لا يسودُ ولا تغل يده إلى عنقه ولا تقيد رجله ولا تجوع بطنه، ولا يعرى بدنه، ومن وقع في غضب الجبار يسود وجهه، وتغل يده إلى عنقه بالأغلال، وتقيد رجله بقيود النار، ويكون طعامه ناراً وشرابه ناراً ولباسه من نار.

الباب السادس

في الغفلة

الغفلة تزيد الحسرة، الغفلة تزيل النعمة وتحجب عن الخدمة، الغفلة تزيد الحسد، الغفلة تزيد الملامة والندامة.

حُكي أنَّ بعض الصَّالحين رأى أستاذه في المنام، فسأله أي الحسرة أعظم عندكم؟ فقال: حسرة الغفلة.

وروي أنَّ بعضهم رأى ذا النون المِصْري في منامِه، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني بين يديه، وقال لي: يا مُدعي يا كذاب ادعيتَ محبتي، ثم غفلت عني.

أنـتَ فـي غفلـةٍ وقلبـكَ سـاهـي ذهـبَ العمـرُ والـذنـوب كَمَـا هـي

حُكي أنَّ رجلاً من الصَّالحين رأى والده في منامه، فقال: يا أبت كيف أنت، وكيف حالك؟ فقال: يا ولدي عشنا في الدُّنيا غافلين ومتنا غافلين، وفي زهر الرياض كان يعقوب عليه السّلام مؤاخياً لملك الموت، فزاره، قال له يعقوب: يا ملك الموت أزائراً جئت، أم قابضاً روحي؟ فقال: بل زائراً، قلِ: فإني أسألك حاجة، قال: وما هي؟ قال: أن تُعلمني إذا دنى أجلي، وأردت أن تقبضَ روحي، فقال: نعم أرسل إليك رسولين، أو ثلاثة، فلما انقضى أجله أتى إليه ملك الموت، فقال: أزائراً جئت أم لقبض روحي؟ فقال: لقبضِ روحك، فقال: أولست كنت أخبرتني أنك ترسل إليّ رسولين، أو ثلاثة؟ قال: قد فعلت بياض شعرك بعد سواده وضعف بدنك بعد قوته

وانحناء جسمك بعد استقامته هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت.

مَضَى الدهرُ والأيام والذنبُ حاصل وجاءَ رسولُ الموت والقلب غافلُ
نعيمُك في الدُّنيا غرور وحسرة وعيشُك في الدُّنيا مُحال وباطلُ

قال أبو علي الدقاق: دخلتُ على رجلٍ صالح أعوده، وهو مريض وكان من المشايخ الكبار وحوله تلاميذه، وهو يبكي وقد بلغ أرذل العمر فقلت له: أيها الشيخ مم بكاؤك، أعلى الدنيا؟ فقال: أبكي على فوتِ صلاتي، قلت: وكيف ذلك، وقد كنت مُصلياً؟ قال: لأني قد بقيت إلى هذا، وما سجدت إلاّ في غفلة، ولا رفعت رأسي إلا في غفلة، وها أنا أموت على الغفلة، ثم إنه تنفس الصّعداء وأنشد يقول:

تفكرتُ في حشري ويوم قيامتي وإصباح خدي في المقابرِ ثاويا
فريداً وحيداً بعدَ عز ورفعةٍ رهيناً بجرمي والتراب وساديا
تفكرتُ في طولِ الحسابِ وعرضه وذل مقامي حينَ أعطي كتابيا
ولكنّ رجائي فيك وخالقي بأنّك تغفر يا إلٰهي خطائيا

في عيونِ الأخبار ذكر عن شقيق البَلْخي أنه قال: الناسُ يقولون ثلاثة أقوال وقد خالفوها في أفعالهم يقولون: نحن عبيد الله، وهم يعملون عمل الأحرار وهذا خلاف قولهم، ويقولون: إنَّ الله كفيل بأرزاقنا ولا تطمئن قلوبهم إلاّ بالدُّنيا وجمع حطامها، وهذا أيضاً خلاف قولهم، ويقولون: لا بد لنا من الموت وهم يعملون أعمال من لا يموت، وهذا أيضاً خلاف قولهم، فانظر لنفسك يا أخي بأي بدنٍ تقف بين يدي الله تعالى، وبأي لسانٍ تُجيبه، وماذا تقول إذا سألك عن القليل والكثير، فأعد للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون أي من الخير والشر ثم وعظ المؤمنين بأن لا يتركوا أمره وبأن يوحدوه في السر والعلانية.

جاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «مكتوبٌ على ساقِ العرش أنا مُطيع مَن أطاعني، ومُحب من أحبني، ومُجيب من دعاني، وغافرٌ لمن استغفرني» فينبغي للعاقلِ أن يطيعَ الله بالخوفِ والإخلاص في طاعتِه والرضا بقضائه والصبر على بلائِه وبالشكر على نعمائه، والقناعة بإعطائِه يقول الله تعالى: «مَنْ لم يرضَ بقضائي، ولم يصبر على بلائي ولم يشكُرني على نُعمائي، ولم يقنع بعطائي فليطلب ربًّا سوائي».

وقال رجلٌ للحسنِ البَصْري رحمه الله: إني أجد للطاعة لذّة، فقال له: لعلك نظرتَ في وجهِ من لا يخاف الله العبودية أنَّ تتركَ الأشياء كلها لله، وقال رجل لأبي يزيد رحمه

الله: إني لا أجد الطاعة لذة، فقال: لأنك تعبدُ الطاعة لا تعبد الله، اعبد الله حتى تجد للطاعة لذة.

حُكي أنَّ رجلاً دخلَ في الصَّلاة، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إيّاكَ نعبد﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٣] خطر ببالِه أنه عابد لله في الحقيقة، فنودي في السر كذبت إنما تعبدُ الخلق، فتاب واعتزل الناس، ثم شرعَ في الصلاة، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إياك نعبد﴾ نودي كذبت إنما تعبدُ مالك، فتَصدق بماله كله، ثم شرعَ في الصلاة. فلما انتهى إلى قوله: ﴿إياك نعبد﴾ نودي كذبت إنما تعبد ثيابك، فتصدق بها إلا ما له منه ثم شرعَ فيها، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إياك نعبد﴾ نودي الآن صدقت إنما تعبد ربك.

وفي رونق المجالس: ضاعَ لرجلٍ جوالق فلم يدر من أخذه منه، فلما دخل في الصّلاة تذكَّره، فلما سلَّمَ، قال لغلامه: اذهب إلى فُلان بن فُلان، واسترد منه الجوالق فقال الغلام: متى ذكرته؟ فقال: حين كُنت في الصّلاة، فقال: يا مولاي كنت طالب الجوالق لا طالب الخالق، فأعتقه مولاه ببركة اعتقاده، فينبغي للعاقل أن يترك الدُّنيا ويعبد الله، ويتفكر أمامه، ويريد الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٠] أي ملاذها من لباسها، وطعامها، وشرابها ﴿نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ [سورة الحشر: الآية ١٩] بأن ينزع من قلبِه حُب الآخرة.

ولذلك أنفقَ أبو بكر الصّديق رضي الله عنه على النبي ﷺ أربعين ألف دينار في السر، وأربعين ألف دينار في العلانية حتى لم يبقَ له شيء، وكان النبي ﷺ معرضاً عن الدنيا وشهواتها هو وأهله، ولذلك كان جهاز السيدة فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها لما زوجها النبي ﷺ من علي جلد كبش مدبوغ، ووسادة أدم حشوها ليف.

الباب السابع

في نسيان الله تعالى والفسق والنفاق

جاءت امرأة إلى حَسَن البَصْري رضي الله عنه فقالت: إنه كانت لي ابنة شابة فماتت أحببت أن أراها في المنام فجئتُك كي تُعلمني ما أستعين به على رؤيتها فعلَّمَها، فلما رأتها وعليها لباس من قطران وفي عنقها الغل وفي رجلها القيد فأخبرت الحسن بذلك فاغتم، ومضت مدة ثم رآها الحسن في الجنة وعلى رأسها تاج.

فقالت: يا حَسَن أما تعرفني؟ أنا ابنة المرأة التي أتتك، وقالت لك كذا، فقال لها: ما الذي صيرك إلى ما أرى؟ قالت: مر بنا رجل فصلى على النبي ﷺ مرة وكان في المقبرة خمسمائة وخمسون إنسان في العذاب، فنودي ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل. بصلاة رجل على مُحمد ﷺ أصابتهم المغفرة، فمن يصلي عليه منذ خمسين سنة أفلا يجد شفاعته يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ولا تكونوا﴾ أي في ﴿كالّذين﴾ يعني كالمُنافقين الَّذين ﴿نسوا الله﴾ [سورة الحشر: الآية ١٩] يعني تركوا أمر الله وفعلوا خلافه وتلذذوا بشهوات الدنيا وركنوا إلى غرورها.

وسُئل رسول الله ﷺ عن المؤمن والمُنافق، فقال: **«إنَّ المؤمنَ همه في الصَّلاة والصّيام، والمُنافق همه في الطَّعام والشراب كالبهيمةِ وترك العبادة والصَّلاة والمؤمن مشغول بالصَّدقة وطلب المغفرة، والمُنافق مشغول بالحرصِ والأمل والمؤمن من آيسَ كل أحد إلاّ الله، والمُنافق راجٍ كل أحد إلاّ الله، والمؤمن يقدم ماله دونَ دينه، والمُنافق يقدم دينه دونَ مالِه، والمؤمنُ آمن من كل أحدٍ إلاّ من الله، والمُنافق خائف من كل أحد إلاّ من الله، والمؤمن يُحسن ويبكي، والمُنافق يسيء ويضحك، والمؤمن يُحب الوحدة والخلوة، والمُنافق يُحب الخلطة والملا، والمؤمن يزرعُ ويخشى الفَسَاد، والمُنافق يقلع ويرجو الحصاد، والمُؤمن ينهي سياسة دينية ويصلح، والمُنافق يأمر وينهي رياسة ويفسد بل يأمر بالمُنكر وينهي عن المعروف»**.

كما قالَ الله تعالى: ﴿والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر

وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إنَّ المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم لعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ [سورة التوبة: الآيتان ٦٧ ـ ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إنَّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٠] يعني إن ماتوا على كفرهم ونفاقهم، فبدأ بالمُنافقين لأنهم شر من الكفار، وجعل مأواهم جميعاً النار. وقال تعالى: ﴿إنَّ المُنافقين في الدركِ الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٥]. والمُنافق اشتقاقه في اللغة من نافقاء اليربوع ويقال إن اليربوع حجرتين إحداهما النافقاء، والأخرى القاصعاء، فيظهر نفسه في إحداهما ويخرج من الأخرى، ولهذا سُمي المُنافق مُنافقاً لأنه يظهر من نفسِه أنه مسلم ويخرج من الإسلام إلى الكفر.

وفي الحديث: **«مثلُ المُنافق كمثلِ الشاة ترى بين قطيعين من الغنمِ تارة تسير إلى هذا القطيع وتارة إلى هذا القطيع»** **لا تسكن لواحد منها لأنها غريبة ليست منهما وكذلك المُنافق لا يستقر مع المُسلمين بالكلية ولا مع الكافرين إنَّ الله خلقَ النَّار لها سبعة أبواب،** كما قال الله تعالى: ﴿لها سبعة أبواب﴾ [سورة الحجر: الآية ١٤٤] **من حديد مطبقة باللغة وعليها ظهارة النحاس وبطانة الرصاص في أصلها العذاب وفوقها السخط وأرضها من نحاس وزجاج وحديد ورصاص النار من فوق أهلها والنار من تحتهم والنار عن يمينهم والنار عن شمالهم طبقاتها بعضها فوق بعض أعد للمنافقين منها الدرك الأسفل»**.

وجاءَ في الخبر أنَّ جبريل أتى النَّبي ﷺ فقال: **«صف لي النار وحرها»** فقال: إنَّ الله عز وجل خلق النار فأوقدها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقدها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقدها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة والذي بعثكَ بالحق نبياً لو أنَّ ثوباً من ثيابِ أهل النَّار ظهرَ لأهلِ الأرضِ لماتوا جميعاً، ولو أنَّ دلواً من شرابها صب على ماءِ الأرض جميعه لقتلَ من ذاقه، ولو أنَّ ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً﴾ [سورة الحاقة: الآية ٣٢] كل ذراع طوله من المشرق إلى المغرب لو وضعَ على جبالِ الدُّنيا لذابت. ولو أنَّ رجلاً دخلَ النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتنِ ريحِه.

وسأل ﷺ جبريل فقال: **«يا جِبْريل صفْ لي أبوابَ جَهَنَّم أهي كأبوابنا هذه؟»** فقال: يا رسول الله لا، ولكنها طباق بعضها أسفل من بعضٍ من البابِ إلى الباب مسير سنة كل

باب منها أشد حراً من الذي يليه بسبعين ضعفاً، وسأله أيضاً عن مكانِ هذه الأبواب فقال: أما الأسفل ففيه المُنافقون واسمه الهاوية.

كما قالَ الله تعالى: ﴿إنَّ المُنافقين في الدركِ الأسفل من النَّار﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٥] والباب الثاني فيه المُشركون واسمه الجحيم، والباب الثالث فيه الصابئون واسمه سقر، والباب الرابع فيه إبليس عليه اللعنة، ومن تبعه من المجوس واسمه لظى، والباب الخامس فيه اليهود واسمه الحطمة، والباب السادس فيه النَّصارى، واسمه السعير، ثم أمسك جبريل عليه السلام، فقال له ﷺ: «**لم لم تخبرني عن سكان الباب السابع؟**» فقال جبريل: يا مُحمد لا تسألني عنه، فقال: ففيه أهل الكبائر من أمتك الذين ماتوا ولم يتوبوا.

روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلاّ واردها﴾ [سورة مريم: الآية ٧١] اشتد خوفه ﷺ على أمته وبكى بُكاء شديداً، فالعارفُ بالله وبشدة سطوته وقهره يخافه خوفاً شديداً، ويبكي على نفسه وتفريطه قبل أن يرى هذه الشدائد ويُعاين هذه الدار المخوفة المهولة، وقيلِ أن تنهتك الأستار ويعرض على المُنتقم الجبار، ويؤمر به إلى النار فكم من شيخ يُنادي في النار، واشيبتاه وكم من شابٍ يُنادي في النَّار واشباباه، وكم من امرأة في النَّار تُنادي وافضيحتاه واهتك ستراه.

وقد اسودت وجوههم وأجسادهم وانكسرت ظهورهم فلا يُكرم كبيرهم ولا يُرحم صغيرهم ولا تُستر نِسَائهم.

اللَّهم أجرنا من النّار ومن عذاب النار ومن كل عملٍ يُقربنا إلى النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار برحمتك يا عزيز يا غَفَّار، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وأقلنا من عثراتنا، ولا تفضحنا بين يديك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا مُحمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن

في التَّوبة

التوبة واجبة على كل مُسلم ومُسلمة، قال الله تعالى: ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ [سورة التحريم: الآية ٨] والأمر للوجوب، وقال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾ [سورة الحشر: الآية ١٩] يعني عاهدوا الله، ونبذوا كتابه وراء ظهورهم ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ يعني حالهم حتى لم ينهوا أنفسهم ولم يقدموا لها خيراً، وقال ﷺ: «**من أحب لقاءَ الله أحبَ الله لقاءه ومن كرهَ لقاء الله كرهَ الله لقاءه**» ﴿أولئك هم الفاسقون﴾ [سورة الكهف: الآية ٥٠] يعني العاصون الناقضون عهدهم الخارجون عن طريق الهداية والرحمة والمغفرة، والفاسقُ على نوعين فاسق كافر، وفاسق فاجر، فالفاسق الكافر هو من لم يؤمن بالله ورسوله، وخرج عن الهداية ودخل في الضلالة. كما قال الله تعالى: ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ [سورة الكهف: الآية ٥٠] يعني خرجَ عن طاعة أمر ربه بالإيمان، والفاسق الفاجر هو الذي يشرب الخمر، ويأكل الحرام، ويزني، ويعصي الله تعالى، ويخرج من طريق العبادة، ويدخل في المعصية ولا يأتي الشرك.

والفرق بينهما أنَّ الفاسق الكافر لا يرجى غفرانه إلاّ بالشهادة والتوبة قبل موته، والفاسقُ الفاجرُ يُرجى غفرانه بالتوبة قبل الموت فإنَّ كل معصية أصلها من الشهوة النفسانية يرجى غفرانها، وكل معصية أصلها من الكبر لا يرجى غفرانها ومعصية إبليس كان أصلها من الكبر، فينبغي لك أن تتوبَ من ذنوبك قبل الموت رجاء أن يقبلك الله كما قال الله تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٥] يعني يتجاوز عما عملوا بقبول التوبة، وقال ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**».

حُكي أنَّ رجلاً كان كلما أذنب يكتب ذنبه في ديوان، فأذنب يوماً ما ذنباً فنشر ديوانه ليكتبه فيه فلم يجد إلاّ قوله تعالى: ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠] يعني يُبدل مكان الشرك الإيمان، ومكان الزنا العفو، ومكان المعصية العصمة والطاعة.

حُكي أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه مرّ وقتاً من الأوقات من سكك المدينة،

فاستقبله شاب، وهو حامل قارورة تحت ثيابه، فقال عُمر: أيُّها الشاب ما الذي تحمل تحت ثيابك؟ وكان فيها خمر، فخجل الشاب أن يقول خمراً، وقال في سره: إلٰهي لا تخجلني عند عُمر ولا تفضحني، واسترني عنده فلا أشرب الخمر أبداً، ثمَّ قال: يا أمير المؤمنين الذي أحمل هو خل.

فقال: أرني حتى أراها، فكشفها بين يديه، فرآها عمر صارت خلاًّ! فانظر إلى مخلوقٍ تابَ من خوف مخلوق فبدَّلَ الله سبحانه وتعالى خمره بالخل لما علم منه إخلاص التوبة، فلو تاب العاصي المُفلس عن الأعمال الفاسدة توبة نصوحاً، وندم على ذنبه بدل الله سبحانه وتعالى خمر سيئاته بخلّ الطاعة.

وذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجتُ ذاتَ ليلةٍ بعدما صليت العشاء الآخرة مع رسول الله ﷺ، فإذا أنا بامرأة في الطريق فقالت: يا أبا هريرة إني ارتكبت ذنباً فهل لي من توبة؟ فقلت: وما ذنبك؟ قالت: إني زنيت وقتلت ولدي من الزنا، فقلت لها: هلكت وأهلكت والله ما لك من توبة، فخرت مغشياً عليها فمضيت. فقلت في نفسي: أفتي ورسول الله ﷺ بين أظهرنا فرجعت إليه وأخبرته بذلك.

فقال: هلكت وأهلكت؟ فأين أنت من هذه الآية ﴿والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨] إلى قوله: ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ فخرجت وقلت: من يدلني على امرأة سألتني مسألة والصبيان يقولون: جن أبو هريرة حتى أدركتها وأخبرتها بذلك فشهقت شهقة من السرور وقالت: إن لي حديقة جعلتها صدقة لله ورسوله.

حكاية: عن عتبة الغلام رحمه الله تعالى وكان من أهل الفسق والفجور مشهوراً بالفساد وشرب الخمر فدخل يوماً في مجلس الحسن البصري وهو يقرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ [سورة الحديد: الآية ١٦] يعني ألم يجيء وقت تخاف قلوبهم فوعظ الشيخ في تفسير هذه الآية وعظاً بليغاً حتى أبكى الناس، فقام من بينهم شاب فقال: يا تقي المؤمنين أيقبل الله تعالى الفاجر مثلي إذا تاب؟

فقال الشيخ: نعم يقبل الله توبة فسقك وفجورك، فلما سمع عتبة الغلام هذا الكلام اصفر وجهه وارتعدت فرائصه فصاح صيحة فخر مغشياً عليه فلما أفاق دنا منه الحسن وقال هذه الأبيات:

أيا شاباً لرب العرش عاصي | أتدري ما جزاء ذوي المعاصي
سعيرٌ للعصاة لها زفير | وعيظ يوم يؤخذ بالنواصي
فإن تصبر على النيران فاعصه | وإلا كن عن العصيان قاصي
وفيم قد كسبت من الخطايا | رهنت النفس فاجهد في الخلاص

فصاح صيحة عظيمة وخر مغشياً عليه، فلما أفاق قال: يا شيخ هل قبل الرب الرحيم توبة مثلي اللئيم؟ فقال الشيخ: هل يقبل توبة العبد الجافي إلا الرب المعافي.

ثمَّ رفعَ رأسه ودعا ثلاث دعوات الأولى، قال: إلٰهي إن كنت قبلت توبتي وغفرت ذنوبي فأكرمني بالفهم والحفظ حتى أحفظ كل ما سمعت من العلم والقرآن.

والثانية قال: إلٰهي أكرمني بحسن الصوت حتى إن كان من سمع قراءتي يزداد رقة في قلبه وإن كان قاسي القلب.

والثالثة قال: إلٰهي أكرمني بالرزق الحلال، وارزقني من حيث لا أحتسب فاستجاب الله جميع دعائه حتى زاد فهمه وحفظه، وكان إذا قرأ القرآن تاب كل من سمع قراءته وكان يوضع في بيته كل يوم قصعة من المرق ورغيفان ولا يدري أحد من يضعها وكان على هذه الحالة حتى فارق الدنيا.

وهذا حال من ثاب إلى الله تعالى، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وسئل بعض العلماء هل يعرف العبد إذا تاب أن توبته قبلت أم ردت؟ فقال: لا حكم في ذلك ولكن لذلك علامات أن يرى نفسه معصومة من المعصية ويرى الفرح عن قلبه غائباً، والرب شاهداً ويقارب أهل الخير، ويباعد أهل الفسق فيرى القليل من الدُّنيا كثير والكثير من عمل الآخرة قليلاً، ويرى قلبه مشتغلاً بما فرض الله تعالى عليه ويكون حافظاً للسانه دائم الفكرة ملازم الغم والندامة على ما فرط من ذنوبه.

الباب التاسع

في المحبة

ذكر أن رجلاً رأى صورة قبيحة في البادية، فقال: من أنت؟ قالت: أنا عملك القبيح، قال: فما النجاة منك؟ قالت: الصَّلاة على النبي ﷺ، كما قال ﷺ: **«الصلاة علي نور الصراط ومن صلى علي يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين عاماً»**.

وحكي أن رجلاً كان غافلاً عن الصَّلاة على سيدنا محمد فرأى النبي ﷺ ليلة في المنام ولم يلتفت إليه، فقال: يا رسول الله أأنت علي غضبان؟ قال: لا، قال: فلم لا تنظر إلي؟ قال: لأني لا أعرفك، فقال: كيف لا تعرفني وأنا رجل من أمتك؟ وقد روى العلماء أنك أعرف بأمتك من الوالدة بالولد، فقال: صدقوا ولكن إنك لا تذكرني بالصَّلاة وإن معرفتي بأمتي بقدر صلاتهم علي.

ثم انتبه الرجل وأوجب على نفسه أن يصلي على النبي ﷺ كل يوم مائة مرة ففعل ذلك، ثمَّ رآه بعد ذلك في المنام فقال: أعرفك الآن وأشفع لك. أي لأنه صار محباً لرسول الله ﷺ انتهى. قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما دعا كعب بن الأشرف وأصحابه إلى الإسلام قالوا: نحن في المنزلة أبناء الله ولنحن أشد حباً لله.

فقال الله تعالى لنبيه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ على ديني فإني رسول الله أؤدي رسالته إليكم وحجته عليكم ﴿يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وإيثار طاعته وابتغاء مرضاته، وحب الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته وعصمته وتوفيقه.

قال الإمام في إحيائه: من ادعى أربعاً من غير أربع فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة ولم يعمل بالطاعة فهو كذاب، ومن ادعى حب النبي ﷺ ولم يحب العلماء والفقراء فهو كذاب، ومن ادعى الخوف من النَّار ولم يترك المعاصي فهو كذاب، ومن ادعى حب الله تعالى وشكا من البلوى فهو كذاب، كما قالت رابعة:

تعصـي الإلٰـه وأنـت تظهـر حبـه　　هـذا لعمـري فـي القيـاس بـديـع

لـو كـان حبـك صـادقـاً لأطعتـه　　إن المحـب لمـن يحـب مطيـع

وعلامة المحبة موافقة المحبوب واجتناب خلافه.

حكي أن جماعة دخلوا على الشبلي رحمه الله تعالى فقال: من أنتم؟ فقالوا: أحباؤك فأقبل، ثم رماهم بالحجارة فهربوا منه فقال لهم: تهربون مني لو كنتم أحبائي لما فررتم من بلائي، ثمَّ قال الشبلي رحمه الله: أهل المحبة شربوا بكأس الوداد فضاقت عليهم الأرض والبلاد، وعرفوه حق معرفته وتاهوا في عظمته وتحيروا في قدرته، وشربوا بكأس حبه، وغرقوا في بحر أنسه وتلذذوا بمناجاته ثم أنشده:

ذكـر المحبـة يـا مـولاي أسكـرنـي　　وهـل رأيـت محبـاً غيـر سكـران

ويقال إنَّ البعير إذا سكر لا يأكل العلف أربعين يوماً، ولو حمل عليه أضعاف ما يحمله لحمله، لأنه إذا هاج قلبه ما ذكر محبوبه لا يحب العلف ولا يعيا من الحمل الثقيل لاشتياقه إلى محبوبه، فإذا كان من شأن الإبل أن تترك شهوتها، وتحمل الحمل الثقيل لأجل محبوبها، فهل أنتم تركتم شهوة محرمة لأجل الله تعالى؟ وهل تركتم طعاماً وشراباً لأجل الله تعالى؟ وهل حملتم على أنفسكم حملاً ثقيلاً لأجل الله تعالى؟ فإن لم تفعلوا شيئاً من الخيرات مما ذكرت فدعواكم اسم بلا معنى لا تنفع في الدنيا ولا في العقبى ولا عند الخلق ولا عند الخالق.

وعن علي كرم الله وجهه قال: من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النَّار نهى نفسه عن الشَّهوات، ومن تيقن الموت هانت عليه اللذات، وسئل إبراهيم الخواص عن المحبة، فقال: محو الإرادات وإحراق جميع الصفات والحاجات وإغراق نفسه في بحر الإشارات.

الباب العاشر

في العشق

الحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المُلِذّ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً، فيجاوز إلى أن يكون رفيقاً لمحبوبه وينفق ما يملك لأجله، ألا ترى إلى زليخا بلغ بها من محبة يوسف عليه السَّلام أن ذهب مالها وجمالها، وكان لها من الجواهر والقلائد وقر سبعين جملاً.

وقد أنفقتها كلها في محبة يوسف وكل من قال رأيت يوسف اليوم أعطته قلادة تغنيه حتى لم يبق لها شيء، وكانت تسمي كل شيء باسم يوسف، وقد نسيت كل شيء سواه من فرط العشق، وإذا رفعت رأسها إلى السَّماء رأت اسم يوسف مكتوباً على الكواكب.

وروي أنها لما آمنت تزوجت به عليه السَّلام انفردت عنه، وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشها نهاراً فتدافعه إلى اللَّيل، فإذا دعاها ليلاً سوفت به إلى النَّهار وقالت: يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه.

فلما إن عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه، وما أريد به بدلاً حتى قال لها: إن الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين فقالت: أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك، وجعلني طريقاً إليه فطاعة لأمر الله تعالى فعندها سكنت إليه.

وحكي أن مجنون ليلى قيل له: ما اسمك؟ قال: ليلى وقيل له يوماً: أو ماتت ليلى؟ قال: إن ليلى في قلبي لم تمت أنا ليلى، ومر يوماً على دار ليلى فنظر إلى السَّماء فقيل له: يا مجنون لا تنظر إلى السَّماء ولكن انظر إلى جدار ليلى لعلك تراها قال: أنا أكتفي بنجم يقع ظله على دار ليلى، وحكي أن منصور الحلاج رحمه الله تعالى أنهم حبسوه ثمانية عشر يوماً فجاءه الشبلي رضي الله عنه فقال: يا منصور ما المحبة؟ فقال: لا تسألني اليوم واسألني غداً.

فلما جاء الغد وأخرجوه من السجن ونصبوا النطع لأجل قتله، مر الشبلي بين يديه فنادى يا شبلي المحبة أولها حرق وآخرها قتل (إشارة) لما تحقق للحلاج رضي الله عنه في نظره، أن كل شيء ما خلا الله باطل، وعلم أن الله هو الحق نسي عند

تحقيق اسم الحق اسم نفسه فسئل من أنت؟ فقال: أنا الحق.

وروي أن صدق المُحبّ في ثلاث خصال، أن يختار كلام حبيبه على كلام غيره، ويختار مجالسة حبيبه على مجالسة غيره، ويختار رضا حبيبه على رضا غيره، كذا في المنتهى، وقيل: العشق هتك الأستار وكشف الأسرار، والوجد عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر، حتى لو قطع عضو من أعضائه لا يحس ولا يشعر.

وحكي أن رجلاً كان يغتسل في الفرات فسمع رجلاً يقرأ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ [سورة يس: الآية ٥٩] فلم يزل يضطرب حتى غرق ومات، وعن محمد بن عبد الله البغدادي قال: رأيت في البصرة شاباً على سطح مرتفع قد أشرف على النَّاس، وهو يقول: من مات عاشقاً فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت، ثمَّ رمى بنفسه فحمل ميتاً قال الجنيد رحمه الله: التصوف ترك الاختيار.

وحكي أن ذا النون المصري رحمه الله دخل المسجد الحرام فرأى شاباً عرياناً مطروحاً مريضاً تحت أسطوانة، وله أنين من قلب حزين قال: فدنوت منه وسلمت عليه وقلت: من أنت يا غلام؟ قال: أنا غريب عاشق، فعلمت عما يقول قلت: وأنا مثلك فبكى وبكيت أنا لبكائه قال: أتبكي أنت؟ فقلت: أنا مثلك فبكى بأعلى صوته، وصاح صيحة عظيمة عالية فخرجت روحه من ساعته، فطرحت عليه ثوبي وخرجت من عنده لطلب الكفن فاشتريت الكفن ورجعت إليه فلم أجده مكانه فقلت: سبحان الله فسمعت هاتفاً يقول: يا ذا النون إن هذا الغريب الذي طلبه الشيطان في الدُّنيا فما وجده، وطلبه مالك فلم يره وطلبه رضوان في الجنة فما وجده قلت: فأين هو؟ قال: فسمعت هاتفاً يقول: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] بسبب محبته وكثرة طاعته، وتعجيل توبته كذا في زهر الرياض.

وسئل بعض المشايخ عن المحب فقال: قليل الخلطة كثير الخلوة دائم الفكر ظاهر الصمت لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودي، ولا يفهم إذا كلم ولا يحزن إذا أصيب بمصيبة، وإذا أصيب بجوع فلا يدري ويعرى، ولا يشعر ويُشتم ولا يخشى ينظر إلى الله تعالى في خلوته، ويأنس به ويناجيه، ولا ينازع أهل الدُّنيا في دنياهم وقد قال أبو تراب النخشبي في علامات المحبة أبياتاً:

لا تخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل

فـالمنـع منـه عطيـة مقبـولـة | والفقـر إكـرام وبـر عـاجـل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه | طـوع الحبيـب وإن ألـح العـاذل
ومـن الـدلائـل أن يـرى متبسمـاً | والقلـب فيـه مـن الحبيـب بـلابـل
ومـن الـدلائـل أن يـرى متفهمـاً | لكـلام مـن يحظـى لـديـه السـائـل
ومـن الـدلائـل أن يـرى متقشفـاً | متحفظـاً مـن كـل مـا هـو قـائـل

حكاية: مر عيسى عليه السَّلام بشاب يسقي بستاناً فقال الشاب لعيسى: سل ربك أن يرزقني من محبته مثقال ذرة، فقال عيسى: لا تطيق مقدار ذرة فقال: نصف ذرة، فقال عيسى عليه السَّلام: يا رب ارزقه نصف ذرة من محبتك، ومضى عيسى عليه السَّلام.

فلما كان بعد مدة طويلة مر بمحل ذلك الشاب فسأل عنه، فقالوا: جن وذهب إلى الجبال فدعا الله عيسى عليه السَّلام أن يريه إياه، فرآه بين الجبال فوجده قائماً على صخرة شاخصاً طرفه إلى السَّماء فسلم عليه عيسى عليه السلام، فلم يرد عليه، فقال: أنا عيسى، فأوحى الله تعالى إلى عيسى أكيف يسمع كلام الآدميين من كان في قلبه مقدار نصف ذرة من محبتي؟ فوعزتي وجلالي لو قطعته بالمنشار لما علم بذلك. من ادعى ثلاثة ولم يتطهر من ثلاثة فهو مغرور:

أولها: من ادعى حلاوة ذكر الله وهو يحب الدُّنيا.
وثانيها: من ادعى محبة الإخلاص في العمل ويحب تعظيم النَّاس له.
وثالثها: من ادعى محبة خالقه من غير إسقاط نفسه.

وقال رسول الله ﷺ: «**سيأتي زمان على أمتي يحبون خمساً وينسون خمساً، ويحبون الدنيا وينسون الآخرة، ويحبون المال وينسون الحساب، ويحبون الخلق وينسون الخالق، ويحبون الذنوب وينسون التوبة، ويحبون القصور وينسون المقبرة**» وقال منصور بن عمار لشاب يعظه: يا شاب لا يغررك شبابك فكم من شاب أخر التوبة وأطال الأمل ولم يذكر موته فقال: إني أتوب غداً وبعد غد، فجاءه ملك الموت وهو غافل عن التوبة فصار في جوف القبر لا ينفعه مال ولا عبد ولا ولد ولا أب ولا أم، كما قال الله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ ـ ٨٩].

اللهم ارزقني التوبة قبل الموت، ونبهنا عند الغفلة وانفعنا بشفاعة نبينا خير المرسلين ﷺ. صفة المؤمن أن يتوب من يومه وساعته ويندم على ما فعل من ذنوبه ويرضى بالقوت من الدُّنيا ولا يشتغل بالدُّنيا بل يشتغل بعمل الآخرة ويعبد الله تعالى بالإخلاص.

حكاية: كان رجل بخيل منافق حلف على زوجته بالطلاق أن لا تتصدق بصدقة، فجاء سائل على باب داره وقال: يا أهل الدار بحق الله ألا أعطيتموني شيئاً فأعطته المرأة ثلاثة أرغفة فاستقبله المنافق وقال: من أعطاك هذه الأرغفة؟ قال: أعطوني من الدار الفلانية فكانت داره فدخل المنافق داره وقال لامرأته: ألست قد حلفت عليك أن لا تعطي أحداً شيئاً؟ فقالت: أعطيت لأجل الله عز وجل فذهب المنافق وأوقد التنور حتى حمي، ثم قال: قومي فألقي نفسك في التنور لأجل الله، فقامت المرأة وأخذت حللها فقال المنافق: دعي الحلل فقالت المرأة: الحبيب يتزين لحبيبه وأنا زائرة لحبيبي، ثمَّ ألقت نفسها في التنور فأطبق المنافق عليها ومضى.

فلما تم لها ثلاثة أيام جاء المنافق ففتح عليها رأس التنور فرأى المرأة سالمة بقدرة الله تعالى فتعجب الرجل من تلك الحال فهتف به هاتف يقول: أما علمت أن النَّار لا تحرق أحبابنا؟

وحكي أن آسية امرأة فرعون كانت تكتم إيمانها عن فرعون، فلما علم فرعون بإيمانها أمر بها أن تعذب فعذبوها بأنواع العذاب، وقال: ارتدي فلم ترتد فأتى بأوتاد وضربوها على أعضائها، ثم قال: ارتدي فقالت: إنك تغلب نفسي وقلبي في عصمة ربي لو قطعتني أرباً ما زدت إلاّ حباً، فمر موسى عليه السَّلام بين يديها فنادت موسى أخبرني أراضي عني ربي أم ساخط؟

قال موسى عليه السَّلام: يا آسية ملائكة السَّموات في انتظارك أي مشتاقة إليك والله يباهي بك فاسأليني حاجتك فإنها مقضية، فقالت: ﴿ربي ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ [سورة التحريم: الآية ١١].

وعن سلمان رضي الله عنه، قال: كانت امرأة فرعون تعذب بالشَّمس فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة.

وعن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وأضجعها على صدرها رحى، واستقبل بها عين الشَّمس فرفعت رأسها إلى السَّماء فقالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ [سورة التحريم: الآية ١١]. قال الحسن: فنجاها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب فيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء، إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وديدن المؤمنين.

الباب الحادي عشر

في طاعة الله ومحبة رسوله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] اعلم رحمك الله أن محبة العبد لله ولرسوله طاعته لهما، واتباعه أمرهما ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران قيل: العبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه، أو من غيره فهو من الله وبالله ولم يكن حبه إلا لله، وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحث على طاعته.

وعن الحسن: قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ يا محمد إنا لنحب ربنا فأنزل الله هذه الآية وعن بشر الحافي رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال: يا بشر أتدري بم رفعك الله من بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله قال: بخدمتك للصالحين ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابك وأهل سنتي واتباعك لسنتي، قال ﷺ: «**من أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي يوم القيامة في الجنة**».

وجاء في الآثار المشهورة أن المتمسك بسنة سيد الخلائق والمرسلين عند فساد الخلق واختلاف المذاهب له أجر مائة شهيد، كذا في شرعة الإسلام، وقال: كل أمتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى، قالوا: من أبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى كل عمل ليس على سنتي فهو معصية، وقال بعضهم: لو رأيت شيخاً يطير في الهواء، أو يمشي على البحر أو يأكل النّار أو غير ذلك، وهو يترك فرضاً من فرائض الله تعالى أو سنة من السنن عامداً فاعلم أنه كذاب في دعواه ليس فعله كرامة بل استدراج نعوذ بالله منه.

قال الجنيدي رحمه الله: ما يوصل أحد إلى الله إلا بالله والسبيل إلى الوصول متابعة المصطفى ﷺ، وقال أحمد الحواري رحمه الله: كل عمل بغير اتباع السنة فباطل كما قال ﷺ: «**من ضيَّع سنتي حُرمت عليه شفاعتي**» كذا في شرعةِ الإسلام.

(حُكي) أن رجلاً رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفاً

الكرخي رحمه الله فتبسم ثمَّ قال: يا أخي له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذي رأيته من مجانينهم.

(وحُكي) عن الجنيد أنه قال: مرض أستاذنا السري رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء، ولا عرفنا لها سبباً فوصف لنا طبيب حاذق، فأخذنا قارورة مائه فنظر إليه الطبيب وجعل ينظر إليه ملياً، ثم قال: أراه بول عاشق، قال الجنيد: فصعقت وغشي علي ووقعت القارورة من يدي، ثمَّ رجعت إلى السري فأخبرته فتبسم ثم قال: قاتله الله ما أبصره، قلت: يا أستاذ وتبين المحبة في البول، قال: نعم.

قال الفضيل رحمه الله: إذا قيل لك أتحب الله فاسكت فإنك إن قلت لا كفرت، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت، وقال سفيان: من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله تعالى وقال سهل رحمه الله: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حبه ﷺ حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً وبلغة إلى الآخرة، قال أبو الحسن الزنجاني: أصل العبادة على ثلاثة أركان: العين والقلب واللسان فالعين بالعبرة والقلب بالفكرة واللسان بالصدق والتسبيح والذكر كما قال الله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا﴾ [سورة الأحزاب: الآيتان ٤١ ـ ٤٢] يعني غُدواً، أو عشياً.

حُكي أنَّ عبد اللّه، وأحمد بن حرب حضرا موضعاً، فقطع أحمد بن حَرْب قطعة من حشيش الأرض، فقال له عبد اللّه: حصل عليك خمسة أشياء شغل قلبك بها عن تسبيح مولاك وعودت نفسك الاشتغال بغير ذكر الله تعالى، وجعلت ذلك طريقاً يقتدى بك فيه، ومنعته عن تسبيح ربه وألزمت نفسك حجة الله عز وجل يوم القيامة، كذا في رونق المجالس وعن السري رضي الله عنه قال: رأيت مع الجرجاني سويقاً يستف منه، فقلت: لماذا لا تأكل طعاماً غيره؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ والاستفاف تسعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

وكان سهل بن عبد اللّه يأكل في كل خمسة عشر يوماً مرة، فإذا دخل رمضان لم يأكل فيه إلاَّ أكلة واحدة ويصبر في بعض الأوقات عن الطَّعام سبعين يوماً، كان إذا أكل ضعف وإذا جاع قوي، وجاور أبو حماد الأسود في المسجد الحرام ثلاثين سنة وما رؤي أنه أكل أو شرب ولا يخلو ساعة من ذكر الله.

وحُكي أنَّ عمروُ بن عبيد كان لا يخرج من منزله إلاَّ لثلاث للصَّلاة مع الجماعة ولعيادة المريض ولحضور الجنازة، ويقول: رأيت النَّاس سراقاً وقطاعاً للطريق، العمر جوهر نفيس لا قيمة له، فينبغي أن تملأ منه خزانة باقية في الآخرة واعلموا بأن طالب الآخرة لا بد له من الزهد في الحياة الدُّنيا ليصير همه هماً واحداً ولا يفترق باطنه من ظاهره، ولا يمكن حفظ الحال إلاَّ بضبط الظاهر والباطن قال الشبلي رحمه الله: كنت أول بدايتي إذا غلبني النوم اكتحلت بالملح فإذا زاد علي الأمر أحمي الميل فأكتحل به.

وحُكي عن إبراهيم بن الحاكم أنه قال: كان أبي إذا جاءه النوم دخلَ البحر فيسبح فتجتمع إليه حيتان البحر يسبحون معه.

وحُكي أنَّ وهب بن منبه دعا الله أن يرفع عنه النوم بالليل فذهب عنه النوم أربعين سنة، وكان حسن الحلاج قيد نفسه من كعبه إلى ركبته بثلاثة عشر قيداً وكان يصلي مع ذلك كل يوم وليلة ألف ركعة، وكان الجنيد يأتي إلى السوق في بداية أمره فيفتح حانوته فيدخله، ويسبل الستر فيصلي أربعمائة ركعة، ثم يرجع إلى بيته.

وصلّى حبشي بن داود صلاة الغداة أربعين سنة على طهر العشاء، فينبغي للمؤمن أن يكون دائماً على الطّهارة، وكلما أحدث يتطهر ويصلي ركعتين لله ويجتهد أن يستقبل القبلة في كل مجلسه ويصور في نفسه أنه جالس بين يدي رسول الله ﷺ على قدر الحضور والمراقبة حتى يلازم السكينة، والوقار في الفعل ويحتمل الأذى ولا يقابل المسيء ويستغفر لكل مسيء، ولا يعجب بنفسه ولا بعلمه، فإن العجب من صفة الشيطان، وينظر إلى نفسه بعين الحقارة، ويرى الصالحين بعين الاحترام والتعظيم، فمن لم يعرف حرمة الصالحين حرمه الله تعالى صحبتهم ومن لم يعرف حرمة الطاعة نزع من قلبه حلاوتها.

سُئل الفضيل بن عياض فقيل له: يا أبا علي متى يكون الرجل صالحاً؟ قال: إذا كانت النصيحة في نيته والخوف في قلبه والصدق في لسانه والعمل الصالح في جوارحه قال الله تعالى في معراج النبي ﷺ يا أحمد إن أحببت أن تكون أورع الناس ازهد في الدنيا وارغب في الآخرة فقال: إلهي كيف أزهد في الدنيا؟ فقال: خذ من الدنيا بقدر الطعام والشراب واللباس، ولا تدخر لغد ودم على ذكري فقال: يا رب كيف أدوم على ذكرك؟ فقال: بالخلوة عن النَّاس، واجعل نومك الصلاة وطعامك الجوع وقال ﷺ: «**الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة فيها تكثر الهم والحزن حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد فيها رأس كل خير وطاعة**».

(وحُكي) أنَّ بعضَ الصالحين مر على جماعة فإذا بطبيب يصف الداء والدواء، فقال: يا معالج الأجسام هل تعالج القلوب؟ فقال الطبيب: نعم، صف لي داءه، فقال: قد أظلمته الذنوب فقسا وجفا، فهل له من علاج؟ فقال الطبيب: علاجه التضرع والابتهال والاستغفار آناء الليل وأطراف النَّهار، والمبادرة إلى طاعة العزيز الغفار والاعتذار إلى الملك الجبار، فهذه معالجة القلوب والشفاء من علام الغيوب، فصاح الرجل الصالح ومضى باكياً، وقال: نِعْمَ الطبيب أنت أصبت علاج قلبي، فقال الطبيب: هذا معالجة قلب من تاب ورجع بقلبه إلى البر التواب.

وحُكي أنَّ رجلاً اشترى غلاماً، فقال الغلامُ: يا مولاي إنَّ لي معك ثلاثةَ شروط أحدها أن لا تمنعني عن الصلاة المكتوبة إذا جاء وقتها، والثَّاني أن تأمرني بالنَّهار ما شئتَ ولا تأمرني بالليل، والثَّالث أن تجعل لي منزلاً في بيتك لا يدخله غيري، فقال له الرجل: لك هذه الشروط ثمَّ قال الرجل: انظر في البيوت، فطافَ الغلامُ فوجدَ فيها بيتاً خراباً، فقالَ: أخذتُ هذا، فقال: يا غلام اخترتَ بيتاً خراباً، فقالَ الغلامُ: يا مولاي أما علمتَ أنَّ الخراب مع الله بستان، فكانَ يخدمُ مولاه بالنهارِ، ويتفرغ بالليل لعبادة ربه سبحانه وتعالى.

فبينما هو كذلك إذ طاف مولاه ذات ليلة في الدار فبلغ حجرة الغلام، فإذا هي منورة والغلام ساجد وعلى رأسه قنديل من النور معلق بين السماء والأرض، والغلام يناجي ربه ويتضرع، ويقول: إلٰهي أوجبت علي حق مولاي وخدمته بالنهار، ولولا ذلك ما اشتغلت ليلي ولا نهاري إلا بخدمتك فاعذرني يا رب، ومولاه ينظر إليه حتى انفجر الصبح ورد القنديل وانضم سقف البيت فرجع وأخبر امرأته بذلك.

فلما كانت الليلة الثَّانية أخذ بيد امرأته وجاء إلى باب الحجرة، فإذا الغلام في السجود والقنديل على رأسه، فوقفا على الباب ينظران إليه ويبكيان حتى أصبحا فدعا الغلام فقال له: أنت عتيق لوجه الله تعالى حتى تتفرغ لعبادةِ من كنت تعتذر إليه فرفع الغلام يديه إلى السماء وقال:

يا صاحبَ السِّر إن السرّ قد ظهرا ولا أريد حياتي بعد ما اشتهرا

ثم قال: إلٰهي أسألك الموت فخرَّ الغلام ميتاً. هكذا أحوال الصالحين والعاشقين والطالبين، وفي زهر الرياض أن موسى عليه السلام كان له صديق يأنس به فقال له ذات يوم: يا موسى ادع الله أن يعرفني إياه حق معرفته فدعا موسى عليه السلام فاستجيب له،

فلحق صاحبه بالجبال مع الوحوش وفقده موسى فقال: يا رب أخي ومؤنسي فقدته، فقيل له: يا موسى من عرفني حق معرفتي لا يصحب مخلوقاً أبداً. وجاء في الأخبار أن يحيى وعيسى عليهما السَّلام كانا يمشيان في السوق فصدمتهما امرأة، فقال يحيى: والله ما شعرت بذلك فقال عيسى: سبحان الله بدنك معي وقلبك أين؟ قال: يا ابن الخالة لو اطمئن قلبي إلى غير ربي طرفة عين لظننت أني ما عرفت الله، ويقال صدق المعرفة أن يطلق الدنيا والعقبى ويتجرد للمولى وأن يسكر من شراب المحبة، فلا يصحوا إلا عند الرؤية فهو على نور من ربه.

الباب الثاني عشر

في ذكر إبليس وعذابه

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٢] يعني لا يغفر لهم ولا يقبل توبتهم، كما لم يقبل توبة إبليس لكفره واستكباره، وتاب على آدم عليه السَّلام وقبل توبته لأنه أقر على نفسه بالذنب وندم عليه ولام نفسه، وهذا وإن لم يكن ذنباً حقيقة لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون لا تقع منهم المعصية أبداً لا قبل النبوة ولا بعدها على الصحيح لكنه على صورة الذنب.

ولذلك قال هو وحواء عليهما السلام: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٣] فندم عليه السلام وأسرع بالتوبة، ولم يقنط من رحمة الله تعالى ﴿ولا تقنطوا من رحمة الله﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] وإبليس لم يقر على نفسه بالذنوب ولم يندم عليها ولم يلم نفسه، ولم يسرع بالتوبة وقنط من رحمة الله تعالى وتكبر.

فمن كان له مثل حال إبليس لم تقبل توبته، ومن كان حاله مثل حال آدم قبل الله توبته، لأن كل معصية أصلها من الشهوة فإنه يرجى غفرانها، وكل معصية أصلها من الكبر، فإنه لا يرجى غفرانها، ومعصية آدم أصلها من الشهوة، ومعصية إبليس أصلها من الكبر.

حُكي أنَّ إبليس جاءَ إلى موسى عليه السلام، فقال له: أنت الذي اصطفاك الله

برسالته وكلمك تكليماً؟ فقال له موسى: نعم، فما الذي تريد يا هذا؟ ومن أنت؟ فقال إبليس: يا موسى قل لربك خلقٌ من خلقك قد سألك التوبة، فأوحى الله إلى موسى قل له إني قد استجبت لك فيما سألت، ومره يا موسى أن يسجد لقبر آدم فإذا سجد له قبلت توبته وغفرت له ذنوبه فأخبره موسى فغضب إبليس واستكبر وقال: يا موسى أنا لم أسجد له في الجنة فكيف أسجد له وهو ميت؟

رُوي أن إبليس يشتد عليه العذاب في النَّار فيقال له: كيف وجدت عذاب الله؟ فيقول: أشد ما يكون فيقال له: إن آدم في رياض الجنة فاسجد له، واعتذر حتى يغفر لك فيأبى فيشتد عليه العذاب بقدر عذاب أهل النَّار سبعين ألف ضعف.

جاء في الخبر أن الله تعالى يخرج إبليس من النار كل مائة ألف سنة، ويخرج آدم ويأمره بالسجود له فيأبى ثمَّ يرده إلى النار. إخواني إن أردتم النجاة من إبليس فاعتصموا بالمولى واستعيذوا به. إذا كان يوم القيامة يوضع كرسي من النار فيقعد عليه إبليس عليه اللعنة فتجتمع الشياطين والكفار عنده، وله صوت كصوت الحمار ينهق، ويقول: يا أهل النار كيف وجدتم اليوم ما وعد ربكم؟ قالوا: حقاً.

ثم يقول: هذا يوم أيست فيه من الرحمة فيأمر الله تعالى الملائكة أن يضربوه ومن تبعه بمقامع من نار فيهوون فيها أربعين سنة فلا يسمعون الأمر بالخروج أبد الأبد نعوذ بالله منها. ورد أنه يؤتى بإبليس يوم القيامة فيؤمر به أن يجلس على كرسي من نار، وعلى عنقه طوق اللعنة، ويأمر الله عز وجل الزبانية أن يجروه على الكرسي ويلقوه في النار فيتعلقون به ليلقوه فلا يقدرون، ثمَّ يأمر الله تعالى جبريل مع ثمانين ألف ملك بذلك فلا يقدرون، ثمَّ يأمر إسرافيل ثمَّ عزرائيل أيضاً، ومع كل واحد منهما ثمانون ألف ملك فلا يقدرون فيقول الله تعالى لهم: لو اجتمع عليه أضعاف ما خلقت من الملائكة لما قدروا على أن ينقلوه وطوق اللعنة على عنقه.

ورُوي أنَّ إبليس كان اسمه في سماء الدنيا: العابد وفي الثانية: الزاهد وفي الثالثة: العارف وفي الرابعة: الوليّ وفي الخامسة: التقيّ وفي السادسة: الخازن وفي السابعة: عزازيل وفي اللوح المحفوظ: إبليس، وهو غافل عن عاقبة أمره فأمره الله أن يسجد لآدم فقال: أتفضله عليّ وأنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فقال تعالى: أنا أفعل ما أشاء، فرأى لنفسه شرفاً فولى آدم ظهره أنفة، وكبراً وانتصب قائماً إلى أن سجدت الملائكة المدة المارة، فلما رفعوا رؤوسهم ورأوه لم يسجد وهم قد وقفوا للسجود سجدوا

ثانياً شكراً وهو قائم يرى مُعرضاً عنهم غير عازم على الاتباع، ولا نادم على الامتناع فمسخه الله من الصورة البهية فنكسه كالخنزير، وجعل رأسه كرأس البعير وصدره كسنام الجمل الكبير، ووجهه بينهما وجه القردة، وعينيه مشقوقتين في طول وجهه وسحريه مفتوحتين ككوز الحجام، وشفتيه كشفتي الثور، وأنيابه خارجة كأنياب الخنزير وفي لحيته سبع شعرات، وطرده من الجنة بل من السَّماء بل من الأرض إلى الجزائر فلا يدخل الأرض إلاَّ خفية، ولعنه الله إلى يوم الدين لأنه صار من الكافرين.

وانظر كان بهي الصورة رباعي الأجنحة كثير العلم كثير العبادة طاووس الملائكة، وأعظمهم سيد الكروبيين إلى غير ذلك فلم يغن ذلك عنه شيئاً، إن في ذلك لذكرى.

وفي الأثر لما مكر بإبليس بكى جبريل وميكائيل فقال الله لهما: ما يبكيكما؟ قالا: ربنا ما أمنا مكرك فقال تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكري.

ورُوي أن إبليس قال: يا رب أخرجتني من الجنة لأجل آدم وأنا لا أقدر عليه إلا بتسليطك، قال: أنت متسلط عليه أي على أولاده لعصمة الأنبياء منه، قال: زدني، قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله، قال: زدني، قال: صدور مساكن لك تجري لك فيها مجرى الدم، قال: زدني، قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك، أي استعن عليهم بأعوانك من راكب وماش وشاركهم في الأموال، أي يحملهم على كسبها وصرفها في الحرام والأولاد أي بالحث على التوصل إليهم بالسبب المحرم كالوطء في الحيض، والإشراك فيهم بتسميتهم بنحو عبد العزى، والتضليل بالحمل على الأديان بالباطلة، والحرف الذميمة والأفعال القبيحة، وعدهم أي المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء، وتأخير التوبة بطول الأمل وهذا عن طريق التهديد فاعملوا ما شئتم.

فقال آدم: يا رب قد سلطته عليّ فلا أمتنع عنه إلاَّ بك، قال: لا يولد لك ولد إلا وكّلت به من يحفظه من الملائكة، قال: زدني، قال: الحسنة بعشر أمثالها، قال: زدني، قال: لا أنزع منهم التوبة ما دامت أرواحهم في أبدانهم، قال: زدني، قال: أغفر لهم ولا أبالي، قال: اكتفيت. فقال إبليس: يا رب جعلت في بني آدم الرسل، وأنزلت عليهم الكتب فما رسلي؟ قال: الكهان، قال: فما كتبي؟ قال: الوشم، قال: فما حديثي؟ قال: الكذب، قال: فما قرآني؟ قال: الشعر، قال: فما مؤذني؟ قال: المزمار، قال: فما مسجدي؟ قال: الأسواق، قال: فما بيتي؟ قال: الحمام، قال: فما طعامي؟ قال: الذي لم يذكر عليه اسمي، قال: فما شرابي؟ قال: السكر، قال: فما مصايدي؟ قال: النساء.

الباب الثالث عشر

في الأمانة

قال الله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السَّموٰات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] أي امتنعن من قبولها ﴿وأشفقن منها﴾ أي خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب أو خفن من الخيانة فيها، ومعنى الأمانة في هذه الآية الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب والعقاب قال القرطبي: الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور: واختلف في تفاصيل بعضها.

فقال ابن مسعود: هي أمانة الأموال كالودائع وغيرها، وروي عنه أنها في كل الفرائض وأشدها أمانة المال. وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، وقال ابن عمر: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، وقال: هذه أمانة استودعتكها فلا تلبسها إلاَّ بحق، فإن حفظتها حفظتك فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له.

(قال الحسن): إن الأمانة عرضت على السموٰات والأرض والجبال فاضطربت وما فيها فقال الله لها: إن أحسنت أجرتك، وإن أسأت عذبتك فقالت: لا. قال مجاهد: فلما خلق الله آدم عرضها عليه، وقال له ذلك فقال: قد تحملتها ولا يخفى أن عرض هذه الأمانة على السموٰات والأرض والجبال عرض تخيير لا عرض إلزام ولو ألزمهن لم يمنعن من حملها.

وقال القفال وغيره: العرض في هذه الآية ضرب مثل أي أن السموٰات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب، أي أن التكليف أمر عظيم حقه أن تعجز عنه السموٰات والأرض والجبال.

وقد كلفها الإنسان قال: كما قال تعالى: ﴿وحملها الإنسان﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] أي التزم بحقها آدم بعد عرضها عليه في عام الذر عند خروج ذريته من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨] أي وهو في ذلك الحمل الظلوم

لنفسه جهول بقدر ما دخل فيه أو جهول بأمر ربه. وعن ابن عباس قال: عرضت الأمانة على آدم فقيل: خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك، وقبلها بما فيها فما كان إلا ما بين العصر إلى اللَّيل من ذلك اليوم حتى أكل من الشجرة لولا أن تداركه الله برحمته فتاب عليه وهدى. والأمانة مشتقة من الإيمان فمن حفظ أمانة الله حفظ الله إيمانه قال ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»** وقال الشاعر:

تباً لمن رضي الخيانة مهيعا وأزور عن صون الأمانة جانبه
رفض الديانة المروءة فاغتدى تترى عليه من الزمان مصائبه

وقال آخر:

أخلق بمن رضي الخيانة شيمة أن لا يرى إلا صريع حوادث
ما زالت الأرزاء ينزل بؤسها أبداً بغادر ذمة أو ناكث

وقال رسول الله ﷺ: **«يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب»** وقال رسول الله ﷺ: **«لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً»** وقال ﷺ: **«إدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»**.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»** أي إذا ائتمنه أحد بكلمة خانه بإفشائها للنَّاس أو بوديعة خانه بإنكارها وعدم حفظها أو استعمالها بغير إذنه، فحفظ الأمانة صفة الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين وشيمة الأبرار المتقين.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨] قال المفسرون: هذه الآية مشتملة على كثير من أمهات الشرع، والمخاطب بها عموم المكلفين الولاة وغيرهم فيجب على الولاة إنصاف المظلوم، وإظهار حقه وذلك أمانة وحفظ أموال المسلمين لا سيما اليتامى.

ويجب على العلماء تعليم العوام أحكام دينهم فهي أمانة اختار لحفظها العلماء ويجب على الوالد رعاية ولده بحسن التأديب إذ هو أمانة عنده، قال ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»** (وفي زهر الرياض) يؤتى بالعبد يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى: أرددت أمانة فلان؟ فيقول: لا يا رب، فيأمر الله تعالى ملكاً فيأخذ بيده وينطلق به إلى جهنم، ويريه الأمانة بعينه في قعر جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً حتى

ينتهي إلى قعرها ثمَّ يصعد بالأمانة فإذا أبلغ أعلى جهنم زلت قدمه فيهوي فيها كذلك ثمَّ يصعد ثمَّ يهبط، وهكذا حتى يدركه لطف ربه بشفاعة المصطفى ﷺ فيرضى عنه صاحب الأمانة.

ورُوي عن سلمة قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ أتي بجنازة ليصلي عليها فقال: «هل عليه دين؟ قالوا: لا، فصلى عليها ثمَّ أتي بجنازة أخرى فقال: هل عليه دين؟ قالوا: نعم، قال: فهل ترك شيئاً؟ فقالوا: ثلاث دنانير فصلى عليها ثم أتي بثالثة فقال: هل عليه دين؟ قالوا: نعم، فقال ﷺ: هل ترك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: صلوا على صاحبكم». وعن قتادة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر يكفر الله خطاياي؟ قال: نعم، فلما أدبر الرجل ناداه فقال: يغفر الله للشهيد كل ذنب إلا الدين.

الباب الرابع عشر

في إتمام الصلاة بالخضوع والخشوع

قال الله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢] اعلم أن الخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث، وقد اختلفوا في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها؟ على قولين واستدل من قال بالأول بحديث ليس للعبد من صلاته إلاَّ ما عقل وبقوله تعالى: ﴿أقم الصَّلاة لذكري﴾ [سورة طه: الآية ١٤] والغفلة تضاد الذكر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٥].

(أخرج) البيهقي عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع بصره إلى السَّماء فنزلت الآية، وزاد عبد الرزاق عنه فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده، وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة كان ﷺ إذا صلّى رفع بصره إلى السَّماء فنزلت هذه الآية فطأطأ رأسه.

وروي عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «**مثلُ الصلوات الخمس كمثلِ نهرٍ جار على باب أحدكم كثير الماء يغتسل فيه كل يوم خمس مراتٍ فهل يبقى عليه من الدرن شيء؟**» يعني أن الصَّلوات تطهر من الذنوب، ولا تبقي منها شيئاً فيما دون الكبائر وهذا إذا صلى

بخشوع وحضور قلب وإلا فهي مردودة عليه وقال ﷺ: **«من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما شيء من الدُّنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه»** وقال ﷺ: **«إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله تعالى»** فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغي عظمة ولا هيبة فما قيمة ذكرك.

وقال ﷺ: **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»** وقال بكر بن عبد اللّه: يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت، قيل: وكيف ذلك؟ قال: تسبغ وضوءك وتدخل محرابك فإذا أنت قد دخلت على مولاك فتكلمه بغير ترجمان، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالاً بعظمة الله عز وجل.

وقال ﷺ: **«لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه»** وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصَّلاة يسمع وجيب قلبه عن ميلين، وكان سعيد التنوخي إذا صلى لم تنقطع الدموع عن خديه على لحيته، ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصَّلاة فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه.

ورُوي أن علياً كرم الله وجهه كان إذا حضرت الصَّلاة يتزلزل ويتلون وجهه فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله على السموٰات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفق منها وحملتها. وروي عن علي بن الحسين أنه إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم.

وروي عن حاتم الأصم أنه سئل عن صلاته فقال: إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء، ثمَّ أقوم إلى الصلاة وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي وأظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبير بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً بتخشع، وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها بالإخلاص، ثم لا أدري قبلت مني أم لا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه. وقال ﷺ: **«يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً ذكرهم الدُّنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة»** وعن الحسن أن النبي ﷺ قال: **«ألا أخبركم بأسوأ النَّاس سرقة»**

قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «**الذي يسرق من صلاته**» قالوا: وكيف يسرق من صلاته؟ قال: «**لا يتم ركوعها ولا سجودها**» وقال ﷺ: «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصَّلاة فإن كان قد أتمها هون الله عليه الحساب، وإن كان قد انتقص منها شيئاً قال تعالى لملائكته: هل لعبدي من تطوع فأتموا الفريضة منه**» وقال ﷺ: «**ما أعطي عبد عطاء خيراً من أن يؤذن له في ركعتين يصليهما**» وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أراد القيام إلى الصلاة ترتعد فرائصه وتصطك أسنانه فقيل له في ذلك قال: حان وقت أداء الأمانة وقضاء الفريضة ولا أدري كيف أؤديها؟

وحُكي عن خلف بن أيوب أنه كان قائماً في الصلاة فلدغه زنبور فسال منه الدم وهو لا يشعر حتى خرج ابن سعيد فأعلمه بذلك فغسل ثوبه فقيل له: يلدغك زنبور يسيل منك الدم ولم تشعر به؟ فقال: أيشعر بمثل هذا من يكون واقفاً بين يدي الملك الجبار، وملك الموت على قفاه والنار عن شماله والصراط تحت قدميه؟

ووقعت الأكلة في يد عمرو بن ذر وكان جليلاً في الزهد والعبادة فقال له الأطباء: لا بد من قطع هذه اليد فقال: اقطعوها، فقالوا: لا نقدر على قطعها إلاَّ أن نشدك بالحبال فقال: لا ولكن إذا شرعت في الصَّلاة فاقطعوها حينئذ، فلما دخل في الصلاة قطعت ولم يشعر بذلك.

الباب الخامس عشر

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى علي مرة خلق الله تعالى من نفس المصلي غمامة بيضاء ثمَّ يأمرها الله تعالى أن تأخذ من بحر الرحمة فتأخذ ثم يأمرها الله أن تمطر فإذا أمطرت فأي قطرة قطرت على الأرض يخلق الله الذهب منها وأي قطرة قطرت على الجبال يخلق الله تعالى منها الفضة وأي قطرة قطرت على كافر رزقه الله تعالى الإيمان**» قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠] قال الكلبي: هذه الآية على قولين واستدل من قال بالأول بحديث ليس للعبد من صلاته إلاَّ ما عقل بقوله.

تتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم وفيها دليل على أن هذه

الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق، وأن هذه الخيرية مشتركة بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت متفاضلة في ذاتها كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم، ويعني أخرجت أظهرت للنَّاس، أي لنفعهم ومصالحهم في جميع الأعصار حتى تميزت وعرفت، وقوله تعالى: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠] كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك، واتصفوا به فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال عنهم فجعلهم الله خير النَّاس للنَّاس لأنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ويقاتلون الكفار ليسلموا فترجع منفعتهم على غيرهم.

كما قال ﷺ: «**خير الناس من ينفع الناس وشر الناس من يضر الناس**» ﴿تؤمنون بالله﴾ أي تصدقون بتوحيد الله وتثبتون على ذلك وتقرون أن محمداً نبي الله لأن من كفر بمحمد ﷺ لم يؤمن بالله لأنه يزعم أن الآيات المعجزات التي أتى بها من عند نفسه.

وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» يعني أضعف فعل أهل الإيمان. قال بعضهم: التغيير باليد للأمراء وباللسان للعلماء وبالقلب للعوام.

وقال بعضهم: كل من يقدر على ذلك فالواجب عليه أن يغيره كما قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] الآية ومن التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير إليه وسد سبيل الشرور والعدوان بحسب الإمكان وقال ﷺ في حديث آخر: «**من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمناً وإيمان ومن أهان صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر، ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله**».

عن حذيفة رضي الله عنه قال: يأتي زمان على النَّاس لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم قال موسى: يا رب ما جزاء من دعى أخاه وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر؟ قال: أكتب له بكل كلمة عبادة سنة وأستحي أن أعذبه بناري.

وفي الحديث القدسي يقولُ الله تعالى: «**يا ابن آدم لا تكن ممن يؤخر التوبة ويطول الأمل ويرجع إلى الآخرة بغير عمل يقول قول العابدين ويعمل عمل المنافقين، إن أعطي لم يقنع وإن مُنع لم يصبر ويُحب الصَّالحين وليس منهم ويبغض المُنافقين وهو منهم يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن قول الشر ولم ينته**».

وعن علي كرَّم الله وجهه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**سيأتي قومٌ في آخرِ الزمان أحداث الأسنان نواقص العقل يقولونَ من قولِ خير البرية لا يُجاوز حناجرهم يمرقونَ من الدينِ كما يمرقُ السهمُ من الرمية**».

وقال رسول الله ﷺ: «**رأيتُ ليلةَ أُسريَ فيَّ إلى السَّماء رجالاً تقرض شفاهُهم بمقاريض من النَّار قلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خُطباء أمتك الَّذين يأمرونَ النَّاس بالبر وينسونَ أنفسهم**» كما قالَ الله تعالى في حقهم: ﴿أتأمرونَ الناس بالبر وتنسونَ أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٤]، يعني تتلون كتاب الله لا تعملون بما فيه، فكانوا يأمرون بالصَّدقة ولا يتصدقون فيجب على المؤمنين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المُنكر ولا ينسون أنفسهم.

كما قال الله تعالى: ﴿والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياءُ بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصَّلاة﴾ [سورة التوبة: الآية ١٧] فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف فالذي حجر الأمر بالمعروف خارج على هؤلاء المنعوتين في هذه الآية، وقد ذم الله أقواماً بترك الأمر بالمعروف فقال: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٩] يعني لا ينهي بعضهم بعضاً ﴿لبئسما كانوا يفعلون﴾.

روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم، ويدعو أحباركم فلا يستجاب لهم ويستنصرون فلا ينصرون ويستغفرون فلا يغفر لهم.

وعن عائشة رضيَ الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**عذب الله أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفاً عملهم عمل الأنبياء**» قالوا: يا رسول الله كيف؟ قال: «**لم يكونوا يغضبون الله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر**».

وقال أبو ذر الغفاري: وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم يا أبا بكر إن لله تعالى مجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزقين يمشون على الأرض يباهي الله بهم ملائكة السماء وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله**».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله ومن هم الآمرونَ بالمعروف، والناهون عن المُنكر، والمحبون لله، والمبغضون في الله؟ قال: «**والذي نفسي بيده إن العبد ليكون في الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشُّهداء لكل غرفة منها ثلثمائة باب منها الياقوت والزمرد**

الأخضر على كل باب نور والرجل منهم ليتزوج بثلثمائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين كلما التفت إلى واحدة منهم فنظر إليها تقول له: أتذكر يوم كذا وكذا أمرت فيه بالمعروف ونهيت عن المنكر؟ وكلما التفت إلى واحدة منهن ذكرت له مقاماً أمر فيه بالمعروف ونهى عن المنكر».

وفي الخبر أنَّ الله تعالى قال: «يا موسى هل عملت لي عملاً قط؟ قال: إلٰهي صليت لك وصمت لك وتصدقت لأجلك وسجدت لك وحمدت لك وقرأت كتابك وذكرتك».

قال الله تعالى: «يا موسى أما الصَّلاة فلك برهان، وأما الصوم فلك جنة وأما الصدقة فلك ظل، وأما التسبيح فلك أشجار في الجنة، وأما قراءة كتابي فلك حور وقصور، وأما الذكر فلك نور فأي عمل عملت لي؟».

قال موسى: دلني يا ربّ على عمل أعمله لك، قال: «يا موسى هل واليت لي ولياً قط؟ هل عاديت لي عدواً قط؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب لله والبغض لله ولأعدائه وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله عز وجل؟ قال: «**رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لا يجري عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش**».

وقال الحسنُ البَصْري رحمه الله: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر، فأمره بالمعروف، ونهاه عن المُنكر، فقتله على ذلك، فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر**». أوحى الله إلى يوشع بن نون عليه السَّلام إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم فقال: هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وأوكلوهم وشاربوهم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: يا رسول الله لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله، ولا ننهي عن المنكر حتى نجتنبه كله فقال ﷺ: «**بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله**». وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله ومن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى.

الباب السادس عشر

في عداوة الشيطان

يجب على المؤمن أن يحب العلماء والصُّلحاء، ويُلازم مجالستهم، ويسأل ما لا بد له، ويتعظ بنصحهم، ويجتنب الأعمال القبيحة، ويتخذ الشيطان عدواً كما قال الله تعالى: ﴿إنَّ الشيطان لكم عدواً فاتخذوه عدواً﴾ [سورة فاطر: الآية ٦] أي فعادوه بطاعة الله تعالى ولا تطيعوه في معاصي الله تعالى، وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم وأفعالكم وعقائدكم من صميم قلوبكم، وإذا فعلتم فعلاً، فتفطنوا له فإنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ويزين لكم القبائح واستعينوا عليه بربكم.

قال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، وقال: «**هذه سبيل الله**» ثم خط خطوطاً عن يمين الخط، وعن شماله، ثم قال: «**هذه سُبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم تلا: ﴿إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] فبين لنا ﷺ كثرة طرق الشيطان.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**كانَ راهبٌ في بني إسرائيل، فعمد الشَّيطان إلى جارية، فخنقها وألقى في قلوب أهلها أنَّ دواءها عند الراهب، فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها، فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشَّيطان فزيَّنَ له مقاربتها، ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه، فوسوسَ إليه، وقال: الآن تفتضح يأتيك أهلها، فاقتلها، فإن سألوك فقل: ماتت، فقتلها، ودفنها، فأتى الشَّيطان أهلها، فوسوسَ إليهم، وألقى في قلوبهم أنه أحبلها، ثم قتلها، ودفنها، فأتاه أهلها فسألوه عنها، فقال: ماتت، فأخذوه ليقتلوه بها، فأتاه الشَّيطان، فقال: أنا الذي خنقتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، فأطعني تنج، وأخلصك منهم، قال: بماذا؟ قال: اسجد لي سجدتين، ففعل، فقال له الشيطان: إني بريء منك، فهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفرَ قال إني بريء منك﴾** [سورة الحشر: الآية ١٦]».

وروي أنَّ إبليس سألَ الإمام الشافعي رضي الله عنه ما قولك فيمن خلقني كما اختار، واستعملني فيما اختار، وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة، وإن شاء أدخلني النَّار

أعدل في ذلك أم جار، فنظر في كلامه ثم قال: يا هذا إن كانَ خلقك لما تُريد أنت، فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريده هو فلا يسأل عما يفعل، فاضمحل إلى أن صار لا شيء، ثم قال: والله يا شافعي لقد أخرجت بمسألتي هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية.

واعلم أنَّ مثال القلب مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدريها فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجب هو فرض عين على كل مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب الآية فهو أيضاً واجب ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلاَّ بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة، ومداخله وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة:

منها: الغضب والشَّهوة فإنَّ الغضب غول العقل، وإذا ضعف العقل هجم جند الشيطان، وكلما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة، وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى.

ومنها: الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصاً على كل شيء أعماه حرصه وأصمه، فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكر أو فاحشاً.

فقد روي أن نوحاً عليه السَّلام لما ركب السفينة، وحمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى فرأى في السفينة شيخاً لم يعرفه، فقال له نوح: ما أدخلك؟ فقال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك، فقال له نوح: أخرج منها يا عدو الله فإنك لعين، فقال له إبليس: خمس أهلك بهن النَّاس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين فأوحى الله إلى نوح أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين، فقال له نوح: ما الاثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني، هما اللتان لا تخلفاني بهما أهلك النَّاس: الحرص والحسد فبالحسد لعنت وجعلت رجيماً، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلاَّ الشَّجرة فأصبت حاجتي منه الحرص.

ومنها: الشَّبع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً، فإن الشبع يقوي الشَّهوات وهي أسلحة الشيطان، فقد روي أن إبليس ظهر ليحيى عليه السَّلام، فرأى عليه معاليق من كل

شيء، فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشَّهوات التي أصبت بها ابن آدم، فقال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فشغلناك عن الصَّلاة وعن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا، قال: والله علي أن لا أملأ بطني من الطعام أبداً، فقال له إبليس: ولله علي أن لا أنصح مسلماً أبداً.

ومنها: حب التزيين من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتهما، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره. فإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض إلى أن يساق أجله فيموت، وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة نعوذ بالله.

ومنها: الطمع في النّاس فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبد اللّه بن حنظلة فقال له: يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعلمك به فقال: لا حاجة لي به قال: انظر فإن كان خيراً أخذت، وإن كان شراً رددت فقال: يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت فإني أملكك إذا غضبت.

ومنها: العجلة وترك التثبت في الأمور قال ﷺ: «**العجلةُ من الشَّيطان والتأني من الله تعالى، فعند الاستعجال يروج الشَّيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري**»، فقد روي أنه لما ولد عيسى ابن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا له: أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها.

فقال: هذا حادث قد حدث مكانكم، فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئاً، فوجد عيسى عليه السلام قد ولد، وإذا بالملائكة حافين به فرجع إليهم فقال: إن نبياً ولد البارحة ما حملت أنثى قط، ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلاّ هذا فيئسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة ومنها الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال والعروض والدواب والعقار فإنَّ كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مُستقر الشيطان، قال ثابت البُناني: لما بعث رسول الله ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو، فانطلقوا حتى أعيوا، ثم جاؤوه، وقالوا: ما ندري، قال: أنا آتيكم بالخبر، فذهب ثم جاء وقال: قد بعث الله مُحمد ﷺ قال: فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا يوماً قط مثل

هؤلاء نصيب منهم، ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحق ذلك فقال لهم إبليس: رويداً بهم عسى الله أن يفتحَ لهم الدُّنيا فنصيب منهم حاجتنا.

وروي أنَّ عيسى عليه السَّلام توسدَ يوماً حجر فمرّ به إبليس، فقال: يا عيسى أرغبت في الدنيا؟ فأخذه عيسى عليه السلام فرمى به من تحت رأسه وقال: هذا لك مع الدُّنيا.

ومنها: البخلُ، وخوف الفقر فإنَّ ذلك هو الذي يمنع من الإنفاق والتصدق، ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم، ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، وهي معشش الشياطين.

ومنها: التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر لهم بعين الاحتقار، وذلك مما يهلك العباد وللفساق جميعاً قال الحسنُ رضي الله عنه: بلغنا أنَّ إبليس قال: سولتُ لأمة محمد ﷺ المعاصي، فقصموا ظهري بالاستغفار فسولت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء وقد صدق الملعون فإنَّهم لا يعلمون أنَّ ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها.

ومنها: سوء الظن بالمسلمين فيجب الاحتراز عنه وعن تهمة الأشرار فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالنَّاس طلباً للعيوب، فاعلم أنه خبيث باطناً، وأنَّ ذلك خبثه يترشح منه فيجب على الإنسان قطع هذه الأبواب من القلب ويعينه عليها ذكر الله تعالى.

وقال ابن إسحاق: لما رأى كفار قريش هجرة الصحابة، وعرفوا أنه صار له ﷺ أصحاب من غيرهم، فحذروا خروجه، وعرفوا أنه أجمع لحربهم، فاجتمعوا في دار الندوة وهي دار قُصي بن كلاب، وسُميت بذلك لاجتماع الندى فيها يتشاورون وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، ولا يدخلون فيها غير قرشي إلى أن يبلغ أربعين سنة بخلاف القرشي، وقد أدخلوا أبا جهل واجتمعوا يوم السبت، ولذا ورد يوم السبت مكر وخديعة ومعهم إبليس في صورة شيخ نجدي وذلك أنه وقف على باب الدار في هيئة شيخ جليل عليه بت قيل كساء غليظ، أو طيلسان من خز فقالوا: من الشيخ؟ فقال: من نجد سمع بالذي قعدتم له، فحضر ليسمع ما تقولون، وعسى أن يعدمكم رأياً ونصحاً.

قالوا: ادخل، فدخل، فتشاوروا في أمر النبي ﷺ وكانوا مائة رجل وقيل: كانوا خمسة عشر رجلاً فقال أبو البحتريّ: المقتول كافراً ببدر احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله، فقال النَّجدي: ما هذا برأي والله لو

حبستموه في الحديد ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكابروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا برأي، فانظروا في غيره، فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامري: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فلا نبالي إلى أين ذهب.

فقال النَّجدي لعنه الله: ما هذا برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي مُن العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله حتى يتابعوه عليكم، ثم يسير بهم إليكم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل: والله إنَّ لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ويتفرق دمه في القبائل فلا تقدر بنو عبد مُناف على حرب قومهم جميعاً فتعقله لهم.

فقال النَّجدي لعنه الله: القولُ ما قال لا أرى غيره، فأجمع رأيهم على قتله ﷺ، وتفرقوا على ذلك، ثم أتى جبريل النبي ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام، فيثبوا عليه فأمر ﷺ علياً، فنام مكانه وغطي ببردة له ﷺ أخضر كان يشهد به الجمعة والعيدين بعد ذلك عند فعلهما، فكان أول من شرى نفسه في الله ووقى بها رسول الله ﷺ وفي ذلك يقول عليّ رضي الله عنه شعراً:

وقيتُ بنفسي خير من وطيء الثَّرى ... ومن طاف بالبيتِ العتيقِ وبالحجرِ
رسولُ إلٰه خافَ أن يمكروا به ... فنجَّاه ذو الطول الإلٰه من المكرِ
وباتَ رسولُ الله في الغارِ آمناً ... موقى وفي حفظِ الإلٰهِ وفي سترِ
وبت أراعيهم وما يتهمونني ... وقد وطنتُ نفسي على القتلِ والأسرِ

ثم خرجَ ﷺ من الباب عليهم وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يره أحد منهم ونثر على رؤوسهم كلهم تراباً كان في يده وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يٓس﴾ [سورة يٓس: الآية ١] إلى قوله: ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ [سورة يٓس: الآية ٩] انصرف حيث أراد فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هٰهنا؟ قالوا: محمد قال: خيبكم الله، والله خرج عليكم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته فما ترون ما بكم، فوضع

كل يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يتطلعون، فيرون علياً على الفراش متّشحاً برد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمدنا، ثم عليه برده فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا فقامَ علي من الفراش فقالوا: لقد صدقنا الذي كان حدَّثنا، وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٠]الآية شعر:

لا تجـزعـن فبعـدَ العسـرِ تيسيـر	وكـل شـيء لـه وقـت وتقـديـرُ
وللمُقـدر فـي أحـوالنـا نظـر	وفـوقَ تـدبيـرنـا لله تـدبيـرُ

ثم أذن الله تعالى لنبيه ﷺ في الهجرة فقال ابن عباس بقوله تعالى: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠] وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر رضي الله عنه.

وروى الحاكم عن علي رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ سألَ جبريل: «**من يهاجر معي؟**» قال: أبو بكر الصديق، وأخبر ﷺ علياً بمخرجه، وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن جلوس يوماً في بيت أبي بكر في نحرِ الظهيرة أي أوَّل الزوال وهو أشد ما يكون من حرارة النَّهار.

وروى الطبراني في حديثِ أسماء كان النبي ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين بكرة وعشية، فلما كان يوم من ذلك جاءنا في الظهيرة فقلت: أبت هذا رسول الله ﷺ مقنعاً أي مغطياً رأسه في ساعة لم يكن يأتينا فيها قال أبو بكر رضي الله عنه: فدى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلاَّ أمر قالت عائشة رضي الله عنها: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن فأذن له أبو بكر فدخل، فتنحى أبو بكر عن سريره وجلس عليه رسول الله ﷺ فقال لأبي بكر: «**اخرج من عندك**» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك يعني عائشة وأسماء وفي رواية فقال أبو بكر: لا عين عليك إنما هم ابنتاي فقال ﷺ: «**فإنه قد أذن لي في الخروج**» فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال ﷺ: «**نعم**».

قال عائشة رضي الله عنها: فرأيت أبو بكر يبكي وما كنتُ أحسب أحد يبكي من الفرح فقال أبو بكر: فخُذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين قال ﷺ: «**لا بل بالثمن**» وفي رواية، فقال: «**بثمنها إن شئت**»، وإنما أخذها بالثمن لتكون هجرته ﷺ إلى الله تعالى بنفسه وماله رغبة منه عليه السَّلام في استكماله فضل الهجرة إلى الله تعالى قالت عائشة: فجهزناهما أحث ـ أي أسرع ـ الجهاز.

وفي رواية أحب الجهاز وضعنا لهما سفرة: أي زاد في جراب زاد الواقدي أنه كان

في السفرة شاة مطبوخة، قالت: فقطعت أسماء قطعة من نطاقها، فربطت بها على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، تثنية نِطَاق بكسر النون ما يشد به الوسط قالت عائشة رضي الله عنها: ثم لحقَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر بغارِ ثَوْر، فمكثا فيه ثلاث ليال، وهو جبل بمكة نزل ثور بن عَبد مَناة، فنسب له.

وروي أنهما خرجا من خوخة، أي باب صغير لأبي بكر في ظهر بيته ليلاً إلى الغار. وروي أن أبا جهل لقيهما، فأعمى الله بصره عنهما حتى مضيا قالت أسماء بنت أبي بكر: وخرجَ أبو بكر بماله خمسة آلاف درهم، ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة جمع قائف، وهو الذي يعرف الأثر في كل وجه، فوجد الذي ذهب جهة ثور أثره هناك فلم يزل يتبعه حتى انقطع الأثر. لما انتهى إلى ثور شق على قريش خروجه، وجزعوا لذلك وجعلوا مائة ناقة لمن رده.

وروى القاضي عياض أنه ﷺ ناداه ثبير: اهبط عني، فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب فناداه حراء إلي يا رسول الله.

وروي أنه لما دخل الغار وأبو بكر معه أنبتَ الله على بابه الراءة، وهي شجرة معروفة بأم غيلان، فحجبت عن الغار أعين الكفار، وأنَّ الله عز وجل أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار فعششتا على بابه، وأنَّ ذلك مما صدَّ المشركين عنه، وأنَّ حمام الحرم من نسل تلك الحمامتين جزاء وفاقاً، لما حصل بهما الحماية جوزيا بالنسل وحمايته في الحرم فلا يتعرض له، ثم أقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم، فجعل بعضهم ينظر في الغار فرأى حمامتين وحشيتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه، فقالوا له: ما لك؟ فقال: رأيت وحشيتين، فعرفت أنه ليس فيه أحد، فسمع النبي ﷺ ما قال، فعلم أنَّ الله قد درأ عنه.

وقال آخر: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: وما أربكم -أي حاجتكم- إلى الغار؟ إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد، لو دخل لكسر البيض وتفسخ العنكبوت، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فتأمل كيف أظلت الشجرة المطلوب وأضلت الطالب، وجاءت عنكبوت فسدت باب الطلب وحاكت وجه المكان فحاكت ثوب نسجها حتى عمي على القائف الطلب، لقد حصل لها بذلك الشرف وما أحسن قول ابن النُّقيب:

ودودُ القزّ إنْ نَسَجتْ حريراً ... يجعل لبسه في كلِّ شي

فـــإنَّ العنكبـــوتَ أجـــلّ منهـــا   بمـــا نَسَجـتْ علــى رأسِ النبـــي

وروى الشيخان عن أنس، قال: حدثني أبو بكر، قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**» وذكرَ بعض أهل السير أنَّ أبا بكر لما قال له ﷺ: «**لو جاؤونا من هٰهنا لذهبنا من هٰهنا**» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرجَ من الجانب الآخر وإذا البحرُ قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه.

وعن الحسن البصري بلاغاً أنَّ أبا بكر ليلة انطلق معه ﷺ إلى الغار كان يمشي بين يديه ساعة، ومن خلفه ساعة فسأله فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك وأذكر الرصد فأمشي أمامك، فقال: لو كان شيء أحببت أن تقتل دوني، قال: والذي بعثك بالحق فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله حتى استبرىء لك الغار فاستبراه فجعل يلتمس بيده، فكلما رأى جحراً قطع من ثوبه وألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، فبقي جحر فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذي رسول الله ﷺ.

فدخلَ رسول الله ﷺ ووضعَ رأسه في حجرِ أبي بكر ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحرِ، ولم يتحرك لئلا يوقظ المصطفى ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: «**ما لكَ يا أبا بكر؟**» قال: لدغت فداك أبي وأمي فتفل عليه رسول الله ﷺ، فذهب ما بجسده، ولقد أحسنَ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه حيث قال:

وثـانـي اثنيـن فـي الغـارِ المنيـف وقـد   طـافَ العـدو بـه إذ صـاعـدَ الجبـلا
وكـانَ حـب رسـول الله قـد علمـوا   مـن الخـلائـقِ لـم يعـدل بـه بَـدَلا

كان خروجه ﷺ من مكة يوم الخميس، وخرجَ من الغار ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال من أول ربيع الأول، ودخل المدينة يوم الجمعة اثنتي عشر ليلة خلت منه.

حُكي أنَّ زاهداً من الزُّهاد اسمه زكريا مرض مرضاً شديداً، ودنا وقت أجله فأتاه صديقه في سكرات الموت ولقنه لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، فأعرض الزاهد بوجهه ولم يقل، فقال له ثانياً، فأعرض فقال له ثالث، فقال: لا أقول، فغشي على صديقه.

فلما كان بعد ساعة وجد الزاهد خفة، ففتح عينيه فقال: هل قلتم لي شيئاً؟ قالوا: نعم عرضنا عليك الشهادة ثلاثاً فأعرضت في مرتين، وقلت في الثلاثة: لا أقول، فقال: أتاني إبليس عليه اللعنة ومعه قدح من الماء، ووقف عن يميني وهو يحرك القدح فقال لي: أتحتاج إلى الماء؟ قلت: بلى، قال: قل عيسى ابن الله، فأعرضت عنه، ثم أتاني من قبل

رجلي، فقال لي كذلك، فأعرضت عنه، وفي الثالثة قال لي كذلك، فقلت: لا أقول فضرب القدح على الأرض، وولى هارباً، فأنا رددت على إبليس لا عليكم فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وروي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: سأل بعضهم ربه أن يريه موضع الشَّيطان من قلبِ ابن آدم فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه، ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه له خرطوم طويل دقيق أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى خنس. اللهم لا تسلط علينا شيطاناً مريداً أو لساناً حسوداً، وأعنا على ذكرك وشكرك بجاه خاتم أنبيائك ورسلك ﷺ وعلى آله وشرف وكرم.

الباب السابع عشر

في بيان الأمانة والتوبة

روي عن محمد بن المنكدر أنه قال: سمعت أبي يقول: بينما سفيان الثوري يطوف، إذ رأى رجلاً لا يرفع قدماً، ولا يضع قدماً إلاَّ وهو يصلي على النبي ﷺ قال: فقلت: يا هذا إنَّك قد تركت التسبيح والتهليل، وأقبلت بالصلاة على النبي ﷺ هل عندك في هذا شيء؟ قال: من أنت؟ عافاك الله، فقلت: أنا سفيان الثوري قال: لولا أنك زاهد أهل زمانك ما أخبرتك عن حالي ولا أطلعتك على سري.

ثمَّ قال لي: خرجت ووالدي حاجاً إلى بيت الله الحرام، حتى إذا كنت في بعض المنازل مرض والدي، فقمت بشأنه حتى مات، فاسود وجهه فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وغطيت وجهه، فغلبتني عيناي فنمت حزيناً، فرأيت رجلاً لم أرَ أحسن منه وجهاً ولا أنظف منه ثوباً، ولا أطيب منه ريحاً، يرفع قدماً ويضع أخرى حتى دنا من والدي فكشف الإزار عن وجهه فأمر بيده على وجهه فابيض.

ثم ولى راجعاً فتعلقت بثوبه، وقلت: يا عبد الله من أنت الذي منَّ الله على والدي بك في أرض الغربة؟ قال: أو ما تعرفني؟ أنا محمد بن عبد الله صاحب القرآن، أما والدك فكان مسرفاً على نفسه، ولكن كان يكثر الصلاة علي، فلما نزل به ما نزل استغاث بي وأنا غياث لمن أكثر الصلاة علي فانتبهت، وإذا وجه أبي قد ابيَض.

وروي عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر عن النبي ﷺ أنه قال: «**من نسي الصلاة علي فقد أخطأ طريق الجنة**».

اعلم أن الأمانة مأخوذة من الأمن لأنه يؤمن معها من منع الحق وضدها الخيانة من الخون وهو النقص لأنك إذا خنت أحداً في شيء فقد أدخلت عليه النقصان قال رسول الله ﷺ: «**المكرُ والخديعة والخيانة في النار**» وقال ﷺ: «**من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته**» ومدحَ أعرابي قوماً، فقال: شغفوا برعي الأمانة، فلا يغدرون بذمة، ولا ينتهكون لمسلم حرمة، ولم تعلق بهم ذمة فهم خير أمة. أقول وهؤلاء الذين مدحهم الأعرابي قد انقرضوا فلم نرَ في هذه الأزمان إلاَّ ذئاباً في ثياب كما قال الشاعر:

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ... ومن أين للحر الكريم صحابُ
وقد صارَ هذا النَّاس إلا أقلهم ... ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وكما قال آخر:

ذهبَ الذين يقال عند فراقهم ... ليتَ البلاد وما بها تصدعُ

وعن حُذيفة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الأمانة سترفعُ ويصبح الناس يتبايعون وما يكاد أحد منهم أن يؤدي الأمانة وحتى يُقال: إنَّ في بني فلان أميناً**».

واعلم أنَّ التوبة واجبة بالأخبار والآيات قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [سورة النور: الآية ٣١] وهذا أمر على العموم. وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ [سورة التحريم: الآية ٨] ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح، ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: ﴿إن الله تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] وقوله ﷺ: «**التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له**».

وقال رسول الله ﷺ: «**الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته**».

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله على آدم عليه السلام هنأته الملائكة، و عليه جبريل وميكائيل عليهما السَّلام فقالا: يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه يا آدم ورثك ذريتك التعب والنصب، وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاءهم مستجاب.

وقال ﷺ: «**إنَّ الله عزّ وجلّ يبسطُ يده بالتوبة لمسيء اللَّيل إلى النَّهار ولمسيء النَّهار إلى اللَّيل حتى تطلع الشَّمس من مغربها**» وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل، وقال ﷺ: «**لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السَّماء، ثم ندمتم لتابَ الله عليكم**» وقال ﷺ: «**إنَّ العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة**» فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**يكون نصب عينه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة**» وقال ﷺ: «**كفَّارة الذنب الندامة**» وقال ﷺ: «**التائبُ من الذنبِ كمن لا ذنبَ له**».

ويُروى أنَّ حبشياً قال: يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «**نعم**» فولَّى، ثم رجع، فقال: يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «**نعم**» فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه.

ويُروى أنَّ الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة، فأنظره إلى يوم القيامة فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح، وقال ﷺ: «**إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ**» وعن سعيد بن المسيب نزل قوله تعالى: ﴿إنه كان للأوَّابين غفوراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٥] في الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب، ثم يتوب وقال الفضيل: قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصديقين أنّي إن وضعتُ عليهم عدلي عذبتهم، وقال عبد اللّه بن عمر: من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب.

ويروى أنَّ نبياً من الأنبياء أذنب فأوحى الله إليه: وعزتي لئن عدت لأعذبنك، فقال: يا رب أنت أنت وأنا وأنا وعزتك، إن لم تعصمني لأعودن فعصمه الله تعالى.

ويُروى أنَّ رجلاً سألَ ابن مسعود عن ذنبٍ ألمَّ به هل له من توبةٍ؟ فأعرضَ عنه ابن مسعود، ثمَّ التفتَ إليه فرأى عينيه تذرفان فقال: إنَّ للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق

إلا باب التوبة، فإنَّ عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق فاعمل ولا تيأس.

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال: إلٰهي أطعاتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصه: أحببتنا فأحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت إلينا قبلناك.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تاب العبد تاب الله عليه، وأنسى الحفظة ما كانوا كتبوا من مساوىء عمله، وأنسى جوارحه ما عملت من الخطايا، وأنسى مكانه من الأرض ومقامه من السماء ليجيء يوم القيامة، وليس شيء من الخلق يشهد عليه**».

وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**مكتوبٌ حول العرشِ قبل أن يخلقَ الخلق بأربعة آلاف عام، وإني لغفار لمن تاب وآمنَ وعملَ صالحاً ثم اهتدى**».

واعلم أن التوبة فرض عين من الذنوب الكبائر والصغائر فوراً فإن الإصرار على الصغائر يلحقها بالكبائر. قال الله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٥] والتوبة النصوح أن يتوب العبد ظاهراً وباطناً نادماً غير عازم على العود، ومثل من تاب ظاهراً فقط كمثل مزبلة بسط عليها ديباج، والنَّاس ينظرون إليها ويتعجبون منها فإذا كشف عنها الغطاء أعرضوا عنها، فكذلك الخلق ينظرون إلى أهل الطاعة الظاهرة فإذا كشف الغطاء يوم القيامة يوم تبلى السرائر أعرضت الملائكة عنهم.

ولذا قال ﷺ: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**» وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كم من تائبٍ يجيءُ يوم القيامة يظن أنه تائب وليس بتائب، أي لأنه لم يحكم أبواب التوبة من الندم والعزم على عدم العود، ورد المظالم لأربابها إن أمكن، واستحلالهم منها أن تيسروا وإلا أكثر من الاستغفار له ولهم، عسى الله يرضيهم عنه ونسيان الذنب من أقبح المصائب، فعلى العاقل أن يحاسب نفسه ولا ينسى ذنبه كما قيل:

يـا أيُّهـا المُـذنـب المُحصـي جـرائمـه ... لا تنـسَ ذنبـك واذكـر منـه مـا سَلَفـا
وتُـب إلـى الله قبـلَ المـوت وانـزجـرا ... يـا عـاصيـاً واعتـرف إن كنـت مُعتـرفـا

وروى الفقيه أبو اللَّيث بسنده قال: دخل عُمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ

باكياً، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يُبكيك يا عُمر؟**» فقال: يا رسول الله بالباب شاب قد أحرق فؤداي، وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ: «**أدخله يا عمر**» قال: فدخل وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك يا شاب؟**» قال: يا رسول الله أبكتني ذنوب كثيرة وخفت من جبار غضبان علي.

فقال رسول الله ﷺ: «**أشركت بالله شيئاً؟**» قال: لا، قال: «**أقتلت نفساً بغير حق؟**» قال: لا، قال: «**فإنَّ الله يغفر ذنبك، ولو كان مثل السموٰات والأرضين والجبال**» قال: يا رسول الله ذنبي أعظم من ذلك، قال: «**ذنبك أعظم أم الكرسي؟**» قال: ذنبي أعظم يا رسول الله، قال: «**ذنبك أعظم أم العرش؟**» قال: ذنبي أعظم، قال: «**ذنبك أعظم أم إلٰهك؟**» يعني عفو الله، قال: بل أعظم وأجل، قال: «**فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلاَّ الرب العظيم**» يعني عظيم التجاوز.

ثمَّ قال له رسول الله ﷺ: «**أخبرني عن ذنبك**» قال: إني أستحي منك يا رسول الله، قال: «**بل أخبرني**» قال: يا رسول الله إني كنت أنبش القبور منذ سبع سنين حتى ماتت جارية من بنات الأنصار، فنبشت قبرها وأخذت كفنها ومضيت غير بعيد فغلب الشيطان علي فرجعت فجامعتها، ثم مضيت غير بعيد، وإذا بالجارية قامت وقالت: ويلك يا شاب أما تستحي من ديان يأخذ للمظلوم من الظالم تركتني عريانة في عسكر الموتى، وأوقفتني جنباً بين يدي الله عز وجل، قال: فوثب رسول الله ﷺ وهو يدفع في قفاه ويقول: «**يا فاسق ما أحوجكَ إلى النَّار اخرج عنّي**» فخرج الشاب تائباً إلى الله تعالى أربعين ليلة.

فلما تم له أربعونَ ليلة رفع رأسه إلى السماء وقال: يا إلٰه محمد وآدم وإبراهيم إن كنتَ غفرتَ لي فأعلم محمد ﷺ وأصحابه، وإلاَّ فأرسل ناراً من السماء وأحرقني بها ونجني من عذاب الآخرة قال: فهبط جبريل على النبي ﷺ وقال: يا محمد إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول لك: أنت خلقت الخلق فقال: بل هو الذي خلقني وخلقهم ورزقني ورزقهم، قال جبريل عليه السلام: يقول لك الله تعالى أني تبت على الشاب فدعا النبي ﷺ الشاب وبشره بأن الله تاب عليه. ١٥٩

وحكي أنه كان في زمن موسى عليه السَّلام رجلاً لا يستقيم على التوبة، كلما تاب أفسد، فمكث على ذلك عشرين سنة. فأوحى الله تعالى إلى موسى قُلْ لعبدي فلان أني غضبت عليه فبلغَ موسى عليه السَّلام الرِّسالة إلى ذلك الرجل، فحزن وذهب إلى الصَّحراء قائلاً: إلٰهي أنفذت رحمتك أم ضرتك معصيتي أم نفذت خزائن عفوك أم بخلت على

عبادك أي ذنب أعظم من عفوك، والكرم من صفاتك القديمة واللؤم من صفاتي الحادثة أفتغلب صفتي صفتك، وإذا حجبت عبادك عن رحمتك فإلى من يرجعون، وإن طردتهم فإلى من يقصدون، إلٰهي إن كانت رحمتك قد نفذت وكان لا بد من عذابي فاحمل علي جميع عذاب عبادك فإني قد فديتهم بنفسي.

فقال الله تعالى: يا موسى اذهب إليه وقل له لو كانت ذنوبَكَ ملءَ الأرض لغفرتها لك، بعد ما عرفتني بكمال القدرة والعفو والرحمة وقال ﷺ: **«ما من صوت أحب إلى الله من صوت عبدٍ مذنبٍ تائبٍ، يقول: يا رب فيقول الرب: لبيك يا عبدي سَلْ ما تريد أنت عندي كبعض ملائكتي، أنا عن يمينك وعن شمالك وفوقك وقريب من ضمير قلبك، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له»**.

قال ذو النون المصري رحمه الله: إن عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة، فأثمرت ندماً وحزناً، فجنوا من غير جنون وتلذذوا من غير عي ولا بكم، وأنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الطرق للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا، حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع، وعبروا جسور الهوى وحتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا برياح النجاة في بحر السَّلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة.

الباب الثامن عشر

في فضل الترحم

قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة إلاَّ رحيم»** قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: **«ليس الرَّحيم من يرحم نفسه خاصة ولكن الرحيم من يرحم نفسه وغيره»** ومعنى رحمته لنفسه أن يرحمها من عذاب الله بترك المعاصي والتوبة منها، وفعل الطاعات والإخلاص فيها، ومعنى رحمته لغيره أن لا يسعى في أذية المسلم.

قال ﷺ: «المسلم من سلم النَّاس من يده ولسانه» ويرحم البهائم فلا يكلفها ما لا تطيق، فقد ورد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في الطريق فاشتدَّ عليه العطش فوجد بئراً فنزلَ بها وشرب، ثمَّ طلع فإذا كلب يلهثُ من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فملأ حفنة ماء ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله تعالى، فغفر له» قالوا: يا رسول الله إنَّ لنا في البهائم لأجراً، قال: «في كل ذات كبد رطبة أجر».

وعن أنس بن مالك قال: بينما عُمر رضي الله عنه يعس ذات ليلة إذ مرَّ برفقة نزلت فخشي عليهم السَّرقة، فلقي عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه فقال: ما الذي جاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟ قال: مررت برفقة قد نزلت فحدثتني نفسي أنهم إذا باتوا ناموا، فخشيت عليهم السارق فانطلق بنا نحرسهم، قال: فانطلقنا فقعدا قريباً من الرفقة يحرسان حتى إذا طلع الفجر نادى عمر رضي الله عنه: يا أهل الرفقة الصلاة، حتى إذا رآهم تحركوا انصرف، فعلينا أن نقتدي بالصحابة رضي الله عنهم.

فقد مدحهم الله تعالى بقوله: رحماء بينهم، وكانوا رحماء على المسلمين وعلى جميع الخلق، وكانوا يرحمون أهل الذمة، فقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، وهو شيخٌ كبير، فقال له عمر رضي الله عنه: ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شاباً ثم ضيعناك اليوم، وأمر بأن يجري عليه قوته من بيت مال المسلمين.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: رأيت عمر رضي الله عنه على قتب وهو يغدو بالأبطح، فقلت له: يا أمير المؤمنين أين تصير؟ قال: بغير تشذ من الصدقة فأنا أطلبه، فقلت له: لقد أذللت الخلفاء من بعدك، فقال: لا تلمني يا أبا الحسن، فوالذي بعث محمد ﷺ بالنبوة لو أنَّ عقالاً ذهب بشاطىء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة لأنه لا حرمة لوالٍ ضيَّع المسلمين، ولا لفاسق روَّع المؤمنين.

وعن الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بدلاء أمتي لا يدخلون الجنة بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن يدخلونها بسلامة الصدور وسخاء النفوس، والرحمة لجميع المسلمين».

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وعنه ﷺ: «من لا يرحم لا يُرحم ومن لا يغفر لا يُغفر له» وقال مالك بن أنس: قال رسول الله ﷺ: «أربع من حق المسلمين عليك أن تعين محسنهم وأن

تستغفر لمذنبهم، وأن تعود مريضهم، وأن تحب تائبهم» وروي أن موسى عليه السلام قال: يا رب بأي شيء اتخذتني صفياً؟ قال: برحمتك على خلقي.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يتبع الصبيان فيشتري منهم العصافير فيرسلها، ويقول: اذهبي فعيشي، وقال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتواصلهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»**.

حكاية: مرَّ عابدٌ من بني إسرائيل على كثيب من رمل، وقد أصابت بني إسرائيل مجاعة عظيمة، فتمنى في نفسه أن هذا لو كان دقيقاً لأشبع به بني إسرائيل فأوحى الله إلى نبي من بني إسرائيل، أن قل لفلان إن الله تعالى قد أوجب لك من الأجر ما لو كان دقيقاً، وأشبعت به النَّاس، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«نية المؤمن خير من عمله»**.

حكي أن عيسى عليه السلام خرج يوماً، فلقي إبليس وبيده عسل، وفي الأخرى رماد، فقال: ما تفعل يا عدو الله بهذا العسل والرماد؟ قال: أما العسل فأجعله على شفاه المغتابين حتى يبلغوا منها، وأما الرماد فأضعه على وجه اليتامى حتى يبغضهم الناس، وقال ﷺ: **«أنَّ اليتيم إذا ضُرِبَ اهتزَ عرشُ الرحمن لبكائه»** فيقول الله عز وجل: يا ملائكتي من أبكى هذا الصبي الذي غيبت أباه في التراب؟ وقال ﷺ: **«من آوى يتيماً إلى طعامه وشرابه، أوجب الله له الجنة»**.

وفي روضة العلماء كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يأكل طعاماً مشى الميل والميلين يطلب من يأكل معه. وبكى علي كرم الله وجهه يوماً، فقيل: ما يبكيك؟ قال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، فأخاف أن يكون الله قد أهانني، وقال رسول الله ﷺ: **«من أطعم جائعاً يريد به وجه الله وجبت له الجنة، ومن منع الطعام عن الجائع منع الله عنه فضله يوم القيامة وعذبه في النار»**.

وقال رسول الله ﷺ: **«السَّخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار»** وقال ﷺ: **«الجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل»** وقال ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة يدخل الجنة أربعة بغيرِ حساب العالم الذي يعمل بعلمه، ومن حجَّ ولم يرفَثْ ولم يفسق حتى مات، والشَّهيد الذي قتل في المعركة لإعلاء كلمة الإسلام، والسخي الذي اكتسب مالاً من الحلال، وأنفقه في سبيل الله بغير رياء، فهؤلاء ينازع بعضهم بعضاً أيهم يدخل الجنة أولاً»**.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله عباداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد، فمن بخل بتلك المنافع على العباد، نقلها الله تعالى عنه، وحولها إلى غيره» وقال رسول الله ﷺ: «السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ بغصنٍ منها، قاده ذلك الغصنُ إلى للجنة» وعن جابر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصبر والسماحة».

وروى المقدم بن شريح عن أبيه، عن جده، قال: قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «إنَّ من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السَّلام وحسن الكلام».

الباب التاسع عشر

في بيان الخشوع في الصلاة

جاء في الخبر أنَّ جبريل عليه السلام، جاء يوماً إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله كنت رأيت ملكاً في السماء على سرير، وحوله سبعون ألف ملك صفوفاً يخدمونه وكل نفس يتنفس ذلك الملك يخلق الله من نفسه ملكاً، والآن رأيت ذلك الملك على جبل قاف منكسر الجناح وهو يبكي.

فلما رآني قال لي: أتشفع لي؟ قلت: ما جرمك؟ قال: كنت على السرير ليلة المعراج فمر بي محمد ﷺ فما قمت له فعاقبني الله بهذه العقوبة، وجعلني في هذا المكان كما ترى، قال: فتضرعت إلى الله فشفعت له فقال الله تعالى: يا جبريل قل له حتى يصلي على محمد، فصلى ذلك الملك عليك فعفا الله عنه وأنبت جناحيه.

اعلم أنه ورد أن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة، فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله، وإن وجدت ناقصة ردَّت إليه وسائر عمله، وقال ﷺ: «مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى» وقال يزيد الرقاشي: كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة، وقال ﷺ: «إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد، وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض» وأشار إلى الخشوع.

وقال ﷺ: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد الذي لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده» وقال ﷺ: «من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها، وأتم ركوعها وسجودها

وخشوعها عرجت، وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني، ومن صلى صلاة لغير وقتها، ولم يسبغ وضوءها، ولم يتم ركوعها، ولا سجودها، ولا خشوعها عرجت، وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه» وقال ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى، ومن طفف فقد علم ما قال الله: ﴿ويل للمطففين﴾ [سورة المطففين: الآية ١] وقال بعض العلماء: مثل المصلي مثل التاجر الذي لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال، وكذلك المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: إذا حضرت الصَّلاة قوموا إلى نار ربكم التي أوقدتموها اطفؤها، وقال ﷺ: «إنما الصَّلاة تمسكن وتواضع» وقال ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء، والمنكر، لم يزدد من الله إلاَّ بعداً» وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر، وقال ﷺ: «كَمْ من قائم وليس له من قيامه إلاَّ التعب والنصب» وما أراد به الغافل، وقال ﷺ: «ليس للعبد من صلاته إلاَّ ما عقل منها».

وقال أهلُ المعرفة: الصَّلاة أربعة أشياء الشروع مع العلم، والقيام مع الحياء والأداء مع التعظيم، والخروج مع الخوف، وقال بعض المشايخ: من لم يجتمع قلبه على الحقيقة فسدت صلاته، وقال رسول الله ﷺ: «في الجنة نهر يقال له الأفيح فيه جواري خلقهن الله من الزعفران، يلعبن بالدر والياقوت، يسبحن الله بسبعين ألف لغة أصواتهم أطيب من صوت داود عليه السَّلام، ويقلن نحن لمن صلَّى صلاته بالخشوع والحضور» فيقول الله تعالى: لأسكننه داري ولأجعلنه من زواري.

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السَّلام، يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني، وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا أقمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل، وناجني بقلب وجل ولسان صادق.

وروي أنَّ الله تعالى أوحى إليه: قل لعصاة أمتك، لا يذكروني فأني آليت على نفسي، أنَّ من ذكرني ذكرته، فإذا ذكروني ذكرتهم، اللعنة هذا في عاص غير غافل في ذكره، فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان؟ وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: يحشر النَّاس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها

واللذة، ورأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**» وقال: «**من لم يخشع قلبه ردت صلاته**».

واعلم أن الله مدح الخاشعين المتواضعين في الصلاة في غير آية فقال: ﴿في صلاتهم خاشعون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢] ﴿على صلواتهم يحافظون﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٢] ﴿على صلاتهم دائمون﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٣] قيل: إن المصلين كثير والخاشعين في الصلاة قليل، والحاج كثير والبار قليل، والطَّير كثير والعندليب قليل، والعام كثير والعامل قليل، والصَّلاة محل الخضوع ومعدن التواضع والخشوع، وهذا علامة القبول، فإن للجواز شرطاً والقبول شرطاً، الجواز أداء فرضها، وشرط القبول الخشوع.

قال الله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ١ ـ ٢]. والتقوى قال الله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله تعالى من المتقين﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٧] وقال ﷺ: «**من صلى ركعتين مقبلاً فيهما على الله بقلبه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**» واعلم أنه لا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة، فلا بدَّ من دفعها ودفعها قد يكون بالصَّلاة في مظلم، أو خال عن الشواغل من الأصوات والفرش المنقوشة والتجرد عن الملابس المزينة، بحيث تلهيه إذا نظر إليها في الصلاة.

كما روي أنه ﷺ لما لبس الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم، وصلَّى بها نزعها بعد صلاته، وقال: «**اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي**» وأمر ﷺ بتجديد شراك نعله، ثم نظر إليه في صلاته إذا كان جديد فأمر أن ينزع منها، ويردَّ الشرك الخلق.

وكان ﷺ في يده خاتم من ذهب قبل التحريم، وكان على المنبر فرماه، وقال: «**شغلني هذا، نظرة إليه ونظرة إليكم**».

وروي أن أبا طلحة صلَّى في حائط له، فيه شجرة فأعجبه دبسي طار في الشجرة يلتمس مخرجاً فأتبعه بصره ساعة، ثم لم يدرِ كم صلَّى فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة، ثم قال: يا رسول الله هو صدقة، فضعه كيف شئت.

وعن رجل آخر أنه صلى في حائط له والنَّخل مطوقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبته، ولم يدرِ كم صلى فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه، وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الله عز وجل، فباعه عثمان بخمسين ألفاً، وقال بعض السلف: أربعة في الصلاة من الجفاء: الالتفات ومسح الوجه، وتسوية الحصا، وأن تصلي بطريقٍ من يمر بين يديك. قال ﷺ:

«إن الله عز وجل مقبل على المصلي ما لم يلتفت» وكان الصديق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد، وكان يسكن في ركوعه، بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدُّنيا، فكيف لا يقتضيه بين يدي ملك الملوك؟

وفي التَّوراة مكتوب: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصلياً باكياً، فإنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام، وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها ولا تواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها.

وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، قال: هو الذي يسهو في صلاته، فلا يدري على كم ينصرف، أعلى شفع أم على وتر، وقال الحسن: هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج، وقال ﷺ: «**قال الله تعالى: لا ينجو مني عبدي إلاَّ بأداء ما افترضته عليه**».

الباب العشرون

في بيان الغيبة والنميمة

اعلم أن الله سبحانه وتعالى نص على ذم الغيبة في كتابه، وشبَّه صاحبها بآكل لحم الميتة وقال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢] وقال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله وعرضه**» وقال ﷺ: «**إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا، فإن الرجل قد يزني، ويتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له، حتى يعفو له صاحبها**».

وقال ﷺ: «**مثل من يغتاب الناس كمثل من نصب منجنيقاً، فهو يرمي بها يميناً وشمالاً، فهو يرمي بحسناته كذلك**» وقال ﷺ: «**من رمى أخاه بغيبة يريد بها شينه أوقفه الله تعالى على جسر جهنم يوم القيامة، حتى يخرج مما قال**» وقال رسول الله ﷺ: «**الغيبة ذكرك أخاك بما يكره، أي سواء ذكرته بنقصان بدنه، أو نسبه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه، حتى في ثوبه وردائه ودابته**» حتى ذكر بعض المتقدمين لو قلت إن فلاناً ثوبه طويل، أو قصير يكون ذلك غيبة، فكيف ما يكره من نفسه؟

وروي أن امرأة قصيرة دخلت على النبي ﷺ في بعض حاجاتها فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها: وما أقصرها، فقال النبي ﷺ: «اغتبتيها يا عائشة» وقال ﷺ: «إياكم والغيبة فإن فيها ثلاث آفات لا يستجاب لصاحبها دعاء ولا تقبل له حسنة وتتراكم عليه السيئات».

وقال رسول الله ﷺ: «في ذميم شر الناس يوم القيامة ذو وجهين النمام الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه من كان ذا وجهين في الدُّنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار» وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة نمام» فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى خلق كل مخلوق ذا لسان ناطق، وغير ناطق، وليس للسمك لسان أصلاً؟ فقيل: لأن الله تعالى لما خلق آدم أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا كلهم، إلاَّ إبليس فلعنه الله، وأخرجه من الجنة، ومسخه فأهبط إلى الأرض فجاء إلى البحار فأول ما رآه السمك فأخبره بخلق آدم، وقال: إنه يصطاد ويأخذ دواب البحر والبر فبلغ السمك ودواب البحر بخبر آدم فأذهب الله لسانه.

حكي عن عمرو بن دينار أنه قال: كان رجل من أهل المدينة له أخت في ناحية المدينة، فاشتكت فكان يأتيها يعودها، ثمَّ ماتت وجهزها، وحملها إلى القبر، فلما دفنت رجع إلى أهلها، ثمَّ ذكرَ أن له كيساً كان معه فضيعه في القبر، فاستعان برجلٍ من أصحابه، فأتيا القبر فنبشاه فوجدا الكيس، فقال للرجل: تنحى عنّي، حتى أنظر على أي حال هي، فرفعَ بعض ما على اللحد، فإذا القبر يشتعل ناراً، فرجع إلى أمه فقال: أخبريني علام كانت أختي؟ فقالت: كانت أختك تأتي أبواب الجيران فتلقي أذنها إلى أبوابهم حتى تستمع الحديث، لكي تمشي بالنميمة، فعلم أن هذا سبب عذاب القبر، فمن أراد أن ينجو من عذاب القبر، فليحترز من النميمة والغيبة.

وحكي عن أبي اللَّيث البخاري، أنه خرج حاجًا، فجعل في جيبه درهمين وحلفَ أن اغتبت أحد في طريق مكة ذاهباً أو آيباً، فالله علي أن أتصدَّق بهما، فذهب إلى مكة، ورجع إلى منزله والدرهمان في جيبه، فقيل له في ذلك قال: لأن أزني مائة مرة أحب إلي من أن أغتاب مرة واحدة، قال أبو حفص الكبير: لو لم أصم رمضان أحب إلي من أن أغتاب إنساناً، ثمَّ قال: من اغتاب فقيهاً، جاءَ يوم القيامة مكتوباً على وجهه هذا آيس من رحمة الله.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أسري بيّ

على أقوام **يخمشون وجوههم بأظافيرهم، ويأكلون الجيفة، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس في الدُّنيا».**

وقال الحسن رضي الله عنه: والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يبصر أحدكم القذى في عينِ أخيه، ولا يبصر الجذع في عين نفسه.

وروي أن سلمان كان في سفر مع أبي بكر وعمر، وكان يطبخ لهما، فنزلوا منزلاً فلم يتهيأ أن يصلح لهم من الطعام فبعثاه إلى النبي ﷺ لينظر عنده شيئاً من الطعام، فلم يجد فرجع إليهما فقالا: إنه لو ذهب إلى بير كذا ليبس ماؤها، فنزلت هذه الآية: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أكلَ لحم أخيه في الدُّنيا قدم إليه لحمه يوم القيامة، ويقال: كله ميتاً فإنك أكلته حياً فيأكله»** ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢].

وروي عن جابر بن عبد اللَّه الأنصاري رضي الله عنه قال: إن ريح الغيبة كانت تبين في عهد رسول الله ﷺ وذلك لقلتها، وأما في هذه الأزمان فقد كثرت الغيبة، وامتلأت الأنوف منها فلا تتميز رائحتها، ومثل ذلك كمثل رجل دخل دار الدباغين فلم يقدر على القرار فيها من شدة الرائحة ونتنها، وأهلها المقيمون فيها يأكلون الطَّعام ويشربون فيها، ولا يتبين لهم الرائحة المنتنة لأنها ملأت أنوفهم فكذلك أمر الغيبة في أيامنا هذه.

قال كعب رضي الله عنه: قرأت في بعض الكتب: إن من مات تائباً من الغيبة، كان آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها، كان أول من يدخل النار وقال الله تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ [سورة الهمزة: الآية ١] أي أشد العذاب للهمزة الذي يعيبك في الغيب واللمزة الذي يعيبك في وجهك الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان يغتابُ النبي ﷺ والمسلمين في وجوههم، ويجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً.

قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنا»** قالوا: كيف تكون الغيبة أشد من الزنا؟ قال: **«أن الرجل يزني ثم يتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يعفو عنه صاحبه»** فالواجب على المغتاب أن يندم، ويتوب ليخرج من حق الله، ثمَّ يستحل المغتاب ليحله، فيخرج من مظلمته وقال ﷺ: **«من اغتاب أخاه المسلم حوّل الله**

وجهه إلى دبره يوم القيامة» وينبغي لصاحب الغيبة أن يستغفر الله تعالى قبل القيام من المجلس، وقبل أن تصل إلى المغتاب، لأنه إذا تاب صاحب الغيبة قبل وصولها إلى المغتاب تقبل توبته، أما إذا بلغته فلا يرتفع عنه الإثم بالتوبة ما لم يجعله في حل، وكذلك إذا زنى بامرأة لها زوج فبلغه الخبر لا يرتفع بالتوبة ما لم يجعله في حل، وأما ترك الصلاة والزكاة والصوم والحج فلا يرتفع بالتوبة، بل بقضاء الفائت من ذلك والله أعلم.

الباب الحادي والعشرون

في بيان الزكاة

قالَ الله تعالى: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٤]يعني يؤدون، وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة ولا يؤدي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يوم القيامة، صفحت لَهُ صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وظهره، أي ويوسع جسمه لها كلها وإن كثرت، كلما بردت أعيدت لَهُ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النَّار**» الحديث.

وقالَ تعالى: ﴿الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقوها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٤ ـ ٣٥]، وقال رسول الله ﷺ: «**ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون ظلمونا حقوقنا التي فرضت عليهم. فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأدنينكم، ولأباعدنُهم**» ثمَّ تلا رسول الله ﷺ عليهم: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٤ ـ ٢٥].

وروي أنّه ﷺ مر ليلة أسري به على قوم أدبارهم رقاع، وعلى أقبالهم رقاع يسرحون كما تسرح الأغنام إلى الضريع، والزقوم ورضف جهنم قال: «**من هؤلاء يا جبريل**» قال: هؤلاء الَّذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد.

وحُكِيَ أنَّ جماعة من التابعين، خرجوا لزيارة أبي سنان، فلما دخلوا عليه وجلسوا عنده، قال: قوموا بنا نزور جارنا مات أخوه، ونعزيه فيه قال محمد بن يوسف الفرياني: فقمنا معهُ ودخلنَا على ذلك الرجل، فوجدناه كثير البكاء والجزع على أخيه فجعلنا نعزيه

ونسليه، وهو لا يقبل تسلية ولا عزاء فقلنا لَهُ: أما تعلم أن الموت سبيل لا بد منه، قال: بلى، ولكن أبكي على ما أصبح وأمسى فيه أخي من العذاب، فقلنا لَهُ: قد أطلعك الله على الغيب؟.

قال: لا ولكن دفنته وسويت عليه التراب، وانصرف النَّاسُ جلستُ عندَ قبرِه وإذا صوت من قبره، يقول: آه أفردوني وحيداً أُقاسي العذاب، قد كنت أصوم وقد كنت أصلي، قال: فأبكاني كلامه، فنشبت التراب عنهُ لأنظر حاله، وإذا القبر يلع عليه ناراً، وفي عنقه طوق من نار فحملتني شفقة الأخوة، ومددت يدي لأرفع الطوق من رقبته فاحترقت أصابعي ويدي، ثمَّ أخرجَ إلينا يدهُ، فإذا هي سوداء محترقة، قال: فرددت عليهِ التراب، وانصرفت، فكيف لا أبكي على حاله وأحزن عليه؟، فقلنا فما كان أخوك يعمل في الدُّنيا.

قال: كان لا يؤدي الزكاة من ماله قال: فقلنا هذا تصديق قوله تعالى، ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٠] وأخوك عجل لَهُ العذاب في قبرِه إلى يوم القيامة، قال: ثمَّ خرجنا من عنده وآتينا أبا ذر صاحب رسول الله ﷺ، وذكرنا لَهُ قضية الرجل، وقلنا له يموت اليهودي والنصراني، ولا نرى فيهم ذلك. فقال: أولئك لا شك أنهم في النار، وإنما يريكم الله في أهل الإيمان لتعتبروا، قال الله تعالى: ﴿فمن أبصرَ فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٤].

وجاء في الخبر عن النبي ﷺ أنهُ قال: «**مانع الزكاة عند الله بمنزلة اليهود والنَّصارى، ومانع العشر عند الله تعالى بمنزلة المجوس، ومن يمنع الزكاة والعشر من ماله، ملعون على لسان الملائكة والنبي ﷺ، ولا تقبل شهادته**»، وقال: «**طوبى لَهُ إن أدَّى الزكاة والعشر، وطوبى لمن ليس عليه عذاب القبر، وحرم الله لحمه على النَّار وأوجبت لَهُ الجنة بغير حساب، ولا يصله عطش يوم القيامة**».

الباب الثاني والعشرون

في بيان الزنا

قالَ الله سبحانه وتعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾[سورة المؤمنون: الآية ٥] أي عن الفواحش وعما لا يحل لهم، كما قال الله تعالى: في آية أخرى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[سورة الأنعام: الآية ١٥١] يعني ما كبر، وهو الزِّنا، وما صغر، وهو القبلة واللمس والنظر كما جاء في الخبر عن سيد البشر ﷺ، أنه قال: «**اليدان تزنيان والرجلان تزنيان والعينان تزنيان**».

قال الله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾[سورة النور: الآية ٣٠]. الآية قد أمر الله تعالى الرجال والنِّساء بغض البصر عن الحرام، وبحفظ الفرج عن الحرام، وقد حرم الله الزنا في آيات كثيرة، قال الله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاما﴾[سورة الفرقان: الآية ٦٨] يعني عقاباً في النَّار، ويقال: وادياً في النار، ويقال جب في النّار إذا فتح فمه صاح أهل جهنم من خبث رائحته.

ورويَ عن بعض الصحابة أنَّه قال: إياكم والزنا فإنَّ فيه ست خصال ثلاثة في الدُّنيا، وثلاثة في الآخرة فأما التي في الدُّنيا فنقصان الرزق، وقطع الأجل وسواد الوجه، وأما التي في الآخرة فغضب الله وشدة الحساب ودخول النار.

ورويَ أن موسى عليه السَّلام قال: يا رب ما لمن زنا قال الله تعالى: ألبسه درعاً من النَّار، لو وضع على جبل شاهق لأصبحَ رماداً، وورد أن امرأة فاجرة أحب إلى إبليس من ألف فاجر، وفي المصابيح قال رسول الله ﷺ: «**إذا زنى العبد خرجَ منهُ الإيمان، وكانَ فوق رأسه كالظلة، فإذا خرجَ من ذلك العمل رجع إليه الإيمان**» في كتاب الاقناع قال النبي ﷺ: «**ما من ذنبٍ أعظم عندَ الله من نطفة يضعها الرجل في رحم من لا تحل لَهُ**»، واللواط أشد من الزنا، لما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنهُ قال: «**من لاط لا يجد رائحة الجنة، وإنَّ رائحتها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام**».

وحكيَ أنَّ عبد الله بن عمر كانَ جالساً على بابِ داره، فرأى غلاماً جميلاً، فدخلَ عليه عبد الله هارباً، وأغلق بابُه فلما مكث ساعة قال: هل ذهبت هذه الفتنة أم لا؟ فقالوا:

ذهبتْ فخرجَ من الدار، فقيل لَهُ، يا عبد الله ما فعل هذا في نفسك؟ أسمعت فيه شيئاً من رسول الله ﷺ؟ قال: النظر إليه حرام والكلام معهم حرام، ومجالستهم حرام، قال القاضي رحمه الله: سمعتُ بعضَ المشايخ يقول: إنَّ مع كل امرأة شيطاناً، ومع كل غلام ثمانية عشر شيطاناً.

ورويَ من قبّل غلاماً لشهوة عذَّبهُ الله تعالى في النَّار خمسمائة عام، ومن قبل امرأة بشهوة فكأنما زنى بسبعين بكراً، ومن زنى بالبكر فكأنما زنى بسبعين ألف ثيب.

وفي رونق التفاسير قال الكلبي: إن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس لعنه الله، فتصور لهم في صورة غلام أمرد جميل، ثمَّ دعاهم إلى نفسه، فنكحوهُ فصار ذلك عادة لهم في كل غريب، فأرسل إليهم لوط عليه السَّلام فنهاهم عن ذلك ودعاهم إلى عبادة الله، وتوعدهم على إصرار المعصية بعذاب الله، فقالوا له: أئتنا بعذاب الله إنْ كنت مِنَ الصادقين، فسأل لوط عليه السَّلام ربَّه، أن ينصره عليهم فقال: رب أنصرني على القوم المفسدين، فأمر الله السماء أنْ تمطرَ عليهم الحجارة مكتوب على كل حجر اسم من رمى به، وهو معنى قوله: ﴿مسومة عند ربك﴾[سورة هود: الآية ٨٣] أي معلمة أي عليها علامة في خزائن الله وفي حكمه.

وحكي أنَّ رجلاً تاجراً من قوم لوط، كان بمكة فجاء حجر ليصيبه في الحرم، فقالت الملائكة: للحجر ارجع من حيث جئت فإنَّ الرجل في حرم الله، فرجعَ، فوقف خارج الحرم أربعين يوماً بين السماء والأرض، حتى قضى الرجل تجارته، فلما خرجَ أصابهُ الحجر خارجاً من الحرم فأهلكه وكان لوط قد أخرج امراته معَهُ، ونهَى من تبعه أن لا يلتفت خلفُه إلاّ امرأة لوط فإنَّها لما سمعت هذا العذاب التفتت، وقالت: وا قوماه! فأدركها حجر فوقع على رأسِها فقتلها.

قالَ مجاهد: لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم، وقلعها من أركانها، ثمَّ أدخلَ جناحُه، ثمَّ حملَها على خوافي جناحه بما فيها، ثمَّ صَعِدَ بها إلى السماء، حتى سمع أهل السَّماء صياح ديكتهم، ونباح كلابهم، ثمَّ قلبها فكان أول ما سقط منها سرادقها، فلم يصب قوماً ما أصابهم، ثمَّ إنَّ الله طمَسَ على أعينهم، ثمَّ قلبت قريتهم، وهي خمس مدائن أكبرها سدوم، وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة يقالُ، كان فيها أربعة آلاف ألف.

الباب الثالث والعشرون

في صلة الرحم وحقوق الوالدين

قال تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [سورة النساء: الآية ١] أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقال تعالى: ﴿فهل عسيتم إنْ توليتم أنْ تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ [سورة محمد: الآيتان ٢٢ ـ ٢٣] وقال تعالى: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله بهِ أنْ يوصلَ ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧].

وقال تعالى: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمرَ الله به أنْ يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٥].

وأخرجَ الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله تعالى خلق الخلق إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم أما ترضينَ أنْ أصلَ من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى قال: فذاكَ لك»**، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: **«اقرؤوا ما تيسر إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾»**.

والترمذي وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد عن أبي بكر رضيَ الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من ذنب أجدر»** أي أحق أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم، والشيخان، لا يدخل الجنة قاطع.

قال سفيان: يعني قاطع رحم وأحمد، بسند رواته، ثقات إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس، وليلة جمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم والبيهقي، أنه أتاني جبريل عليه السَّلام فقال: هذه ليلة النصف من شعبان، ولله فيها عتقاء من النَّار بعدد شعر غنم كلب، لا ينظر الله فيها إلى مشرك، ولا إلى مشاحن، ولا قاطع رحم، ولا إلى مسبل، أي إزاره خيلاء ولا إلى عاق لوالديه ولا إلى مدمن خمر الحديث، وابن حبان وغيره ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر.

وأحمد مختصر وابن أبي الدُّنيا والبيهقي يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب، فيصبحوا قد مسخوا قردة، وخنازير وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح النَّاس، فيقولون خسف اللَّيلة ببني فلان، وخسف اللَّيلة بدار فلان خواص ولترسلن عليهم حجارة من السَّماء كما أرسلت على قوم لوط، وعلى قبائل فيها، وعلى دور، ولترسلن عليهم الريح العسيم التي أهلكت عاداً على قبائل فيها وعلى دور بشربهم الخمر ولبسهم الحرير، واتخاذهم القينات وأكلهم الربا، وقطيعتهم الرحم وخصلة نسيها، جعفر والطبراني في الأوسط.

عن جابر رضيَ الله عنه قال: خرجَ علينا رسول الله ﷺ ونحنُ مجتمعون فقال: «**يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم، فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم، وإياكم والبغي، فإنهُ ليس أسرع من عقوبة البغي، وإياكم وعقوق الوالدين، فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام والله لا يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زانٍ، ولا جار إزاره خيلاء إنما الكبرياء لله رب العالمين**».

والأصبهاني: كنَّا جلوساً عندَ رسول الله ﷺ فقال: «**لا يجالسنا اليوم قاطع رحم**»، فقامَ فتى من الحلقة، فأتى خالة لَهُ قد كان بينهما لبعض الشيء فاستغفر لها فاستغفرت لَهُ، ثمَّ عادَ إلى المجلس فقال النبي ﷺ: «**إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم**»، وهذا مؤيد لما روي أن أبا هريرة رضي الله عنه، كان يحدث عن رسول الله ﷺ فقال: أخرج على كل قاطع رحم إلاَّ قام من عندنا، فقام شاب إلى عمة له قد صرمها منذ سنين فصالحها فسألته عن السبب فذكره لها.

فقالت: ارجع واسأله لم ذاك فسأله فقال: لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم**» والطَّبراني: إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم، والطبراني بسند صحيح عن الأعمش قال: كان ابن مسعود رضي الله عنه جالساً بعد الصبح في حلقة فقال: أنشد الله قاطع رحم، لما قام عنا فإنَّا نريد أن ندعو ربنا، وأن أبواب السماء مرتجة، أي بضم ففتح والجيم مخففة مغلقة دون قاطع رحم.

والشّيخان: الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله، وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح واعترض تصحيحه بأنه منقطع ورواية وصلة.

وقالَ البخاري: خطأ عبد عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله عز وجل أنا الله وأنا الرحمٰن خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»** أو قال بتنه أي قطعته وأحمد بإسناد صحيح، أن من أربى الربا الاستغابة في عرض المسلم بغير حق، وأن هذه الرحم شجنة من الرَّحمٰن عزَّ وجل، فمن قطعها حرم الله عليه الجنة، وأحمد بإسناد جيد وقوي، وابن حبان في صحيحه أن الرحم شجنة من الرحمٰن، تقول: يا رب إني قطعت يا رب إني أسيء إلي يا رب، إني ظلمتُ يا رب فيجيبها إلى أن ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعتك، والشجنة بكسر أوله المعجم وضمه وإسكان الجيم القرابة المشتبكة كاشتباك العروق، ومعنى من الرحم أي مشتق لفظها من لفظ اسمه الرحمٰن.

كما يأتي في الحديث على الأثر والبزار بإسناد حسن الرحم حجنة متمسكة بالعرش تكلم بلسان ذلق اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني. فيقول: الله تباركَ وتعالى: أنا الرحمٰن الرحيم وإني شققت الرحم من اسمي فمن وصلها وصلته، ومن بتكها بتكته، الحجنة بفتح الحاء المهملة والجيم وتخفيف النونِ صنارة المغزل أي الحديدة القعفاء التي يعلق بها الخيط، ثم يفتل الغزل والبتك القطع والبزار ثلاث متعلقات بالعرش تقول: الَّلهم إني بك فلا أقطع أقطع والأمانة تقول: الَّلهم إني لك فلا أخان، والنعمة تقول: الَّلهم إني بكَ فلا أكفر، والبزار واللفظ لَهُ البيهقي الطَّابع معلق بقاعة العرش، فإذا اشتكت الرحم، وعمل بالمعاصي، واجترىء على الله تعالى بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلاِ يعقل بعد ذلك شيئاً.

وأخرج الشيخان: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، وأخرجا أيضاً من أحب أن يبسط لهُ في رزقِه، وينسأ أي يؤخر وهو بضم أوله وتشديد ثالثه المهمل وبالهمز له في أثره أي أجله فليصل رحمه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«من سره أنْ يبسطَ لَهُ في رزقه، أو ينسأ في أثره أي أجله فليصل رحمه»**.

رواه البخاري والترمذي ولفظه، قال: تعلموا من أنسابكم ما تصلون بهِ أرحامكم، فمن صلة الرحم محبة في الأهل مثراه في المال منسأة في الأثر، أي بها الزيادة في العمل، وعبد اللّه ابن الإمام أحمد في زوائد المسند والبزار بإسناد جيد والحاكم من سره أن يمدَ لَهُ

في عمره، ويرفع عنه ميتة السوق فليتق الله، وليصل رحمه، والبزار بإسناد لا بأس به، والحاكم وصححه أنه ﷺ قال: «**مكتوب في التوراة من أحب أن يزاد في عمره، وفي رزقه فليصل رحمه**»، وأبو يعلى أو الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر، ويدفع بهما المكروه والمحذور، وأبو يعلى بإسناد جيد عن رجل من خثعم، قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه، فقلت: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟، قال: «**نعم**».

قال: قلتُ: يا رسول الله أي الأعمال أحبُّ إلى الله؟، قال: «**الإيمان بالله**». قلت: يا رسول الله ثم مه؟، قال: «**ثم صلة الرحم**» قلت: يا رسول الله أي الأعمال أبغض إلى الله؟، قال: «**الإشراك بالله**»، قلت: يا رسول الله ثم مه؟، قال: «**ثمَّ قطيعة الرحم**» قلت: يا رسول الله ثم مه؟، قال: «**ثمَّ الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف**».

والبخاري ومسلم واللفظ لَهُ عرض أعرابي لرسول الله ﷺ، وهو في سفر فأخَذَ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله أو يا محمد أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النّار فكفَّ النبي ﷺ ثمَّ نظر في أصحابه ثمَّ قال: «**لقد وفق هذا أو لقد هدى**»، قال: كيف قلت فأعادها فقال النبي ﷺ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم**» دع النّاقة.

وفي رواية وتصل ذا رحمك فلما أدبر، قال رسول الله ﷺ: «**إنْ تمسك بما أمرته به دخل الجنة**»، والطبراني بإسناد حسن أن الله ليعمر بالقوم الديار، وينمي لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله، قال: «**بصلتهم أرحامهم**» وأحمد بسند رواته ثقات إلاَّ أن فيه انقطاعاً، أنه من أعطى الرفق فقد أعطى حظه من خير الدُّنيا لآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمرن الديار ويزدن الأعمار، وأبو الشيخ وابن حبان والبيهقي يا رسول الله من خير الناس؟، قال: «**أتقاهم للرب وأوصلهم للرحم، وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر**» والطبراني وابن حبان في صحيحه، واللفظ لهُ عن أبي ذر رضي الله عنهُ، قال: أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير أوصاني أن لا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أنظر إلى من هو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدنو منهم، وأوصاني أن أصل رحمي، وإن أدبرت، وأوصاني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأوصاني أن أكثر من لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة والشيخان، وغيرهما عن ميمونة رضيَ الله عنها أنها أعتقت وليدة لها، ولم تستأذن النبي ﷺ.

فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه، قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي قال: «**أو فعلت**»، فقالت: نعم، قال: «**أما أنك لو أعطيتها أخوالك، كان أعظم لأجرك**»، وابن حبان والحاكم أتى النبي ﷺ رجل فقال: إني أذنبت ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟، قال: «**هل لك من أم؟**»، قال لا. قال: «**وهل لك من خالة**»، قال: نعم. قال: «**فبرها**» والبخاري وغيره ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها والترمذي.

وقال حسن: لا تكونوا إمعة تقولون إنْ أحسن النَّاس حسناً، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إنْ أحسن النَّاس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن لا تظلموا والإمعة بكسر ففتح وتشديد فمهملة هو الذي لا رأي لَهُ فهو يتبع كل واحد على رأيه ومسلم يا رسول الله أن لي قرابة أصل، ويقطعونني وأحسن إليهم، ويسيئون إلي وأحلم عليهم ويجهلون علي.

فقال: إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملل، أي بفتح وتشديد الرماد الحار ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك، والطبراني وابن خزيمة في صحيحه والحاكم، قال: صحيح على شرط مسلم أفضل الصدقة صدقة على ذي الرحم الكاشح، أي الذي يضمرُ عداوته في كشحه، أي حصره كناية، عن باطنه، وهو معنى قوله ﷺ: «**وأن تصل من قطعك**» والبزاز والطبراني والحاكم وصححه، واعترض بأن فيه واهياً ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته.

قالوا: وما هي يا رسول الله، قال: «**تعطي من حرمك، وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك فإذا فعلت ذلك يدخلك الجنة**»، وأحمد بإسنادين أحدهما رواته ثقات عن عقبة بن عامر رضيَ الله عنهُ قال: لقيت رسول الله ﷺ فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال.

فقال: «**يا عقبة صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك**» زاد الحاكم ألا ومن أراد أن يمد في عمره ويبسط في رزقه فليصل رحمه، والطبراني بسند محتج به ألا أدلك على أكرم أخلاق الدُّنيا والآخرة أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وأن تعفو عمن ظلمك، والطبراني أن أفضل الفضائل أنْ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك، والبزاز ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات.

وفي رواية للطبراني ألا أُنبئكم بما يشرف الله به البنيان، ويرفع به الدرجات، قالوا: نعم يا رسول الله قال: «**تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من**

حرمك، وتصل من قطعك» وابن ماجه أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم وأسرع الشَّر عقوبة البغي وقطيعة الرحم والطبراني ما من ذنب أجدر أن يجعل الله لصاحبه العقوبة في الدُّنيا مع ما يدخر لَهُ في الآخرة مع قطيعة الرحم والخيانة والكذب، وإن أعجل البر ثواباً لصلة الرحم حتى أن أهل البيت ليكونن فجرة فتنموا ويكثر عددهم إذا تواصلوا.

الباب الرابع والعشرون

في برِ الوالدين

أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قالت: سألت رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «**الصلاة لوقتها**» قلت: ثمَّ أي؟ قال: «**برُّ الوالدين**»، قلت: ثمَّ أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» ومسلم وغيره لا يجزي ولد والده إلاّ أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه ومسلم.

أقبلَ رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، قال: «**فهل من والديك أحدٌ حي؟**»، قال: نعم. بل كلاهما حي، قال: «**فتبتغي الأجر من الله**»، قال: نعم، قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**» وأبو يعلى والطبراني بسند جيد.

أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه، قال: «**هل بقي من والديك أحد؟**»، قال: أمي، قال: «**فاسأل الله في برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج، ومُعتمر ومُجاهد**» والطبراني يا رسول الله: إني أريد الجهاد في سبيل الله، قال: «**أمك حية؟**»، قال: نعم، قال ﷺ: «**إلزم رجلها فثم الجنة**» وابن ماجة يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟ جنتك ونارك؟ وابن ماجة والنِّسائي، واللفظ لَهُ والحاكم، وصححه يا رسول الله إني أردت أن أغزو، وقد جئتُ أستشيرك، فقال: «**هل لك من أم؟**»، قال: نعم، قال: «**الزمها فإنَّ الجنَّة عند رجليها**».

وفي رواية صحيحة: «**ألك والدان؟**»، قال: نعم، قال: «**الزمهُما فإنَّ الجنَّة تحت أرجلهما**»، والترمذي، وصححه عن أبي الدَّرداء رضي الله عنهُ أنَّ رجلاً أتاهُ، فقال: إنَّ لي امرأة وأنَّ أمي تأمرني بطلاقها، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول، «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإنْ شئتَ فضع ذلك الباب أو احفظه**».

وابن حبان في صحيحه أنَّ رجلاً أتى أبا الدَّرداء، فقال إنَّ أبي لم يزلْ بي حتى زوجني، وأنه الآن يأمرني بطلاقها، قال: ما أنا بالذي أمرك أن تعق والديك، ولا بالذي آمرك أن تُطلق زوجتك، غير أنك إنْ شئتَ حدثتك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعتُه يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ على ذلك إن شئت أودع**»، قال: واحسب عطاء، قال فطلقها.

وأصحاب السُّنن الأربعة وابن حبان في صحيحه. وقال الترمذي حديث حسن صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال: كان تحتي امرأة أحبها، وكان عمر يكرهها، فقال لي: طلقها، فأبيت فأتى عمر رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال لي رسول الله ﷺ: «**طلقها**».

وأحمد بسند صحيح: «**من سره أنْ يمدَ لَهُ في عمرِه ويزاد في رزقِه فليبر والديه)طوبى لَهُ زاد الله في عمره**»، وابن ماجة وابن حبان في صحيحه، واللفظ لهُ والحاكم وصححه أن الرجل ليحرم الرزق بالذنب، ويصيبه ولا يرد القدر إلاَّ الدعاء، ولا يزيد في العمر إلاَّ البر، وفي رواية للترمذي.

وقال حسن غريب: لا يرد القضاء إلاَّ الدعاء، ولا يزيد في العمر إلاَّ البر والحاكم وصححه: «**عفوا عن نساء النَّاس تعف نساؤكم، وبروا آباؤكم تبركُم أبناؤكُم، ومن أتاهُ أخوه متنصلاً فليقبل ذلك محقاً كان أو مُبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض**»، والطبراني بإسناد حسن «**بروا أباؤكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم**».

ومسلم رغمَ أنفِه ثمَّ رغمَ أنفِه، ثم رغم أنفه، أي لصق بالرعام، وهو التراب من الذل قيل من يا رسول الله؟، قال: من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثمَّ لم يدخل الجنة أولاً، يدخلانه الجنة والطبراني بأسانيد أحدها حسن. صعد النبي ﷺ المنبر فقال: «**آمين آمين آمين**» ثمَّ قال: «**أتاني جبريل عليه السَّلام**» فقال: يا محمد من أدرك أحد أبويه، ثمَّ لم يبرهما فمات فدخل النَّار فأبعده الله قل: آمين فقلت: آمين، فقال: يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر لهُ، فأدخل النَّار فأبعده الله قل آمين فقلت: آمين، قال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النَّار فأبعده الله قل آمين. فقلت: آمين.

ورواه ابن حبان في صحيحه إلاَّ أنه قال فيه: من أدرك أبويه، أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخلَ النَّار، فأبعده الله، قل آمين. فقلت آمين ورواه الحاكم وغيره، وقال في آخره:

فلما رقيت الثَّالثة، قال: بعد من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قلت آمين.

ورواه الطبراني وفيه من أدرك والديه أو أحدهما فلم يبرهما دخلَ النَّار فأبعده الله، واستحقه قلت آمين وأحمد من طرق أحدها حسنٍ من أعتق رقبة مسلمة فهي نداؤه من النَّار، ومن أدرك أحد والديه، ثمَّ لم يغفر لَهُ فأبعده الله زاد في رواية واستحقه، والشيخان يا رسول الله من أحق النَّاس بحسنِ صحابتي؟ قال: «**أمك، ثمَّ من؟ قال أمك، ثم من؟ قال: أبوك**».

والشيخان عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: قدمت على أمي وهي راغبة عن الإسلام أو فيم عندي أفأصل أمي، قال: «**نعم صل أمك**». وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم رضا الله في رضا الوالد أو قال: الوالدين سخط الله في سخط الوالد أو قال الوالدين.

وفي رواية الطبراني طاعة الله في طاعة الوالد أو قال: الوالدين ومعصيته في معصية الوالد أو قال: الوالدين وفي أخرى للبزار، رضا الرب تبارك وتعالى في رضا الوالدين، وسخط الرب تبارك وتعالى في سخط الوالدين، والترمذي واللفظ لهُ وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما أتى النبي ﷺ رجل فقال: إني أذنبت ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ قال: «**هل لكَ من أم؟**» قال: لا، «**فهل لك من خالة**»، قال: نعم، قال: «**فبرها**» وأبو داود وابن ماجة يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟، قال: «**نعم الصَّلاة عليهما**» (رأي الدعاء لهما) والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلاَّ بهما وإكرام صديقهما.

ورواه ابن حبان في صحيحه بزيادة، قال الرجل: ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه، قال: فاعمل به ومسلم أتى عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما لقيه رجل من الإعراب بطريق مكة فسلم عليه عبد اللَّه بن عمر، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه.

قال ابن دينار: فقلنا أصلحكم الله إنهم الإعراب وهو يرضون باليسير، فقال عبد اللَّه ابن عمر أن أبا هذا كان ودود لعمر بن الخطاب، وأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر الصلة صلة الولد أهل ود أبيه**» وابن حبان في صحيحه عن أبي بردة رضي الله عنه،

قال: قدمت المدينة فأتاني عبد اللّه بن عمر، فقال: أتدري لِمَ أتيتك؟، قلت: لا، قال: فإني سمعت رسول الله يقول: **«من أحب أن يصلَ أباهُ في قبرِه فليصل إخوان أبيه بعده، وأنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذلك»**.

وفي حديث الصحيحين وغيرهما المشهور بروايات متعددة، إن ثلاثة نفر ممن كان قبلنا خرجوا يتماشون ويرتادون لأهليهم، فأخذهم المطر حتى آووا إلى غار في الجبل، فانحدرت على قمته صخرة فسدته، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلاَّ أن تدعوا بأصلح أعمالكم.

وفي رواية فقال: بعضهم لبعض أنظروا أعمالاً عملتموها لله عز وجل صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها، وفي أخرى فقال بعضهم لبعض: عفا الأثر ووقعَ الحجر، ولا يعلم بمكانكم إلاَّ الله فادعوا الله بأوثق أعمالكم، فقال أحدهم: اللهم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قلبهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي طلب شجرة يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللّهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنَّا ما نحن فيه من الصخرة، ففرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج.

وفي رواية ولي صبية صغار كنت أرعى، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي، وأنه نأى بي طلب شجرة يوماً فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقعدت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية، والصبية يتضاغون عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لها فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى رأوا منها السَّماء، وذكر الآخر عفته عن الزنا بابنة عمه، والآخر تنميته لمال أجر فانفرجت عنهم كلها وخرجوا يتماشون.

الباب الخامس والعشرون

في الزكاة والبخل

قال الله تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾[سورة آل عمران: الآية ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وويل للمشركين الَّذين لا يؤتون الزكاة﴾[سورة فصلت: الآيتان ٦ ـ ٧]، سماهم المشركين، وقال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله إلاَّ مثل، لَهُ يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق به عنقه**».

وقالَ رسول الله ﷺ: «**يا معشر المهاجرين خمس خصال إن ابتليتم بهن، ونزلت بكم أعوذ بالله أنْ تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها إلاَّ فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلاَّ أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة وجور السلطان، ولمْ يمنعوا زكاة أموالهم، إلاَّ منعوا المطر من السَّماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلاَّ سلط عليهم عدو من غيرهم، فيأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلاَّ جعل الله بأسهم بينهم**».

وقال ﷺ: «**إنَّ الله يبغض البخيل في حياته، والسَّخي عند موته**» وقال ﷺ: «**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق**»، وقال ﷺ: «**أقسم الله تعالى أن لا يدخل الجنة بخيل**» وقال ﷺ: «**إياكم والبخل، فإن البخل دعا قوماً فمنعوا زكاتهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم، ودعاهم فسفكوا دماءهم**»، وقال ﷺ: «**خلق الله اللؤم فحفه بالبخل والمال**».

وسُئِلَ الحسن رضي الله عنه، قال: هو أن يرى الرجل ما أنفق تلفاً، وما أمسك شرفاً، وأصل البخل حب المال، وطول الأمل، وخوف الفقر، وحب الولد. ففي الحديث الولد مجبنة مبخلة، ومن النَّاس من لا يسمح بأداء زكاة ماله، ولا بالإحسان إلى نفسه، وعياله، وإنَّما لذته ورغبته في رؤية دنانيره وكونها في قبضته وهو عالم أنَّه يموت وفي مثله يقول الشاعر:

أأخـي إن مـن الـرجـال بهيمـة — في صورة الرجل اللبيب المبصر
فطـن بكـل مصيبـة فـي مـالـهِ — فـإذا أصِيـبَ بـدينِـه لـم يشعـرْ

وقال آخر:

البخـل داء دوى لا يليـق بـذي — مـروءة ولا عقـل ولا ديـن
من آثر البخل عن وفر وعن جدة — فقد لعمري أضحى وهو مغبون
يا بؤس من منع الدارين حقهما — فبـاع دنيـاه بعـد الـديـن بـالـدون

وقال آخر:

إذا المال لم ينفع صديقاً ولم يصب — قـريبـاً ولـم يجبـر بـه حـال معـدم
فعقبـاه أن تحتـازه كـف وارث — وللبـاخـل المـورث عقبـى التنـدم

وقال بشر لقاء البخيل كرب، والنظر إليه يقسي القلب، وكانت العرب تتعاير بالبخل والجبن وقال الشاعر:

أنفق ولا تخش إقلالاً فقد قسمت — على العباد من الرحمٰن أرزاق
لا ينفـع البخـل مـع دنيـا موليـة — ولا يضـر مـع الإقبـال إنفـاق

وقال آخر:

أرى الناس خلان الجواد ولا أرى — بخيـلاً لـه فـي العـالميـن خليـل
وإني رأيت البخل يزري بأهله — فـأكـرمـت نفسـي أن يقـال بخيـل

وكفى بالبخيل خسة أن يجمع لغيره، ويحتمل معرة ضيره، ولا ينال لذة وفره وخيره وفي مثله يقول وكيع:

لئيـم لا يـزال يلـم وقـرا — لـوارثـه ويـدفـع عـن حمـاه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو — فـريستـه ليـأكلهـا سـواه

وفي الحكم المنثورة بشر مال البخيل بحادث، أو وارث قال أبو حنيفة رحمه الله: لا أرى أن أعدل بخيلاً، لأنَّ البخيل يحمله على الاستقصاء، فيأخذ فوق حقه أو يغبن فمن كان هذا لا يكون مأمون الأمانة. ولقيَ يحيى عليه السَّلام إبليس فقال له: يا إبليس أخبرني بأحب النَّاس إليك، وأبغض النَّاس إليك، قال: أحبُ النَّاس إليَّ المؤمن البخيل، وأبغض الناس إليَّ الفاسق السَّخي، قال: لماذا؟، قال: لأن البخيل قد كفاني

بخله، والفاسق السَّخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله، ثم ولى وهو يقول: لولا أنك يحيى لما أخبرتك.

الباب السادس والعشرون

في الأمل

قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم اثنتان طول الأمل، واتباع الهوى، وأن طول الأمل يُنسيَ الآخرة، واتباع الهوى يَصُدُّ عن الحق»، وقال ﷺ: «أنا زعيم لثلاثة بثلاثة للمُكَبِّ على الدنيا، والحريص عليها والشَّحيح بها بفقر لَا غِنَىَ بعده، وشغل لا فراغ منه، وَهَمٌ لا فَرحَ معه»، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أنهُ أشرفَ على أهل حمص، فقال: ألا تستحيون تبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، وتجمعون ما لا تأكلون، إنَّ الذين كانوا قبلكم بنوا شديداً، وجمعوا كثيراً وأملوا بعيداً فأصبحت مساكنهم قبوراً، وآمالهم غروراً وجمعهم بواراً، وقال علي بن أبي طالب: لعمر رضي الله عنهما، إذا أردت أن تلقى صاحبيك، فارفع قميصك، واخصف نعلك، وأقصر أملك وكل دون الشبع.

وأوصى آدم ابنه شيئاً عليهما السَّلام بخمسة أشياء، وأمره أن يوصي بها أولاده من بعدهِ، أولها قال لهُ: قُلْ لأولادك لا تطمئنوا للدنيا، فإني اطمأنيت بالجنة الباقية فأخرجني الله منها.

والثاني قُلْ لهم لا تعملوا بهوى نسائكم، فإني عملت بهوى امرأتي، وأكلت من الشَّجرة فلحقتني النَّدامة.

والثالثُ: قُلْ لهم كل عمل تريدونه فانظروا عاقبته، فإني لو نظرت عاقبة الأمر لم يصبني ما أصابني.

والرابعُ: إذا اضطربت قلوبكم من شيء فاجتنبوه، فإني حين أكلت من الشَّجرة اضطربَ قلبي، فلم أرجع فلحقني النَّدم.

والخامسُ: استشيروا في الأمور، فإني لو شاورت الملائكة، لم يصبني ما أصابني.

وقالَ مجاهد: قال لي عبد اللّه بن عمر: إذا أصبحت، فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصَّباح، وخُذ من حياتك قبل موتك، ومن صحتك قبل سقمك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً، وقال ﷺ لأصحابه: «**أيريد كلكم أن يدخلَ الجنةِ**»، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**قصروا الأمل، واستحيوا من الله حق الحياء**»، قالوا كلنا نستحي من الله تعالى، قال: «**ليسَ ذلك بالحياء من الله تعالى، أن تذكروا المقابر والبلى، وتحفظوا الجوف وما وعى والرأس وما حوى، ومن يشتهي كرامة الآخرة يدع زينة الدُّنيا، فهنالك استحياء العبد من الله حق الحياء، وبها يصيب العبد ولاية الله تعالى**».

وقال ﷺ: «**أول صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل**».

وروي عن أم المنذر أنها قالت: طلعَ رسول الله ﷺ ذات عشية إلى النَّاس، فقال: «**أيُّها النَّاس أما تستحيون من الله**»، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟، قال: «**تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون**».

وعن أبي سعيد الخدري قال: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر، أنَّ أسامة لطويل الأمل**» والذي نفسي بيده ما طرقت عيناي إلاّ ظننت أن شفوي لا يلتقيان، حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه، حتى أقبضْ، ولا لقمت لقمة إلاَّ ظننت أني لا أسيغها، حتى أغص بها من الموت ثمَّ، قال: يا بني آدم إنْ كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيدهِ إنَّما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين.

وعن ابن عباس رضيَ الله عنهما أن رسول الله ﷺ: كان يخرج بهريق الماء فيتمسح بالتراب، فأقول له يا رسول الله: إن الماء منك قريب، فيقول: ما يدر بي لعلي لا أبلغه، ورويَ أنه ﷺ أخذَ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه، والآخر إلى جنبه وأما الثَّالث فأبعده، فقال: هل تدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: هذا الإنسان وهذا الأجل، وذاك الأمل يتعطاه ابن آدم، ويختجله الأجل دون الأمل.

وقيل: بينما عيسى عليه السَّلام جالس، وشيخ يعملُ بمسحاة يثير بها الأرض، فقال: عيسى اللَّهم انزع منهُ الأمل، فوضعَ الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال: عيسى اللَّهم أردد عليه الأمل، فقام فجعل يعمل. فسألهُ عيسى عن ذلك، فقال:

بينما أنا أعمل، إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير، فألقيت المسحاة واضطجعت، ثمَّ قالت نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقمت إلى مسحاتي.

الباب السابع والعشرون

في ملازمة الطاعة وترك الحرام

معنى الطَّاعة القيام بفروض الله تعالى، والاجتناب لمحارمه، والوقوف عند حدوده، قال مجاهد: في قول الله عز وجل ﴿ولا تنس نصيبك من الدُّنيا﴾[سورة القصص: الآية ٧٧] هو أنْ يعملَ العبد بطاعة الله تعالى، وأعلم أن أصل الطاعة العلم بالله، والخوف من الله، والرجاء في الله، والمراقبة لله، فإذا تجرد العبد عن هذهِ الخصال لم يدر حقيقة الإيمان، لأنهُ لا تصح الطَّاعة لله إلاَّ بعد العلم به، والإيمان بوجوده خالقاً عالماً قادراً لا يحيط به علم ولا يتصوره، وهم ليس كمثله شيء، وهو السَّميعُ البصير، قال أعرابي: لمحمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم، هل رأيت الله حين عبدته؟ قال: لم أكن أعبد من لم أره، قال: كيف رأيته؟، قال: لم تره الأبصار بمشاهدةِ العيان، لكن رأته القلوب بحقيقةِ الإيمان، لا يدرك بالحواس، ولا يشبهُ بالنَّاس، معروف بالآيات منعوت بالعلامات، لا يجوز في الفضيات ذلك الله لا إله إلاَّ هو رب الأرض والسمٰوات فقال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

سُئِل بعض العارفين عن علم الباطن، فقال: هو سر من أسرار الله يقذفه في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً.

رُوي أن كعب الأحبار، قال: لو أن بني آدم بلغوا من اليقين مثقال حبة من عظمة الله عز وجل، لمشوا على الماء والريح. اهـ. فسبحان من جعل الإقرار بالعجز عن إدراك معرفته إيماناً، كما جعلَ إقرار المنعم عليه بالعجز عن إدراك شكره شكراً قال محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
ما منهما إلا له فيه نعمة ... تضيق لها الأوهام والبر والبحر

وإذا ثبت العلم بالربوبية تعين الإقرار بالعبودية، وإذا تقرر الإيمان في القلب وجبت الطاعة للرب، والإيمان نوعان ظاهر وباطن، فالظَّاهر النَّطقُ باللسان، والباطن الاعتقاد بالقلب، والمؤمنون متباينون في منازل القرب، متفاوتون في درجات الطَّاعة والإيمان، جامع لهم بقدر حظ كل واحد منهم من الموهبة، وتمكنه من علو المرتبة في الإخلاص لله، والتوكل عليه، والرضا بحكمه، فإما الإخلاص، فأن لا يطلب العبد بما يعمل جزاء من الخالق، والله خلقكم وما تعملون، فإنْ كانت الطَّاعة رجاء للمثوبة وخوفاً من العقوبة، فذلك العبد لا يكون كامل الإخلاص فإنهُ لنفسهِ سعى.

ورويَ أنَّه ﷺ قال: «**لا يكن أحدكم كالكلب، السُّوء إنْ خاف عمل ولا كالأجير السُّوء، إن لم يعط أجر لم يعمل**»، وقال تعالى: ﴿ومن النَّاس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خيراً اطمأن به وإن أصابتهُ فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾[سورة الحج: الآية ١١]. وإنَّما تعينت علينا عبادته، ووجبت طاعته مما سبق لَهُ الفضل علينا وتقدم لَهُ من الإحسان إلينا، فضلاً كونه أمرنا بها ليرتب الجزاء عليها فضلاً، ويجازي من ضلَّ عنها عدلاً.

وأما التوكل فهو الاعتماد على الله سبحانه عند الحاجة، والاستناد إليهِ مع الضرورة، والثقة به عند النازلة مع سكون النفس، وطمأنينة القلب، فالمتوكلون على ربهم، علموا أنه المقدر والأسباب تحت حكم الخالق المدبر، لا يركنون لآباء، ولا أبناء ولا أموال ولا صنائع بل صرفوا بهديه جميع الأمور إليه، ولم يعتمدوا في حال من الأحوال إلاَّ عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، وأما الرضا فهو طيب النفس بما يجري به المقدور، قال: بعض العلماء أقرب النَّاس إلى الله أرضاهم بما قسم لهم ومن كلام الحكماء، ربَّ مسرة هي الدَّاء ومرض هو الشفاء كما قال:

كـم نعمـة مطـويـة	لـك بيـن أنيـاب النـوائـب
ومسـرة قـد أقبلـت	من حيث ترتقب المصائب
فـاصبـر علـى حـدثـان دهـر	ك فـالأمـور لهـا عـواقـب
ولكـل كـرب فـرجـة	ولكـل خـالصـة شـوائـب

وحسبنا قول الله عز وجل: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾[سورة البقرة: الآية ٢١٦] واعلم أنه لن يستكملَ العبدُ طاعة ربهِ إلاَّ برفض الدُّنيا. وفي الحكم أبلغ المواعظ ما لم يحجبها عن القلب حاجب، وهذه الحجب إنَّما هي عوارض الدُّنيا، ومن

كلامهم الدُّنيا ساعة فاجعلها طاعة، قال أبو الوليد الباجي:

إذا كنــت أعلــم يقينــاً ... بـأن جميـع حيـاتـي كسـاعـة
فلـم لا أكـون ضنينـاً بهـا ... وأجعلهـا فـي صـلاح وطـاعـة

وقال رجل لرسول الله ﷺ: إني أكره الموت، قال: «ألك مال؟» قال: نعم، قال: «قدم مالك فإن المرء عند ماله».

وروي عن عيسى عليه السَّلام أنَّه قال: البر في ثلاثة في النطق والنظر والصمت، فمن كان منطقه في غير ذكر الله فقد لغا، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها، وترك الدُّنيا يكون بأطراح الفكرة في أحوالها، وترك التمني بلذاتها فإن الفكرة تبعث الإرادة لتعلق النفس بالفكرة وليحذر من إرسال النظرة فيما لا يحل، فإنه سهم صائب وسلطان غالب.

قال عليهِ الصّلاة والسَّلام: النظر سهم من سهام إبليس فمن تركها مخافة الله تعالى أعقبه إيماناً يجعل طعمه في قلبه. من كلام الحكماء من أطلق طرفه كثر أسفه إدمان النَّظر يكشف الخبر، ويفضح البشر، ويطول بهِ المكث في سقر، احفظ عينيك فإنك إنْ أطلقتهما أوقعتاك في مكروه، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك.

قيل لأفلاطون: أيهما أشد ضرراً بالقلب السمع أم البصر؟، قال: هما للقلب كالجناحين للطائر لا يستقل إلاَّ بهما، ولا ينهض إلاَّ بقوتهما، وربما قص أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة، وقال محمد بن ضوء: كفى بالعبد نقصاناً عند الله وضعة عند ذوي العقول أنْ ينظرَ إلى كل ما يسنح لهُ.

رأى بعض الزهاد رجلاً يضحك إلى غلام، فقال لهُ: يا خرب العقل والقلب، ويا خرب الطرف، أما تستحي من كرام كاتبين، وملائكة حافظين يحفظون الأفعال، ويسكتون الأعمال، وينظرون إليك ويشهدون عليك بالبلاء الظاهر، والغل الدخيل المخامر الذي أقمت نفسك فيه مقام من لا يبالي، من وقف عليه ونظر من الخلق إليه وللقاضي الأرجاني:

تمتعـا يـا نـاظـري بنظـرة ... فـأوردتمـا قلبـي أشـر المـوارد
أعينـاي كفـا عـن فـؤادي فـإنـه ... من البغي سعي اثنين في قتل واحد

وقال علي كرم الله وجهه: العيون مصائد الشّيطان، والعين أنفذ الجوارح سرعة، وأشدها صرعة فمن اتّبع جوارحه نفسه في طاعة ربه، فقد وصل أمله، ومن اتبع

جوارحه نفسه في نيل لذته فقد أحبط عمله وأنشدوا:

إذا ما صفت نفس المريد للطاعة ... ولما تشبها للمعاصي شوائب
واتبعها فعل الجوارح كلها ... فتلك عليه أنعم ومواهب
تلقنه في دار الخلود كرامة ... إذا جب للمعاصي سنام وغارب

قال عبد اللّه بن المبارك: أصل الإيمان التصديق بما جاءت به الرسل، فمن صدق القرآن خرجَ إلى العمل به، ونجا من الخلود في النّار، ومن اجتنب المحارم خرجَ إلى التوبة، ومن أخذ القوت من حله خرج إلى الورع، ومن أدَّى الفرائض صح إسلامه، ومن صدق لسانه سلم من التبعات، ومن ردَّ المظالم نجا من القصاص، ومن أتى بالسّنن زكت أعماله، ومن أخلص لله قبل عمله.

ورويَ عن أبي الدرداء أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أوصني. قال لَهُ: **«اكتسب طيباً واعمل صالحاً واسأل الله رزق يوم ليوم، وعد نفسك من الموتى واحذر من الاعجاب بالعمل فإنه من أعظم الآفات، وأحبط للأعمال، فإنَّ المعجب بعمله ممتن على ربه، وما يدريه أقَبِلَ منهُ أمْ ردَّ عليه رب معصية، أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزًّا واستكباراً، وليحذر أيضاً من الرياء»**.

قيل في قوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الرياء ما لم يكونوا يحتسبون﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] قيل عملوا أعمالاً كانوا يرونها في الدُّنيا من الحسنات، فبدت لهم يوم القيامة من السيئات، وكان بعض السَّلف إذا قرأ هذه الآية قال: ويل لأهل الرياء، وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠] أي لا يظهرها رياء ولا يخفيها حياء، روي عن ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن، ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيهِ إلى الله ثمَّ توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨١] قال محمد بن بشير:

مضى أمسك الأدنى شهيداً معدلاً ... ويومك هذا بالفعال شهيد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءة ... فثن بإحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك إلى غد ... لعل غداً يأتي وأنت فقيد

وقال غيره:

تعجل الذنب بما تشتهي ... وتأمل التوبة في قابل
والموت يأتي بعد ذا غفلة ... ما ذاك فعل الحازم العاقل

وقالَ داود لسليمان عليهما السَّلام: يستدلُ على تقوى المؤمن بثلاث حسنه التوكل فيما لم ينلْ، وحسن الرضا فيما نال، وحسن الصبر على ما قد فات، وفي بعض الحكم المنثورة من صبر على البلاء وصل إلى الوفاء قال:

عليك بالصَّبر إن نابتك نائبة ... من الزمان ولا تركن إلى الجزع
وإن تعرضت الدُّنيا بزينتها ... فالصَّبر عنها دليل الخير والورع
فجاهد النفس قسراً فيهما أبداً ... تلق الذي ترتجيه غير ممتنع

وقال آخر:

الصَّبر مفتاح ما يرجى ... ولم يزل دائماً يعين
فاصبر وإن طالت الليالي ... فربما ساعد الحزون
وربَّما نيل باصطبار ... ما قيل هيهات لا يكون

وقال آخر:

الصَّبر أوثق عروة الإيمان ... ومجنة من نزغه الشيطان
الصَّبر فيه عواقب محمودة ... والطَّيش فيه عواقب الخسران
فإذا لقيت من الزمان ملمة ... وكذاك فينا عادة الأزمان
فتذرع الصَّبر الجميل تيقناً ... إن التصبر رائد الرضوان

والصَّبر لَهُ فروع، صبر على الفرائض بالمواظبة عليها بكمالها في أحب أوقاتها وصبر على النوافل، وصبر على أذى الأصحاب والجار، وصبر على الأمراض، وصبر على الفقر، والصبر على المعاصي، وعن الشهوات، وعن الشبهات، وعن فصول جميع جوارح البدن وغير ذلك.

الباب الثامن والعشرون

في بيانِ ذكر الموت

قالَ رسولُ الله ﷺ: **«كثروا من ذكر هازم اللذات»**، معناه نغصوا بذكرِهِ اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى. وقال ﷺ: **«لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم، ما أكلتم منها سميناً»**، وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟، قال: **«نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»** وإنما سبب هذهِ الفضيلة كلها، أنَّ ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدُّنيا، وقال ﷺ: **«تحفة المؤمن الموت»**، وإنَّما قالَ هذا لأن الدُّنيا سجن المؤمن، إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه، ورياضة شهواته، ومدافعة شيطانه، فالموت إطلاق لَهُ من هذا العذاب، والإطلاق تحفة في حقهِ، وقالَ ﷺ: **«الموت كفارة لكل مسلم»** وأراد بهذا المسلم حقاً، المؤمن صدقاً الذي يسلم المسلمون من لسانه، ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين، ولم يتدنس من المعاصي إلاَّ باللمم والصغائر، فالموت يطهرهُ منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض، قال عطاء الخراساني: مر رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضَّحك فقال: **«شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات»** قالوا: وما مكدر اللذات؟، قال: **«الموت»**.

وقال أنس رضي الله عنهُ: قال رسول الله ﷺ: **«أكثروا من ذكر الموت، فإنَّه يمحص الذنوب، ويزهد في الدنيا»**، وقال ﷺ: **«كفى بالموت مفرقاً»**، وقالَ عليه السّلام: **«كفى بالموت واعظاً»**، وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال: **«اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**، وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: كيف ذكر صاحبكم للموت؟. قالوا: ما كنَّا نكاد نسمعه يذكر الموت قال: فإنَّ صاحبكم ليس هنالك، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة، فقال رجل من الأنصار: من أكيس النَّاس وأكرم النَّاس يا رسول الله؟ فقال: **«أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعداداً لَهُ، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدُّنيا وكرامة الآخرة»**، وقال الحسن رحمه الله تعالى: فضح الموت الدُّنيا فلم يترك لذي لب فرحاً، وقال الربيع بن خيثم: ما غائب ينتظرهُ المؤمن خيراً لَهُ من

الموت، وكان يقول: لا تشعروا بي أحداً وسلوني إلى ربي سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه، يا أخي احذر الموت في هذهِ الدار، قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده، وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات عضو منه، وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأنَّ بين أيديهم جنازة.

وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدُّنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل. وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدُّنيا وهمومها. وقال مطرف: رأيت فيما يرى النَّائم كأن قائلاً يقول: في وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين، فوالله ما تراهم إلاَّ والهين. وقال أشعث: كنا ندخل على الحسن فإنما هو النَّار، وأمر الآخرة وذكر الموت.

وقالت صفية رضي الله عنها: أن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها، فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها، وكان عيسى عليه السَّلام، إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دماً وكان داود عليه السَّلام، إذا ذكر الموت والقيامة يبكي، حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليهِ نفسه.

وقال الحسن: ما رأيتِ عاقلاً قط إلاَّ أصبته من الموت حذراً عليه حزيناً. وقال عمر ابن عبد العزيز لبعض العلماء: عظني، فقال: أنت أول خليفة تموت، قال: زدني. قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلاَّ ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك. وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبراً في دارهِ فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت، وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد.

وقال مطرف بن عبد اللّه بن الشخير: إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه. وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك وقال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هٰرون: أتحبين الموت؟ قالت: لا. قلت: لِمَ؟ قالت: لو عصيت آدمياً ما اشتهيت لقاءه، فكيف أحب لقاءه وقد عصيته.

قالَ أبو موسى التَّمِيمي: توفيت امرأة الفرزدق خرجَ في جنازتها وجوه البصرة، وفيهم الحسن رضي الله عنه. فقال الحسن: يا أبا فراس ماذا اعددت لهذا اليوم؟ فقال:

شهادة أن لا إله إلاَّ الله منذ ستين سنة، فلما دفنت قامَ الفرزدق على قبرها. فقال:

أخـاف وراء القبـر إن لـم تعـافنـي ... أشـد مـن القبـر التهـابـاً وأضيقَـا
إذا جـاءنـي يـوم القيـامـة قـائـد ... عنيـف وسـواق يسـوق الفـرزدقَـا
لقـد خـاب مـن أولاد آدم مـن مشـى ... إلـى النـار مغلـوق القـلادة أزرقَـا

وقد أنشد في أهل القبور:

قـف بـالقبـور وقـل علـى سـاحتهـا ... مـن منكـم المغمـور فـي ظلمـاتهـا
ومـن المكـرم منكـم فـي قعـرهـا ... قـد ذاق بـرد الأمـن مـن روعـاتهـا
أمـا السكـون لـذي العيـون فـواحـد ... لا يستبيـن الفضـل فـي درجـاتهـا
لـو جـاوبـوك لأخبـروك بـألسـن ... تصـف الحقـائـق بعـد مـن حـالاتهـا
أمـا المطيـع فنـازل فـي روضـة ... يفضـي إلـى مـا شـاء مـن دوحـاتهـا
والمجـرم الطـاغـي بهـا متلقـب ... فـي حفـرة يـأوي إلـى حيـاتهـا
وعقـارب تسعـى إليـه فـروحـه ... فـي شـدة التعـذيـب مـن لـدغـاتهـا

وقال مالك بن دينار: مررت بالمقبرة فأنشدت أقول:

أتيـت القبـور فنـاديتهـا ... فـأيـن المعظـم والمحتقـر
وأيـن المـدل بسلطـانـه ... وأيـن المـزكـي إذا مـا افتخـر

قال: فنوديت من بينها أسمع صوتاً، ولا أرى شخصاً وهو يقول:

تفـانـوا جميعـاً فمـا مخبـر ... ومـاتـوا جميعـاً ومـات الخبـر
تـروح وتغـدو بنـات الثـرى ... فتمحـو محـاسـن تلـك الصـور
فيـا سـائلـي عـن أنـاس مضـوا ... أمـا لـك فيمـا تـرى معتبـر

وجد مكتوب على قبر:

تنـاجيـك أحـداث وهـن صمـوت ... وسكـانهـا تحـت التـراب خفـوت
أيـا جـامـع الـدُّنيـا لغيـر بـلاغـة ... لمـن تجمـع الـدُّنيـا وأنـت تمـوت

وقال ابن السماك: مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب:

يمـر أقـاربـي جنبـات قبـري ... كـأن أقـاربـي لـم يعـرفـونـي
ذوو الميـراث يقتسمـون مـالـي ... ومـا يـألـون إن جحـدوا ديـونـي

وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فبالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوباً:

إن الحبيب من الأحباب مختبس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدُّنيا ولذتها يا من يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ووجد على قبر مكتوباً:

وقفت على الأحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلئن بكيت وفاض دمعي رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوباً:

قد قلت لما قال لي قائل قد صار لقمان إلى رمسه
فأين من يوصف من طبه وحذقه في الماء مع جسه
هيهات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

يا أيّها النّاس كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقل

الباب التاسع والعشرون

في ذكر السمٰوات والأجناس المختلفة

روي: أول ما خلق الله جوهرة، فنظر إليها بنظر الهيبة فذابت وارتعدت من خوف ربّها فصارت ماء، ثم نظرَ إليها بنظر الرحمة فجمد نصفها، فخلق منه العرش فارتعد العرش، فكتب الله عليه لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، فسكن العرش وترك الماء على حاله يرتعد إلى يوم القيامة، وذلك قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾[سورة هود: الآية ٧] ثم تلاطم وتموج، وصعدت منه أدخنة، وارتفع بعضها متراكماً على بعض، وكان لَهُ زبد فخلق الله تعالى منهُ السَّمٰوات والأرض طباقاً، فكانتا رتقاً فخلق الريح فيها فتفتق بين أطباق السَّماء وأطباق الأرض، كما أخبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾[سورة فصلت: الآية ١١].

قالَ أهلُ الحكمةِ: إنَّما خلق الله تعالى السَّماء من دخانٍ، ولم يخلقها من بخار، لأن الدُّخان خلق متماسك الأجزاء يستقر منتهاه، والبخار متراجع وذلك من كمال علمه سبحانه وحكمته، ثم نظر تعالى إلى الماء بعين الرحمة فجمد كما جاء الحديث (فائدة) بين سماء الدُّنيا والأرض، وكذا بين كل سماء وسماء خمسمائة عام وغلظ كل سماء كذلك.

وقيلَ: إنَّ السَّماء الدُّنيا أشد بياضاً من اللبن، وإنما اخضرت من خضرة جبل قاف، واسم تلك السَّماء رقيعة، والثَّانية من حديد تتلألأ نوراً، واسمها فيدوم أو ماعون، والثّالثة من نحاس يقالُ لها ملكوت أو هاريون، والرابعة من فضة بيضاء يكاد نورها يخطف الأبصار واسمها الزاهرة، والخامسة: من ذهب أحمر يقال لها: المزينة أو المسهرة، والسادسة من جوهرة يتلألأ نورها واسمها الخالصة، والسَّابعة من ياقوتة حمراء واسمها اللابية أو الدامعة، وفيها البيت المعمور له أربعة أركان، ركن من ياقوتة حمراء، وركن من زبرجدة خضراء، وركن من فضة بيضاء وركن من ذهب.

وورِدَ أن البيت المعمور من العقيق يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، والمعتمد أن الأرض أفضل من السماء، لأن الأنبياء خلقوا منها وفنوا فيها، وأفضل طبقات الأرض أعلاها، لما ذكر لأنه محل انتفاع العالم.

وعن ابن عباس: أفضل السمٰوات، هي التي يلي سقفها عرش الرحمٰن وهي الكرسي لقربها من العرش، ولأن جميع النُّجوم المنتفع بها مثبتة فيها غير السّبعة السّيارة، أما هي مثبتة في السّمٰوات السَّبع فزحل في السَّابعة، وهو ليوم السَّبت، والمشتري في السَّادسة وهو ليوم الخميس، والمريخ في الخامسة، وهو ليوم الثلاثاء، والشَّمس في الرابعة، وهو ليوم الأحد، والزهرة في الثالثة، وهو ليوم الجمعة وعطارد في الثَّانية وهو ليوم الأربعاء، والقمر في الأولى وهو ليوم الاثنين.

نكتة لطيفة من عجيب صنع الباري تبارك وتعالى أن خلقَ السَّمٰوات السَّبع من دخان، مع كون كل سماء لا تشبه صاحبتها، وأنزل من السَّماء ماء، فأخرج به من أنواع النبات والأثمار المختلفة اللون والطعم كما قال تعالى: ﴿وتفضل بعضها على بعض في الأكل﴾[سورة الرعد: الآية ٤] وخلق أولاد آدم على طبقات شتى منهم الأبيض والأسود والسهل والحزن والمؤمن والكافر والعالم والجاهل، مع أن الأصل آدم فسبحان من أتقن كل شيء خلقه.

الباب الثلاثون

في بيان الكرسي والعرش والملائكة المقربين والأرزاق والتوكل

قالَ الله تعالى: ﴿وسع كرسيه السَّمٰوات والأرض﴾[سورة البقرة: الآية ٢٥٥] قيل: كرسيه مجاز عن علمه وقيل: ملكه وقيل: الفلك المعروف، روى علي كرم الله وجهه، أن الكرسي لؤلؤة وطوله لا يعلمه إلاَّ الله تعالى، وفي الخبر ما للسمٰوات الأرضون السَّبع من الكرسي إلاَّ كحلقة في فلاة، وأخرج ابن ماجه أن السَّمٰوات في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش.

وعن عكرمة قال: الشَّمس جزء من سبعين جزء، من نور الكرسي والعرش جزء من سبعين جزء من نور الستور، يعني بها الحجب، وورد أن بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجاباً من ظلمة، وسبعين حجاباً من نور، كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، ولولا ذلك لاحترق حملة الكرسي من نورهم، والعرش جسم نوراني علوي فوق الكرسي فهو غيره خلافاً للحسن البصري قيل: من ياقوتة حمراء وقيل: من جوهرة

خضراء، وقيل من درة بيضاء، وقيل: من نور، الأولى الإمساك عن القطع بحقيقته يسميه الفلكيون بالفلك التَّاسع، والفلك الأعلى، وفلك الأفلاك والفلك الأطلس، أي الخالي من الكواكب، إذ كلها على ما قال قدماء أهل الهيئة: ثوابت في الفلك الثَّامن المسمى عندهم بفلك البروج، وعند أهل الشَّرع بالكرسي، والعرش سقف المخلوقات عندهم بفلك البروج، وعند أهل الشَّرع بالكرسي، والعرش سقف المخلوقات، فلا شيء يخرج عن دائرته فهو في منتهى. لم العباد لا مجال للإدراك وراءه، ولا مطلب لطالب فوقه.

قال الله تعالى: ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلاَّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٩] وصفه بالعظم لأنه أعظم المخلوقات قد تحقق ﷺ بالتوكل كما أمر، ولذا سمي في التوراة وغيرها بالمتوكل، كيف والتوكل فرع التوحيد والمعرفة وهو ﷺ سيد الموحدين، ورأس العارفين، ولا ينافي التوكل الأخذ في الأسباب، كما قد يتوهم بل هو أيضاً مأمور به فقد قال له ﷺ: أعرابي أأعقل ناقتي أم أتركها وأتوكل؟، فقال: **«أعقلها وتوكل»**، وقال ﷺ: **«لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً»** أي جياعاً، وتروح بطاناً أي شباعاً، فأشار بقوله: **«تغدو إلى التسبب»**.

حكاية: التقى إبراهيم بن آدم وشقيق البلخي بمكة، فقال له إبراهيم: ما بدا أمرك الذي بلغك هذا، قال: مررت ببعض الفلوات، فرأيت طيراً مكسور الجناحين في فلاة من الأرض، فقلت: أنظر من يرزق هذا فقعدت بحذائه، فإذا أنا بطير قد أقبل في منقاره جرادة فوضعها في منقار الطير لهذا الطير المكسور الجناحين، فقلت لنفسي: إن الذي قبض هذا الطير لهذا الطير قادر أنْ يرزقني حيث كنت، فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة، فقال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذي أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبي ﷺ؟: **«اليد العليا خير من اليد السفلى»**، ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين في أموره كلها حتى يبلغ منازل الأبرار، فأخذ شقيق البلخي بيد إبراهيم فقبلها، وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحٰق، ثم إذا تسبب الإنسان فليجتهدن ألا ينظر إلى أسبابه، ولا يقف عندها، بل يجعل مولاه مطمح نظره، ومرمى قصده كالسائل يقصده النَّاس بوعاء في يده، ولا ينظر إليه وإنما ينظر إلى الذين يعطونه، وفي الحديث من سره أن يكون أغنى النَّاس، فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده.

وقد قيل لحذيفة المرعشي وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم: ما أعجب ما رأيت منه،

فقال: بقينا في طريق مكة أيّاماً لم نجد طعاماً، ثم دخلنا الكوفة فلوينا إلى مسجد خراب، فنظر إلى إبراهيم، وقال: يا حذيفة أرى بك الجوع، فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال: على بداوة وقرطاس فجئت به فكتب بعد البسملة: أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى وكتب:

أنـا حـامـد أنـا شـاكـر أنـا ذاكـر　　أنـا جـائـع أنـا ضـائـع أنـا عـاري

هـي سـتـة وأنـا الضمين لنصفهـا　　فكـن الضميـن لنصفهـا يـا بـاري

مدحي لغيرك لهب نار حضنتها　　فـأجـر عبيـدك مـن دخـول النـار

ثم دفع الرقعة، فقال: اخرج، ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك، فخرجت فأول من لقيني كان رجلاً على بغلة فناولته الرقعة، فأخذها فلما وقف عليها بكى، وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة، فقلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إليَّ صرة فيها ستمائة دينار، ثم لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة، فقال: هذا نصراني فجئت إلى إبراهيم أخبرته بالقصة، فقال: لا تمسها فإنه يجيء السَّاعة، فلما كان بعد ساعة دخل النَّصراني، وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم.

فائدة: قال ابن عباس: لما خلق الله تعالى حملة العرش. قال لهم: احملوا عرشي، فلم يطيقوا، فخلق مع كل واحد منهم مثل من في السَّمٰوات السَّبع من الملائكة. فقال: احملوا عرشي، فلم يطيقوا، فخلق مع كل واحد منهم مثل من في السَّمٰوات السَّبع من الملائكة، ومن في الأرض من الخلق، وقال: احملوا عرشي، فلم يطيقوا، فقال: قولوا لا حول ولا قوة إلاّ بالله، فلما قالوها حملوه فنفذت أقدامهم في الأرض السَّابعة على متن الريح، فلما لم تستقر أقدامهم على شيء تمسكوا بالعرش، ولم يفتروا عن قولهم لا حول ولا قوة إلاّ بالله، خيفة أن ينقلب أحدهم فلا يعرف أين يهوي فهم حاملون العرش، وهو حاملهم والكل محمول بالقدرة.

ورويَّ من قال: إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلاّ هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله تعالى، ما أهمه صادقاً كان أو كاذباً وفي رواية كفاه الله تعالى ما أهمه من أمر آخرته ودنياه.

الباب الحادي والثلاثون

في ترك الدُّنيا وذمها

الآيات الواردة في ذم الدُّنيا وأمثلتها كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدُّنيا وصرف الخلق عنها، ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام، ولم يبعثوا إلا لذلك فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها.

فقد روي أن رسول الله ﷺ مر على شاة ميتة، فقال: **«أترون هذهِ الشاة؟ هينة على أهلها»**، قالوا: من هو هوانها؟ ألقوها، قال: **«والذي نفسي بيده للدُّنيا أهون على الله من هذهِ الشَّاة على أهلها، ولو كانت الدُّنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقي كافراً منها شربة ماء»**. وقال ﷺ: **«الدُّنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»**. وقال رسول الله ﷺ: **«الدُّنيا ملعونة ملعون ما فيها إلاَّ ما كان لله منها»**.

وقال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله ﷺ: **«من أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه فآثر ما يبقي على ما يفني»**، وقال ﷺ: **«حب الدُّنيا رأس كل خطيئة»**.

وقال زيد بن أرقم: كنَّا مع أبي بكر الصَّديق رضي الله عنه، فدعا بشراب، فأتى بماء وعسل، فلما دنا من فيه، بكى حتى أبكى أصحابه، وسكتوا وسكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته، قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟، قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟، قال: **«هذه الدُّنيا مثلت لي فقلت لها إليك عني، ثم رجعت، فقالت: إنك أن أفلت مني لم يفلت مني من بعدك»** وقال ﷺ: **«يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود، وهو يسعى لدار الغرور»**.

وروي أن رسول الله ﷺ وقف على مزبلة. فقال: **«هلموا إلى الدُّنيا»** وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت، فقال: **«هذه الدُّنيا» وهذه إشارة إلى أن زينة الدُّنيا ستخلق مثل تلك الخرق، وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاماً بالية»**.

وقال ﷺ: «أن الدنيا حلوة خضرة، وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون أن بني إسرائيل، ولما بسطت لهم الدُّنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنِّساء والطيب والثياب؟». وقال عيسى عليه السّلام: لا تتخذوا الدُّنيا فتتخذكم عبيداً أكنزوا عند من لا يضيعه، فإن صاحب كنز الدُّنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة.

وقال عليه أفضل الصلاة والسَّلام: أيضاً يا معشر الحواريين إني قد كبيت لكم الدُّنيا على وجهها، فلا تنعشوها بعدي، فإن من خبث الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبث الدُّنيا إن الآخرة لا تدرك إلاَّ بتركها، ألا فاعبروا الدُّنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدُّنيا، وربَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

وقالَ أيضاً: بطحت لكم الدُّنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعكم فيها الملوك والنِّساء، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدُّنيا، فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم وأما النِّساء فاتقوهن بالصَّوم والصَّلاة. وقال أيضاً: الدُّنيا طالبة ومطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدُّنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدُّنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فأخذ بعنقه.

وقال أبو موسى بن يسار: قال النبي ﷺ: «أن الله عز وجل لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدُّنيا، وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها».

ورويَ أن سليمان بن داود عليه السَّلام مر في موكبه، والطير تظلله والجن والإنس عن يمينه وشماله، قال: فمر بعابد من بني إسرائيل، فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً. قال: فسمع سليمان وقال: لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير فأما ما أعطي ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى.

وقال ﷺ: «ألهاكم التكاثر»، يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت، وقال ﷺ: «الدُّنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يَسعى من لا يقين له».

وقال ﷺ: «من أصبح والدُّنيا أكثر همه، فليس من الله في شيء، وألزم الله قلبه أربع خصال هماً لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً».

وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ألا أُريك الدُّنيا جميعها بما فيها؟**»، فقلت بلى يا رسول الله: فأخذَ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام، ثم قال: «**يا أبا هريرة هذه رؤوس كانت تحرص كحرصكم، وتأمل كتأملكم، ثمَّ هي اليوم عظام بلا جلد، ثم هي صائرة رماداً، وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثم قذفوها في بطونهم فأصبحت والنَّاس يتحامونها، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن باكياً على الدُّنيا فليبك**»، قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا، ويروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض، قال لهُ ابن للخراب ولد للفناء.

وقال داود بن هلال: مكتوب في صحفِ إبراهيم عليهِ السلام، يا دُنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم، أني قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك، وما خلقت خلقاً أهون علي منك، كل شأنك صغير، وإلى الفناء يصير، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد، ولا يدوم لك أحد، وإن بخل بك صاحبك، وشح عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء، إذا وفدوا إلي من قبورهم إلاّ النور يسعى أمامهم، والملائكة حافون بهم، حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي.

وقال رسول الله ﷺ: «**الدُّنيا موقوفة بين السَّماء والأرض، منذ خلقها تعالى الله لم ينظر إليها، وتقول: يوم القيامة يا ربّ اجعلني لأدنى أوليائك اليوم نصيباً، فيقول: اسكتي يا لا شيء، إني لم أرضك لهم في الدُّنيا أرضاك لهم اليوم**»، وروي في أخبار آدم عليه السَّلام، أنه لما أكل من الشَّجرة تحركت معدته لخروج الثقل، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة، إلاّ في هذه الشجرة، فلذلك نهياً عن أكلها. قال: فجعل يدور في الجنة فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه، فقال له: قل أي شيء تريد؟. قال: آدم أريد أن أضع ما في بطني من الأذى، فقيل للملك: قُلْ لَهُ في أي مكان تريد أن تضعه، أعلى الفراش، أم على السرر، أم على الأنهار، أم تحت ظلال الأشجار، هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك؟ أهبط إلى الدُّنيا.

وقال ﷺ: «**ليجيئن أقوام يوم القيامة، وأعمالهم كجبال تهامة، فيؤمر بهم إلى النَّار**» قالوا: يا رسول الله مصلين. قال: «**نعم. كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل،**

فإذا عرض لهم شيء من الدُّنيا وثبوا عليه»، وقال ﷺ في بعض خطبه: «المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه، فإنَّها خلقت لكم، وأنتم خلقتم للآخرة، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدُّنيا من دار إلاَّ الجنة أو النَّار».

وقالَ عيسى عليه السَّلام: لا يستقيم حب الدُّنيا والآخرة في قلب المؤمن كما لا يستقيم الماء والنَّار في إناء واحد، ورويَ أن جبريل عليه السَّلام، قال لنوح عليه السَّلام: يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدُّنيا؟ فقال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر، وقيل لعيسى عليه السَّلام: لو اتخذت بيتاً يكفك؟ قال: يكفنا خلقان من كان قبلنا.

وقال نبينا ﷺ: «احذروا الدُّنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت».

وعن الحسن قال: خرج ﷺ ذات يوم على أصحابه، فقال: «هل منكم من يريد أنْ يُذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا إنه من رغب في الدُّنيا، وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدُّنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علماً بغير تعلم، وهدى بغير هداية، إلاَّ أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلاَّ بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلاَّ بالفجر والبخل، ولا المحبة إلاَّ باتباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر، وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، لا يريد بذلك إلاّ وجه الله تعالى، أعطاه الله ثواب خمسين صديقاً».

وروي أن عيسى عليه السَّلام اشتدَّ عليه المطر والرعد والبرق يوماً فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه، فوقعت عينه على خيمة من بعيد فأتاها، فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل، فأتاه، فإذا فيه أسد فوضع يده عليه، وقال: إلهي جعلت لكل شيء مأوى، فأوحى الله تعالى إليه مأواك في مستقر رحمتي، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام، يوم منها كعمار الدُّنيا، ولآمرن منادياً ينادي أين الزهاد في الدُّنيا زوروا عرس الزاهد في الدُّنيا عيسى ابن مريم، قال عيسى ابن مريم عليه السَّلام: ويل لصاحب الدّنيا كيف يموت ويتركها وما فيها وتغره ويأمنها ويثق بها وتخذله، وويل للمغتربين كيف أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون وويل لمن الدُّنيا همه والخطايا عمله، كيف يفتضح غدا ذنبه؟ وقيل: أوحى الله تعالى إلى

موسى عليه السَّلام، يا موسى ما لك ولدار الظالمين أنها ليست لك بدار، أخرج منها همك، وفارقها بعقلك فبئست الدار هي إلاَّ لعامل يعمل فيها، فنعمت الدار يا موسى، أني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم.

ورويَ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح، فجاءه بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلَّى رسول الله انصرف، فتعرضوا لَهُ فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء**»، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**فابشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدُّنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتتنافسوها كما تنافسوها فهلككم كما أهلكتهم**».

وقالَ أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض**»، فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: «**زهرة الدُّنيا**» وقال ﷺ: «**لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدُّنيا**»، فنهى عن ذكرها فضلاً عن إصابة عيبها.

وقال عمار بن سعيد: مر عيسى عليه السَّلام بقرية، فإذا أهلها موتى في الأبنية والطرق، فقال: يا معشر الحواريين أن هؤلاء ماتوا عن سخطه، ولو ماتوا عن غير ذلك لأفنوا، فقالوا: يا روح الله وددنا لو علمنا خبرهم، فسأل الله تعالى فأوحى إليه، إذا كان الليل فنادهم يجيبوك.

فلما كان الليل أشرف على نشز، ثم نادى يا أهل القرية، فأجابه مجيب لبيلك يا روح الله، فقال: ما حالكم، وما قصتكم، قالوا: بتنا في عافية، وأصبحنا في الهاوية قال: وكيف ذاك قالوا: بحبنا الدُّنيا وطاعتنا أهل المعاصي، قال: وكيف كان حبكم للدُّنيا؟ قالوا: حب الصَّبي لأمه، إذا أقبلت فرحنا بها، وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها.

قال: فما بال أصحابك لم يُجيبوبي، قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد، قال: فكيف أجبتني أنت من بينهم، قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم.

فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدري أنجو منها أم أكبكب فيها، فقال المسيح للحواريين: لأكل خبز الشَّعير بالملح الجريش، ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدُّنيا والآخرة وقال أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي بناقة لهُ، فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال ﷺ: «**أنه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلاَّ وضعه**»، وقال عيسى عليه السَّلام: من الذي

يبني على موج البحر دار تلكم الدُّنيا، فلا تتخذوها قراراً، وقيل: لعيسى عليه السَّلام علمنا علماً واحداً يحبنا الله عليه، قال: أبغضوا الدُّنيا يحبكم الله تعالى.

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، أو لهانت عليكم الدُّنيا ولآثرتم الآخرة**».

ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه: لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلاَّ ما لا بد لكم منه، ولكن غيب عن قلوبكم ذكر الآخرة الأمل فصارت الدُّنيا ملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبته، ما لكم لا تحابون، ولا تناصحون وأنتم إخوان ودين الله ما فرق بين أهوائكم إلاَّ خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم، حالكم تناصحون في أمر الدُّنيا، ولا تناصحون في أمر الآخرة، ولا يملك أحدكم النَّصيحة لمن يحبه. ويعينه على أمر آخرته، ما هذا إلاَّ من قلة الإيمان في قلوبكم، لو كنتم توقنون بخير الآخرة شرها كما توقنون بالدُّنيا، لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم.

فإن قلتم حب العاجلة غالب، فإنا نراكم تدعون العاجل من الدُّنيا للأجل منها، تكدون أنفسكم بالمشقة، والاحتراف في طلب أمر لعلكم لا تدركونه، فبئس القوم وأنتم ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم، فإن كنت في شك مما جاءَ به محمد ﷺ، فأتونا لنبين لكم، ولنريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم، والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم أنكم تستسيغون صواب الرأي في دنياكم، وتأخذون بالحزن في أموركم، ما لكم تفرحون باليسير من الدُّنيا تصيبونه، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم، ويظهر على ألسنتكم، وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآثم، وعامتكم قد تركوا كثيراً من دينهم.

ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم، ولا يتغير حالكم إني لأرى الله قد تبرأ منكم يلقي بعضكم بعضاً بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما أن يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله، فأصبحتم على الغل ونبتت مراعيكم على الأمل، وتصافيتم على رفض الأجل، ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم، وألحقني بمن أحب رؤيته، ولو كان حياً لم يصابركم، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً، وبالله أستعين على نفسي وعليكم.

وقال عيسى عليه السَّلام: يا معشر الحواريين ارضوا بدنيء الدُّنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدُّنيا بدنيء الدين مع سلامة الدين وفي معناه قبل.

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا   وما أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغنى بالدين عن دنيا الملوك   كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السَّلام: يا طالب الدُّنيا لتبر تركك الدُّنيا، وقال نبينا ﷺ: لتأتينكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النَّار الحطب.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام: يا موسى لا تركنن إلى حب الدُّنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها، ومر موسى عليه السَّلام برجل وهو يبكي. ورجع وهو يبكي، فقال موسى: يا رب عبدك يبكي من مخافتك، فقال: يا ابن عمران لو سال دماغه مع دمع عينه، ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر لهُ، وهو يحب الدُّنيا (الآثار).

قال علي رضي الله عنه: من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً، ولا عن النَّار مهرباً، أولها من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدُّنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها.

وقال الحسن: رحم الله أقواماً كانت الدّنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً، وقال أيضاً رحمه الله: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره.

وقال لقمان عليه السَّلام لابنه: يا بني إنَّ الدُّنيا بحر عميق، وقد غرق فيه ناس كثيرة، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل، وحشوها الإيمان بالله تعالى وشراعها التوكل على الله عز وجل، لعلك تنجو وما أراك ناجياً وقال الفضيل: طالت فكرتي في هذه الآية ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيد جرزاً﴾[سورة الكهف: الآية ٨٧].

وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح في شيء من الدُّنيا، إلاَّ وقد كانَ لَهُ أهل قبلك، وسيكون له أهل بعدك، وليس لك من الدُّنيا إلاَّ عشاء ليلة، وغداء يوم فلا تهلك في أكلة، وصم عن الدُّنيا، وافطر عن الآخرة، وإنَّ رأس مال الدُّنيا الهوى وربحها النَّار، وقيلَ لبعض الرهبان: كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان ويحدد الآمال، ويقرب المنية ويبعد الأمنية. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفر به تعب ومن فاته نصب وفي ذلك قيل:

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيرة أهمومها

وقال بعض الحكماء: كانت الدُّنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن إليها فإنَّ عيشها نكد وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية، وقال بعضهم عيب من الدُّنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحق، لكنها إما أنْ تزيد وإما أن تنقص.

وقال سفيان: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها، وقال أبو سليمان الداراني: من طلب الدُّنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلاَّ أراد أكثر، ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلاَّ أراد أكثر، وليس لهذا غاية، ولا لهذا غاية، وقال رجل لأبي حازم أشكو إليك حب الدُّنيا، وليست لي بدار، فقال: انظر ما آتاكه الله عز وجل منها فلا تأخذه لا من حلة، ولا تضعه إلاَّ في حقه، ولا يضرك حب الدُّنيا، وإنَّما قال: هذا لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدُّنيا ويطلب الخروج منها.

وقال يحيى بن معاذ : الدُّنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك. وقال الفضيل: لو كانت الدُّنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى؟.

وقال أبو حازم: إياكم والدُّنيا فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً للدُّنيا، فقال: هذا أعظم ما حقره الله، وقال ابن مسعود: ما أصبح أحد من النَّاس إلاَّ وهو ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مردودة وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلاَّ وديعة ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها فذكروا الدُّنيا فاقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من حب شيئاً أكثر من ذكره وقيل لإبراهيم بن أدهم كيف أنت؟ فقال:

نرفع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضاً في ذلك:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سروراً وأنعما
كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقيل أيضاً في ذلك:

هب الدنيا تساق إليك عفوا ... أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيء ... أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه: يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً، وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خعض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم، وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعلَ الدُّنيا ثلاثة، جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر، فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع، وقال بعضهم: الدُّنيا جيفة فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب وفي ذلك قيل:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها ... تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غدارة ... قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء من هوان الدُّنيا على الله أنه لا يعصى الله إلاَّ فيها، ولا ينال ما عنده إلاَّ بتركها وفي ذلك قيل:

إذا امتحن الدنيا لبيت تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وقيل أيضاً:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التي كانت منعمة ... كر الجديدين إقبالاً وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ... قد كان في الدهر نفاعاً وضرارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء له ... يمسي ويصبح في دنياه صفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة ... حتى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: لما بعث محمد ﷺ أتت إبليس جنوده فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة قال: يحبون الدُّنيا قالوا: نعم. قال: لئن كانوا يحبون الدُّنيا ما أبالي إلاَّ أن لا يعبدوا الأوثان، وإنما أغدوا عليهم وأروح بثلاث أخذ المال من غير

حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله من هذا نبع.

وقال رجل لعلي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين صف لي الدّنيا؟، قال: وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن آمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، وفي متشابهها العتاب، وقيل له: ذلك مرة أخرى، فقال: أطول أم أقصر؟ فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعني الدُّنيا، وقال أبو سليمان الداراني: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدُّنيا تزاحمها فإذا كانت الدُّنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة، والدُّنيا لئيمة، وهذا تشديد عظيم، ونرجوا أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم صح، إذا قالَ: الدُّنيا والآخرة يجتمعان في القلب، فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له، وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدُّنيا يخرج هم الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدُّنيا من قلبك، وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه، حيث قال: الدُّنيا والآخرة ضرتان فبقدر ما ترضي إحداهما تسخط الآخرة.

وقال الحسن: والله لقد أدركت أقواماً كانت الدُّنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه، ما يسألون أشرقت الدُّنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا، وقال رجل للحسن: ما تقول في رجل آتاه الله مالاً فهو يتصدق منه، ويصل منها، أيحسن له أن يتعيش فيه يعني يتنعم؟، فقال: لا. لو كانت له الدُّنيا كلها ما كان له منها إلاَّ الكفاف، ويقدم ذلك ليوم فقره.

وقال الفضيل: لو أن الدُّنيا بحذافيرها عرضت علي حلالاً لا أحاسب عليها في الآخرة، لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.

وقيل: لما قدم عمر رضي الله عنه الشَّام، فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل فسلم وسار له، ثم أتى منزله فلم ير فيه إلاَّ سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر رضي الله عنه: لو اتخذت متاعاً، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ هذا يبلغنا المقبل. وقال سفيان: خذ من الدُّنيا لبدنك، وخذ من الآخرة لقلبك...

وقال الحسن: والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمٰن بحبهم للدُّنيا. وقال وهب: قرأت في بعض الكتب، الدُّنيا غنيمة الأكياس، وغفلة الجهال، لم يعرفوها حتى خرجوا منها، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا. وقال لقمان لابنه: يا بني إنك

استدبرت الدُّنيا من يوم نزلتها، واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعدت عنها.

وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض، فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر، وقال عمرو بن العاص على المنبر: والله ما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم، والله ما مر برسول الله ثلاث إلاَّ والذي عليه أكثر من الذي له، وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدُّنيا﴾[سورة لقمان: الآية ٣٣] من قال ذا؟ قال له: من خلقها؟ ومن هو أعلم بها إياكم؟ وما شغل من الدُّنيا فإن الدَّنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلاَّ أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب، وقال أيضاً: مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عذاب إن أخذه من حلال حوسب به، وإن أخذه من حرام عذب به، ابن آدم يستقل ماله، ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من مصيبته في دنياه.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز سلام عليك أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات، فأجابه عمر سلام عليك كأنك بالدُّنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل.

وقال الفضيل بن عياض: الدخول في الدُّنيا هين، ولكن الخروج منها شديد. وقال بعضهم: عجباً لمن يعرف أن الموت حق، كيف يفرح؟ وعجباً لمن يعرف أن النَّار حق، كيف يضحك؟ وعجباً لمن رأى تقلب الدُّنيا بأهلها، كيف يطمئن إليها؟ وعجباً لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب؟، وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة. فسأله عن الدُّنيا كيف وجدها؟، فقال: سنيات بلاء وسنيات رخاء، يوم فيوم، وليلة فليلة يولد ولد ويهلك هالك، فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك لضاقت الدُّنيا بمن فيها، فقال له: سل ما شئت، قال عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه، قال: لا أملك ذلك. قال: لا حاجة لي إليك.

وقال داود الطائي رحمه الله: يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم سوفت بعملك كأن منفعته لغيرك، وقال بشر: من سأل الله الدُّنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه. وقال أبو حازم: ما في الدُّنيا شيء يسرك إلاَّ وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوءك.

وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدُّنيا إلاَّ بحسرات ثلاث، أنه لم يشبع مما

جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه، وقيل لبعض العباد قد نلت الغنى، فقال: إنّما قل الغنى من عتق من رق الدُّنيا، وقال أبو سليمان: لا يصبر عن شهوات الدُّنيا إلاَّ من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة، وقال مالك بن دينار: اصطلحنا على حب الدُّنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً، ولا ينهى بعضنا بعض، ولا يدعنا الله على هذا، فليت شعري أي عذاب الله ينزك علينا.

وقال أبو حازم: يسير الدُّنيا يشغل عن كثير الآخرة. وقال أبو الحسن: أهينو الدُّنيا فوالله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها، وقال أيضاً: إذا أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدُّنيا عطية، ثم يمسك، فإذا نفذ أعاد عليه، وإذا أهان عليه عبد بسط له الدُّنيا بسطاً، وكان بعضهم يقول في دعائه: يا ممسك السَّماء أن تقع على الأرض إلاَّ بإذنك أمسك الدُّنيا عني.

وقال محمد بن المنكدر: أرأيت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا ينام، وتصدق بماله وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارم الله غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال: إن هذا عظم في عينيه ما صغره الله، وصغر في عينيه ما عظمه الله، كيف ترى يكون حاله؟ فمن منا ليس هكذا؟ الدُّنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا.

وقال أبو حازم: اشتدت مؤونة الدُّنيا والآخرة، فأما الآخرة فإنك لا تجد عليها أعواناً، وأما مؤونة الدُّنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلاَّ وجدت فاجراً قد سبقك إليه، وقال أبو هريرة: الدُّنيا موقوفة بين السماء والأرض، كالشن البالي تنادي ربَّها منذ خلقها إلى يوم يفنيها يا رب يا رب لم تبغضني، فيقول لها: اسكتي يا لا شيء. وقال عبد اللّه بن المبارك: حب الدُّنيا والذنوب في القلب قد اجتوشته فمتى يصل الخبر إليه.

وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشيء من الدُّنيا فقد أخطأ لحكمه، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب وقيل لبشر مات فلان، فقال: جمع الدُّنيا وذهب إلى الآخرة، وضيع نفسه، قيل له: إنه كان يفعل ويفعل. وذكروا أبواباً من البر. فقال: وما ينفع هذا وهو يجمع الدُّنيا. وقال بعضهم: الدُّنيا تبغض إلينا نفسها، ونحن نحبها، فكيف لو تحببت إلينا؟ وقال لحكيم: الدُّنيا لمن هي؟ قال: لمن تركها، فقيل: الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها، وقال حكيم: الدُّنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها، والجنة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها.

وقال الجنيد: كان الشَّافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدُّنيا

وعظ أخاً له في الله وخوفه بالله، فقال: يا أخي إنَّ الدُّنيا مرحض مزلة ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها اعتبار، والاعسار فيها يسار، فافزع إلى الله وارض برفق الله، لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك، فإنَّ عيشك في زائل وجدار مائل، أكثر من عملك، وأقصر من أملك.

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة؟، فقال: دينار في اليقظة. فقال: كذبت لأن الذي تحبه في الدُّنيا كأنك تحبه في المنام، والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة وعن إسماعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون الدُّنيا خنزيرة، فيقولون إليك عنا يا خنزيرة فلو وجدوا لها اسماً أقبح من هذا لسموها به.

وقال كعب: لتحببن إليكم الدُّنيا حتى تعبدها وأهلها. وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى: العقلاء ثلاثة، من ترك الدُّنيا قبل أن تتركه، وبنى قبر قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه، وقال أيضاً: الدُّنيا بلغ من شؤمها أو من تمنيك لها يلهيك عن طاعة الله فكيف الوقوع فيها؟. وقال بكر بن عبد اللَّه: من أراد أن يستغني عن النداي بالدُّنيا كان كمطفىء النَّار بالتبن.

وقال بندار: إذا رأيت أبناء الدُّنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان. وقال أيضاً: من أقبل على الدُّنيا أحرقته نيرانها، يعني الحرص حتى يصيروا رماداً، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد، فصار جواهر لأحد لقيمته، وقال علي كرم الله وجهه: إنَّما الدُّنيا ستة أشياء، مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومركوب، ومنكوح ومشموم، فأشرف المطعومات العسل، وهو مذقة ذباب، وأشرف المشروبات الماء ويستوي فيه البر والفاجر، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال وأن المرأة لتزين أحسن شيء منها، ويراد أقبح شيء منها، وأشرف المشمومات المسك وهو دم.

الباب الثاني والثلاثون

في ذم الدنيا أيضاً

قالَ بعضهم: يا أيها النَّاسُ اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدُّنيا فإنَّها غدارة خداعة قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيها وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلية العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير بوائقها، وذمها خالقها جديدها يبلى، وملكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقل ودها يموت وخيرها يفوت، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل مدنف ثقيل فهل على الدواء من دليل، أو هل إلى الطبيب من سبيل فتدعى لك الأطباء، ولا يرجى لك الشفاء، ثم يقال فلان أوصى ولماله أحصى، ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه، ولا يعرف جيرانه وعرق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك وثبت يقينك وطمحت جفونك وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك وقيل لك هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومنعت من الكلام فلا تنطق وختم على لسانك فلا ينطلق، ثم حل بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك فغسلوك وكفنوك فانقطع عوادك واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك وبقيت مرتهناً بأعمالك.

وقال بعضهم لبعض الملوك: أن أحق النَّاس بذم الدُّنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطي حاجته منها، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جمعه فتفرقه أو تأتي سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفجعه بشيء وهو ضنين به بين أحبابه، فالدُّنيا أحق بالذم هي الآخذة ما تعطي، الراجعة فيما تهب، بينما هي تضحك صاحبها إذا أضحكت منه غيره، وبينا هي تبكي له إذ أبكت عليه، وبينا هي تبسط كفه بالإعطاء إذا بسطتها بالاسترداد فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم، وتعفره في التراب غداً سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقي، تجدد في الباقي من الذاهب خلفا وترضي بكل من كل بدلاً.

وكتب الحسن البَصْري إلى عُمر بن عبد العزيز، أما بعد فإن الدُّنيا دار طعن ليست بدار إقامة وإنما أنزل آدم عليه السَّلام من الجنة إليها عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه فكن فيها المداوي جراحه يحتمي قليلاً مخافة ما يكن به طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء، فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التي قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وحلت بآمالها وسوقت بخطابها، فأصبحت كالعروس المجلية العيون لها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قالية فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتر وطغى ونسي المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه، فعظمت ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الموت بغصته، وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسر ما تكون فيها احذر ما تكون فيها احذر ما تكون لها فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه الضار في أهلها غار، والنافع فيها غدار ضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء فسرورها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ما ولّى وأدبر ولا يدري ما هو آت فينتظر أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر إن عقل، ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت الدنيا قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فما لها عند الله جل ثناءه قدر وما نظر إليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة، فأبى أنْ يقبلها أذكره أن يخالف على الله أمره، أو يحب ما أبغضه خالقه، أو يرفع ما وضعه مليكه فزواها عن الصالحين اختباراً وبسطها لأعدائه اغتراراً فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسي ما صنع الله عز وجل بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه جل وعز أنه قال لموسى عليه السَّلام: إذا رأيت الغنى مقبلاً، فقل: ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقرَ مقبلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السَّلام فإنه كان يقول: إدامي الجوع وشعاري الخوف ولباسي الصوف وصلائي في الشتاء الشمس وسراجي القمر ودابتي رجلاي، وطعامي

وفاكهتي ما أنبتت الأرض أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء وليس على الأرض أحد أغنى مني.

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السَّلام إلى فرعون. قال: لا يرو عنكما لباسه الذي لبس من الدُّنيا فإن ناصبته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلاَّ بإذني ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنَّما هو زهرة الحياة الدُّنيا وزينة المترفين، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدُّنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ولكني أرغب بكما عن ذلك فأزوي ذلك عنكما وكذلك أفعل بأوليائي إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشّفيق غنمه من مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن منازل الغرة، وما ذاك لهوانهم علي، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفر إنَّما يتزين لي أوليائي بالذل والخوف والخضوع، والتقوى تنبت في قلوبهم، وتظر على أجسادهم فهي ثيابهم التي يلبسون، ودثارهم الذي يظهرون، وضميرهم الذي يستشعرون ونجاتهم التي يفوزون، ورجاؤهم الذي إياه يأملون، ومجدهم الذي به يفخرون، وسيماهم التي بها يعرفون، فإذا لقيتهم فاخفض لهم أجناحك وذلل لهم قلبك، ولسانك واعلم أنه من أخاف لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثَّائر له يوم القيامة، وخطب علي كرَّمَ الله وجهه يوماً خطبة، فقال فيها: اعلموا أنكم ميتون مبعثون من بعد الموت، وموقوفون على أعمالكم، ومجزيون بها فلا تغرنكم الحياة الدُّنيا فإنَّها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالنذر موصوفة وكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها بينا أهلها في رخاء وسرور، إذا هم منها في بلاء وغرور وأحوال مختلفة ونارات منصرفة العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها، وكل حتفة فيها مقدور وحظه فيها موفور.

واعلموا عباد الله أنَّكم وما أنتم من هذه الدُّنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعماراً وأشد منكم بطشاً وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طور تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية واستبدلوا بالقصور المُشيدة والسرر والنَّمارق الممهدة الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاطية الملحدة، فمحلها مغترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين، وأهل محلة متشاغلين لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو الدار، وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله

البلى وأكلتهم الجنادل والثرى، وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً وبعد نضارة العيش رفاتاً فجع بهم الأحباب وسكنوا تحت التراب، وظعنوا فليس لهم إياب هيهات هيهات كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون، فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة في دار المثوى وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو عانيتم الأمور وبعثرت القبور وحصل ما في الصدور وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقهم من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار هنالك تجزى كل نفس بما كسبت أن الله عز وجل يقول: ﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾[سورة النجم: الآية ٣١].

وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين بما فيه﴾[سورة الكهف: الآية ٤٩]. الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد.

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه، ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بدنك لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت ممر السَّاعات بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار، وبالسلو عن غوائل الدُّنيا وجد طعم لذاتها وأنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ اللهم أرشدنا إلى الصَّواب.

وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدُّنيا وقدر بقائها فقال: الدُّنيا وقتك الذي يرجع إليك، فيه طرفك لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه وما لم يأت فلا علم لك به، والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان، والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشَّمل وتنقل الدول والأمل طويل والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور.

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال: يا أيُّها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى خلقتم لأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص ومن شرابكم

شرق، لا تصفوا لكم نعمة تسرون بها إلاَّ بفراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائرين إليه وخالدون فيه ثم غلبةُ البكاء ونزل.

وقال علي كرم الله وجهه في خطبته: أوصيكم بتقوى الله والترك للدُّنيا التاركة لكم، وإن كنتم لا تحبون تركها المبلية أجسامكم، وأنتم تريدون تجديدها فإنَّما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقاً، وكأنهم قد قطعوه وأفضلوا إليها فكأنهم بلغوه وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية، وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدُّنيا، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونعماءها فإنه إلى زوال عجبت لطالب الدّنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفول عنه.

وقال محمد بن الحسين: لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدُّنيا، وأنه لم يرضها لأوليائه، وأنها عنده حقيرة ذليلة، وأن رسول الله زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها أكلوا منها قصدوا وقدموا فضلاً وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي، لبسوا من الثياب ما يستر العورة وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة، ونظروا إلى الدُّنيا بعين أنها فانية وإلى الآخرة أنها باقية فتزودوا من الدُّنيا كزاد الراكب فخربوا الدُّنيا وعمروا بها الآخرة، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم لما علموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم، لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم تعبوا قليلاً وتنعموا طويلاً كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم.

الباب الثالث والثلاثون

في فضل القناعة

اعلم أنه ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطَّمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلاَّ بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن، ويقتصر على أقله قدراً أو خسة نوعاً ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهر، ولا يشتغل قلبه بما بعد شهر فإنْ تشوق إلى الكثير أو طول أمله، فإنه عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص جرهُ الحرص والطمع إلى مساوىء الأخلاق، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات وقد جبل الآدمي على الحرص والطَّمع وقلة القناعة.

وقال رسول الله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاَّ التراب ويتوب الله على من تاب**».

وعن أبي واقد الليثي. قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه أتيناه يعلمنا مما أوحي إليه، فجئته ذات يوم، فقال: «**إن الله عز وجل، يقول: إنَّا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أنْ يكون لها ثان، وإنْ كان لَهُ الثاني لأحب أنْ يكون لها ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاَّ التراب ويتوب الله عن من تاب**».

وقال أبو موسى الأشعري: نزلت سورة نحو براءة، ثم رفعت وحفظ منها أن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، ولو أنَّ لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب، وقال ﷺ: «**منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال**».

وقال ﷺ: «**يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الأمل وحب المال**» أو كما قال: ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة وغزيرة مهلكة، أثنى الله تعالى ورسول على القناعة، فقال رسول ﷺ: «**طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به**»، وقال ﷺ: «**ما من أحد فقير ولا غني إلاَّ ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً الدُّنيا**».

وقال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النَّفس**»، ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطَّلب، فقال: ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتبَ لَهُ ولَنْ يذهب عبد من الدُّنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدُّنيا وهي راغمة.

وروي أن موسى عليه السَّلام سأل ربه تعالى فقال: أي عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم بما أعطيته، قال: فأيهم أعدل؟ قال من أنصف من نفسه، وقال ابن مسعود، قال رسول الله ﷺ: «**أن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لَنْ تموتَ حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب**».

وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة إذا اشتدَّ بك الجوع فعليك برغيفٍ وكوز منْ ماء وعلى الدُّنيا الدَّمار**»، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**كُنْ ورعاً تكُنْ أعبد النَّاس، وكُنْ قنعاً تكُنْ أشكر النَّاس، وَأَحَبَّ للناس ما تُحِبُّ لنفسك تكن مؤمناً**»، ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع، فيما رواه أبو أيوب الأنصاري: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ، فقال يا رسول الله عظني وأوجز، فقال: «**إذا صليت فصل صلاة**

مودع، **ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً واجمع اليأس مما في أيدي النَّاس**».

وقال عوف بن مالك الأشجعي: كُنَّا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، قلنا: أو ليس قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله**»، فبسطنا أيدينا فبايعناه، قال قائل منا: قد بايعناك فعلى ماذا نُبايعك؟، قال: «**أنْ لا تعبدوا إلاَّ الله ولا تشركوا به شيئاً، وتصلوا الخمس، وأنْ تسمعوا وتطيعوا، وأسر كلمة خفية، ولا تسألوا النَّاس شيئاً**»، فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحد أن يناوله إياه.

وقال عمر رضي الله عنه: أن الطَّمع فقر، وأن اليأس غنى، وأنهُ من ييأس عما في أيدي النَّاس، استغنى عنهم.

وقيل لبعض الحكماء ما الغنى. قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وفي ذلك قيل:

العيـــش ســاعـــات تمـــر ... وخطـــوب أيـــام تكـــر
اقنــع بعيشـــك تـــرضـــه ... واتـــرك هـــواك تعيـش حـــر
فلـــرب حتـــف ســاقـــه ... ذهـــب ويـــاقـــوت ودر

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتاج إلى أحد، وقال سفيان: خير دنياكم ما لم تبتلوا به، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم، وقال ابن مسعود: ما من يوم إلاَّ وملك ينادي، يا ابن آدم: قليل يكفيك خير من كثير يطغيك، وقال سميط بن عجلان: إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النَّار. وقيل لحكيم: ما مالك؟ قال: التجمل في الظَّاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي النَّاس.

ويروى أن الله عز وجل قال: يا ابن آدم لو كانت الدُّنيا كلها لك لم يكن لك منها إلاَّ القوت، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن، وقال ابن مسعود: إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلباً يسيراً، ولا يأتي الرجل، فيقول إنك وإنك، فيقطع ظهره فإنَّ ما يأتيه ما قسم لهُ من الرزق أو ما رزق.

وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه فكتب إليه: قد رفعت حوائجي إلى مولاي، فما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عني قنعت، وقيل لبعض

الحكماء: أي شيء أسر العاقل؟ وأيما شيء أعون على دفع الحزن؟، فقال: أسرها إليه ما قدم من صالح العمل، وأعوانها على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء.

وقال بعض الحكماء: وجدت أطول النَّاس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدُّنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط، وفي ذلك قيل:

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة — إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه — والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها — لم يلق في دهره شيئاً يؤرقه

وقد قيل أيضاً:

حتى متى أنا في حل وترحال — وطول سعي وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مغترباً — عن الأحبة لا يدرون ما حالي
بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها — لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قنعت أتاني الرزق في دعة — إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضي الله عنه: ألا أخبركم بما استحل من مال الله تعالى حلتان لشتائي وقيظي، وما يسعني من الظَّهر لحجي وعمرتي وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم، ولا بأوضعهم، فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا؟. كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها، وعاتب أعرابي أخاه على الحرص، فقال: يا أخي أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته، وتطلب أنت ما قد كفيته وكأن ما غاب عنك قد كشف لك، وما أنت فيه قد نقلت عنه، كأنك يا أخي لم تر حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً، وفي ذلك قيل:

أراك يزيدك الإثراء حرصاً — على الدُّنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوماً — إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشَّعبي: حُكيَ أن رجلاً صاد قنبرة، فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك، قالت: والله ما أشفي من قرم، ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هن خير لك من أكلي، أما واحدة فأعلمك وأنا في يدك، وأما الثَّانية فإذا صرت على الشَّجرة، وأما الثَّالثة فإذا صرت على الجبل قال: هات الأولى. قالت: لا تلهفن على

ما فاتك، فخلاها. فلما صارت على الشَّجرة، قالت: هاك الثَّانية لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل، تقول: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالاً، قال: فعض على شفته، وتلهف، وقال: هات الثَّالثة. قالت: أنت نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثَّالثة. ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك، ولا تصدقن بما لا يكون، أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالاً، ثم طارت فذهبت، وهذا مثال لفرط طمع الآدمي، فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون.

وقال ابن السَّماك: إنَّ الرجاء حبل على قلبك، وقيد في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك.

وقال أبو محمد اليزيدي: دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب، فلما رآني تبسم. فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين. قال: نعم وجدت هذين في بعض خزائن بني أمية فاستحصنتهما وقد أضفت إليهما ثالثاً. وأنشدني:

إذا سـد بـاب عنـك دون حـاجـة	فـدعـه لأخـرى ينفتـح لـك بـابهـا
فـإن قـراب البطـن يكفيـك مـاءه	ويكفيـك سـوءآت الأمـور اجتنـابهـا
ولأنـك مبـذلاً لعـرضـك واجتنـب	ركـوب للمعـاصـي يجتنبـك عقـابهـا

وقال عبد اللّه بن سلام لكعب: ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد أذوعها وعقولها؟، قال: الطَّمع وشره النَّفس وطلب الحوائج. وقال رجل للفضيل: فسر لي قول كعب، قال: يطمع الرجل في الشَّيء يطلبه فيذهب عليه دينه، وأما الشَّره فشره النَّفس في هذا وفي هذا حتى لا تجب أن يفوتها شيء، ويكون لك هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خرم أنفك، وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له، فمن أحبك للدُّنيا أسلمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض. لم تسلم عليه لله عز وجل، ولم تعده الله فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك.

الباب الرابع والثلاثون

في فضلِ الفقراء

قال ﷺ: «خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعاً في الجنة ضعفاؤها». وقال ﷺ: «إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني. الفقر والجهاد».

وروي أن جبريل عليه السَّلام نزل على رسول الله ﷺ: فقال: يا محمد إنَّ الله عز وجل يقرأ عليك السَّلام ويقول لك: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً وتكون معك أينما كنت؟ فأطرق رسول الله ﷺ ساعة، ثم قال: «يا جبريل إنَّ الدُّنيا دار من لا دار لَهُ، ومال لا مال لَهُ ولها يجمع من لا عقل لَهُ».

فقال له جبريل: يا محمد ثبتك الله بالقول الثَّابت.

وروي أن المسيح عليه السَّلام مرَّ في سياحته برجلٍ نائم ملتف في عباءة فأيقظه وقال: يا نائم قُمْ فاذكر الله تعالى، فقال: ما تريد مني إني قد تركت الدُّنيا لأهلها، فقال له: فَنَمْ إذاً يا حبيبي، ومرَّ موسى عليه السَّلام برجل نائم على التراب، وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب، وهو متزر بعباءة فقال: يا رب عبدك هذا في الدُّنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدُّنيا كلها.

وعن أبي رافع أنه قال: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر، وقال: «قُلْ لَهُ يقولُ لك محمد أسلفني، أو بعني دقيقاً إلى هلال رجب»، قال: فأتيته، فقال: لا والله إلاَّ برهن فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك.

فقال: «أما والله إني لأمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض، ولو باعني أو أسلفني لأديت إليه أذهب بدرعي هذا إليه فأرهنه».

فلما خرجت نزلت هذه الآية: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾[سورة الحجر: الآية ٨٨] نريد زهرة الحياة الدُّنيا الآية، وهذه الآية لرسول الله ﷺ عن الدُّنيا وقال ﷺ: «الفقر أزين للمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس»، وقال ﷺ: «من أصبح منكم

معافى في جسمهِ آمناً في سربه، عنده قوت يومه فكأنما خبزت لَهُ الدُّنيا بحذافيرها».

وقال كعب الأحبار: قالَ تعالى لموسى عليه السَّلام: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصَّالحين، وقال عطاء الخراساني: مر نبي من الأنبياء بساحل، فإذا هو برجل يصطادُ حيتاناً فقال: باسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها بشيء، ثم مر بآخر فقال: باسم الشَّيطان وألقى شبكته فخرجَ من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها.

فقال النبي ﷺ: «**يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك**»، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذلك من الهوان: «**قال رضيت يا رب**»، وقال نبينا ﷺ: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النَّار، فرأيت أهلها الأغنياء والنِّساء**».

وفي لفظ آخر فقلت: أين الأغنياء، فقيل: حبسهم الجد، وفي حديث آخر فرأيت أكثر أهل النَّار النِّساء، فقلت: ما شأنهن فقيل شغلهن الأحمران الذهب والزعفران، وقال ﷺ: «**تحفة المؤمن في الدُّنيا الفقر**»، وآخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود عليهما السَّلام لمكان ملكه، وآخر أصحابي دخولاً الجنة عبد الرَّحمٰن بن عوف لأجل غناه.

وفي حديث آخر رأيته دخل الجنة زحفاً، وقالَ المسيح عليه السَّلام: بشدة يدخل الجنة الغني الجنة، وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: «**إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإذا أحبَّهُ الحبَّ البالغ اقتناه**». قيل: وما اقتناه، قال: «**لم يترك لَهُ أهلاً ولا مالاً**».

وفي الخبر إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصَّالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجل بعقوبته، وقال موسى عليه السَّلام: يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟، فقال كل فقير: فيمكن أن يكون الثَّاني للتوكيد، ويمكن أن يراد به الشَّديد الضر، وقال المسيح صلوات الله وسلامه عليه: إني لا أحبُّ المسكنة وأبغض النُّعماء، وكان أحبُّ الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال لَهُ يا مسكين.

ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ اجعل لنا يوماً ولهم يوماً يجيئون إليك ولا نجيء إليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء، مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحتهم، وكان لباس القوم الصُّوف في شدة الحر فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتدَّ ذلك على الأغنياء

منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السامي وغيرهم.

فأجابَهم رسول الله ﷺ: «**أن لا يجمعهم وإياه مجلس واحد**»، فنزلَ عليهِ قوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] يعني الفقراء ﴿تريد زينة الحياة الدُّنيا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] يعني الأغنياء ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨] يعني الأغنياء، ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩] الآية، واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ، وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ [سورة عبس: الآيات ١، ٤]، يعني ابن أم مكتوم ﴿أما من استغنى فأنت لهُ تصدى﴾ [سورة عبس: الآيتان ٥، ٦]، يعني هذا الشَّريف.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدُّنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت الدُّنيا عنك لهوانك علي، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة، أُخرجْ يا عبدي إلى هذه الصُّفوف فمن أطعمك فيَّ أو أكساك فيَّ يريد بذلك وجهي، فخذْ بيدهِ فهو لك والنَّاسُ يومئذٍ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصُّفوف، وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة**».

وقال عليه السَّلام: «**أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة**»، قالوا: يا رسول الله وما دولتهم؟. قال: «**إذا كان يوم القيامة قيل لهم أنظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده، ثم أمضوا به إلى الجنة**».

وقال ﷺ: «**دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال، ونظرت في أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم. ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنِّساء قليل. فقلت: يا رب ما شأنهم؟**». قال: أما النِّساء فأضَرّ بهنّ الأحمران الذهب والحرير، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمٰن بن عوف ثم جاء بعد ذلك وهو يبكي فقلت: «**ما خلفك عني؟**» قال: يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أني لا أراك فقلت: «**ولِمَ**» قال: كنت أحاسب بمالي فانظر إلى هذا وعبد الرحمٰن صاحب السَّابقة العظيمة مع رسول الله ﷺ وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**إلاَّ من**

قال المال هكذا هكذا ومع هذا فقد استغر بالغنى إلى هذا الحد».

ودخلَ رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير لَهُ شيئاً. فقال: «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم» وقال ﷺ: «ألا أخبركم بملوك أهل الجنة». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «كل ضعيف منتصف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره».

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه. فقال: «يا عمران إنَّ لك عندنا منزلة وجاهاً فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟» قلت: نعم بأبي وأمي يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب وقال: «السَّلامُ عليك أأدخل؟». فقالت: أدخل يا رسول الله، قال: «وأنا ومن معي». قالت: ومن معك يا رسول الله. قال: «عمران». فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحق نبياً ما علي إلاَّ عباءة، قال: «اصنعي بها هكذا وهكذا» وأشاء بيده. فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي. فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة. فقال: «شدي بها على رأسك» ثم أذنت لَهُ فدخل. فقال: «السَّلام عليكم يا ابنتاه كيف أصبحت؟» قالت: أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي إني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع فبكى رسول الله ﷺ وقال: «لا تجزعي يا ابنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث وإني لأكرم على الله منك، ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدُّنيا» ثم ضرب بيده على منكبها.

وقال لها: «أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة». قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران؟. قال: «آسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، انكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب». ثم قال لها: «اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيداً في الدُّنيا وسيداً في الآخرة».

وروي عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أبغضَ النَّاس فقراءهم، وأظهروا عمارة الدُّنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والخيانة من ولاة الأحكام، والشَّوكة من الأعداء».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه ذو الدرهمين أشد حبساً، أو قال أشد حساباً من ذي الدرهم.

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزيناً كئيباً فقالت امرأته: أحدث أمر. قال: أشد من ذلك. ثم قال: اريني درعك الخلق فشقه وجعله صرراً وفرقه، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل

فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى أن الرجل يدخل في غمارهم[1]. فيؤخذ بيده فيستخرج».

وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب. رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن لَهُ خلق يلبسه. ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين. ورجل دعا بشرابه فلا يقال لَهُ أيُّها تريد.

وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوريّ رحمه الله. فقال لهُ: تخط لو كنت غنياً لما قربتك، وكان من الأغنياء أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقالَ بعضُ الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النَّار كما يخاف من الفقر لنجا منها جميعاً، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً.

وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر.

وقال لقمان عليه السَّلام لابنه لا تحقرن أحداً لخلقان ثيابه فإن ربك وربه واحد.

وقال يحيى بن معاذ: حبك للفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين، وفي الأخبار عن الكتب السَّالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السَّلام احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب عليك الدُّنيا صباً.

ولقد كانت عائشة رضي الله تعالى عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمرقوع وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه وكانت صائمة. فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال: **«إن اردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء وإياك مجالسة الأغنياء ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه»**.

---

(١) قوله في غمارهم: بضم للغين المعجمة وفتحها أي في زحمتهم وجماعتهم الكثيرة كما في القاموس ا هـ مصححه.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها فألح عليه الرجل. فقالَ له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا أفعل ذلك أبداً، رضي الله عنهُ.

وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هُديَ إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به». وقال ﷺ: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلاَّ فلا»، فالأول القانع وهذا الراضي يكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لا ثواب لهُ على فقره، ولكن المعلومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن لهُ ثواباً كما سيأتي تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدُّنيا عنه، وربَّ راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى، ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لكل شيئاً مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة».

وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب العباد إلى الله تعالى الفقير برزقه الراضي عن الله تعالى».

وقال ﷺ: «اللَّهم اجعل قوت آل محمد كفافاً»، وقال: «ما من أحد غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدُّنيا»، وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السَّلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال: ومن هم. قال: الفقراء الصَّادقون.

وقال ﷺ: «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً».

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟، فتقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟. فيقول: فقراء المسلمين القانعون لعطائي الراضون بقدري أدخلوهم الجنة فيدخلوها، ويأكلون ويشربون والنَّاس في الحساب يترددون». فهذا في القانع الراضي، وأما الزاهد فسنذكر فضله إنْ شاء الله تعالى.

وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع وقد قال عمر رضي الله عنه: أنَّ الطمع فقر واليأس غنى، وأنه من يئس عما في أيدي النَّاس وقنع استغنى عنهم.

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلاَّ وملك ينادي من تحت

العرش، يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلاَّ وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدُّنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان في هدم عمره، ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع ما يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء ما الغنى؟. قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعمة بخراسان، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاءَ به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع. قال: نعم. قال: فشبعت، قال: نعم ثم نمت طيباً، قال: نعم، فقال إبراهيم في نفسه: فما أصنع أنا بالدُّنيا والنَّفس تقنع بهذا القدر.

ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً فقال له: يا عبدُ الله أرضيت من الدُّنيا بهذا؟. فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى. فقال: من رضي بالدُّنيا عوضاً عن الآخرة، وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح، ويقول من رضي من الدُّنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ثم قرأ ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق﴾[سورة الذرايات: الآيتان ٢٢، ٢٣] الآية، وكان أبو ذر رضي الله عنهُ يوماً جالساً في النَّاس فأتته امرأة فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة. فقال: يا هذهِ إن بين أيدينا عقبة كؤود لا ينجو منها إلاَّ كل مخف فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب النَّاس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له. وقيل: لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي النَّاس.

ويروى أنَّ الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة: يا ابن آدم لو كانت الدُّنيا كلها لك لم يكن لك منها إلاَّ القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك. قد قيل في القناعة:

أضرع إلى الله لا تضرع إلى النَّاس وأقنع بيأس فإن العز في اليأس

واستغنى عن ذي قربى وذي رحم — إنَّ الغني من استغنى عن النَّاس

وقد قيلَ في المعنى أيضاً:

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه — مقدراً أي باب منه يغلقهُ
مفكراً كيف تأتيه منيته — أغادياً أم بها يسري فتطرقهُ
جمعت مالاً فقل لي هل جمعت له — يا جامع المال أياماً تفرقهُ
المال عندك مخزون لوارثه — ما المال مالك إلا يوم تنفقهُ
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة — أن الذي قسم الأرزاق يرزقهُ
فالعرض منه مصون ما يدنسه — والوجه منه جديد ليس يخلقهُ
إن القناعة من يحلل بساحتها — لم يلق في ظلها هماً يؤرقهُ

الباب الخامس والثلاثون

في اتخاذ ولي من دون الله سبحانه وتعالى وفي بيان العرصات

قال الله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النَّار﴾[سورة هود: الآية ١١٣] الآية. قال بعض المفسرين: أجمع أهل اللغة على أن الركون مطلق الميل، والسكون يسيراً أو كثيراً.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد؛ الركون هنا الإذعان وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم وعن عكرمة لا تصنعوهم والظاهر من الآية عموم النَّهي عن الركون إلى المشركين وفسقة المسلمين.

وقال النيسابوري في تفسيره: قال المحققون؛ الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة، أو تزين طريقتهم وتحسين عند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من أبواب المظالم، فأما مداخلتهم لدفع شيء من الضر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخلة في الركون. قال: وأقول: هذا من طريق المعاش والرخصة ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿أليس الله بكاف عبده﴾[سورة الزمر: الآية ٣٦] ا هـ.

قلت: ولقد صدق فحسم مادة الركون إليهم ولا سيما في هذه الأزمان التي لا يمكن

فيها إنكار المنكر والأمر بالمعروف مع ما في الركون إليهم من الغرور والغرور وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مِساس النَّار، وهكذا فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً ويتهالك على صحبتهم ومنادمتهم، ويلقى شراشرة على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزين بزيهم ويمد عينيه إلى زهرتهم الفانية، ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية، وهو في الحقيقة من الحبة طفيف، ومن جناح البعوضة خفيف بمعزل عن أن تميل إليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب. قال ﷺ: «**المرء على دين خليلِه فلينظر أحدكم من يخالل**».

وروي مثل الجليس الصَّالح مثل حامل المسك إن لم يعطك أصابك من ريحه، ومثل الجليس السُّوء كمثل صاحب الكير إن لم يحرقك أصابك من دخانه. قال الله تعالى: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤١] الآية.

وقال ﷺ: «**من عظَّم غنياً لغناه فقد ذهب ثلث دينه**» وقال ﷺ: «**إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش**»، وقال الله تعالى: ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧١] يعني في عرصات القيامة.

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي يدعى كل أناس به فقال ابن عباس وغيره: أنه كتاب كل إنسان الذي فيه عمله، أي يدعى كل إنسان بكتاب عمله ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٩] الآية.

وقال ابن زيد الإمام: هو الكتاب المنزل فيقال يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل يا أهل القرآن وقال مجاهد: وقتادة إمامهم نبيهم فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد ﷺ وعليهم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بالإمام إمام عصرهم، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا به يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه.

وفي الحديث الصَّحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة رفع لكل غادر لواء، فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان**». وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية: «**يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه ستين ذراعاً، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللَّهم**

ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول: أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له في جسمه ستين ذراعاً على صورة آدم، ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا اللّهم لا تأتنا بهذا».

قال: «فيأتيهم فيقولون: اللّهم اخزه فيقول: أبعدكم الله فإنَّ لكل رجل منكم مثل هذا». وقال الله تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها﴾ [سورة الزلزلة: الآيتان ١، ٢] إلى آخر السورة قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي تحركت من أسفلها وأخرجت ما في جوفها من الأموات والدفائن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ [سورة الزلزلة: الآية ٤] قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّ أخبارها أنْ تشهد على كل عبد وأمة بكل عمل على ظهرها»، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وأنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلاَّ وهي مخبرة». أخرجه الطبراني.

الباب السادس والثلاثون

في النفخِ والفزعِ والحشرِ من المقابرِ

قالَ رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالإذن ينتظر متى يؤمر فنفخ». قال مقاتل: الصور هو القرن وذلك أن إسرافيل عليه السَّلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السَّمٰوات والأرض، وهو شاخص ببصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى.

فإذا نفخ صعق من في السَّمٰوات ومن في الأرض أي مات كل حيوان ومن شدة الفزع إلاَّ من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله إسرافيل فيأمره أنْ ينفخَ الثَّانية فلذلك قوله تعالى: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هُمْ قيام ينظرون﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] على أرجلهم ينظرون إلى البعث.

وقال ﷺ: «حين بعثت أتى صاحب الصور فأهوى بهِ إلى فيه» وقدم رجلاً وأخّر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم

واستكانتهم عند الانبعاث خوفاً من هذهِ الصعقة، وانتظاراً لما يقضي عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدُّنيا من المترفين والأغنياء المتنعمين فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل الأرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذر.

وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم .

وذلك قوله تعالى: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ [سورة التكوير: الآية ٥] ثم أقبلت الشياطين والمردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خشية من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى: ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ [سورة مريم: الآية ٦٨] فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك، ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلاً إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، ولا ترى عليها ربوة يختفي الإنسان وراءها، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمراً، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة، والراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة.

قال رسول الله ﷺ: «**يحشر النَّاس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد**» قال الراوي: والعفرة بياض ليس بالنَّاصع والنقي هو النقي من القشر والنخالة، ومعلم أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر ولا تظن أن تلك الأرض مثل الدُّنيا بل لا تساويها إلاَّ في الاسم.

قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسَّمٰوات﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٨].

قال ابن عباس: يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مد الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، والسمٰوات يذهب شمسها وقمرها ونجومها، فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدته فإنَّه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السَّماء طمست الشمس والقمر وأظلمت الأرض لخمود سراجها فبينما هم كذلك، إذا دارت السَّماء من فوق

رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ويا هيبة ليوم تنشق فيها السَّماء مع صلابتها وشدتها، ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان، وصارت السَّماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن وانتشر النَّاس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة.

قال رسول الله ﷺ: «**يبعثُ النَّاسُ حفاةً عراةً غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان**».

قالت سودة زوج النبي ﷺ راوية الحديث: قلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض فقال: «**شغل النَّاس عن ذلك بهم**» ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [سورة عبس: الآية ٣٧] فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات، ويؤمن فيه مع ذلك النَّظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**يحشر النَّاسُ يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم**» فقال رجل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «**الذي أمشاهمُ على أقدامهم قادر على أن يُمشيهم على وجوههم**» في طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشي على غير رجل والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد، فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدُّنيا فإنك لو شاهدت عجائب الدُّنيا، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها، فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسَّعادة أو بالشَّقاء، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السَّمٰوات السَّبع والأرضين السبع من ملك وجن وأنس وشيطان ووحش وسبع ولهيدة، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها تبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلاَّ ظل عرش رب العالمين، ولم يمكن من الاستظلال به إلى المقربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضحي لحر الشَّمس قد صهرته بحرها واشتدَّ كربه وغمه من وهجها، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه من شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء، والخوف ففاض

العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم يغيب فيه.

قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «**يوم القيامة يقوم النَّاس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**».

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**يعرق النَّاس يوم القيامةِ حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً ويلجمهم ويبلغ آذانهم**»، وكذا رواه البخاري ومسلم في الصَّحيح.

وفي حديث آخر قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السَّماء، فيلجمهم العرق من شدة الكربِ.

وقال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «**تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق النَّاس، فمن النَّاس من يبلغ عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه**»، وأشار بيده فألجمها فاه، ومنهم من يغطيه العرق وضرب بيده على رأسه هكذا، فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر، وشدة كربهم، وفيهم من ينادي، فيقول: رب ارحمني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النَّار.

وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق، واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم، وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر، فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة، ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطَّاعات أهون أمراً وأقصر زماناً من عرق الكرب، والانتظار في القيامة فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدة.

الباب السابع والثلاثون

في بيان القضاء بين الخلائق

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**هل تدرون من المفلس**» قلنا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم لَهُ ولا دينار لَهُ ولا متاع. قال: «**المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، وإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النَّار**».

فانظر مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكائد الشيطان، فإنْ سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النَّهار، وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلاَّ ويجري على لسانك من غبن المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات، من أكل الحرام والشُّبهات والتقصير في الطّاعات، وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء.

فقد روى أبو ذر: أن رسول الله ﷺ رأس شاتين ينتطحان فقال: «**يا أبا ذر أتدري فيم ينتطحان**». قلت: لا. قال: «**ولكن الله يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة**».

وقال أبو هريرة: في قوله عز وجل ﴿ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاَّ أمم أمثالكم﴾[سورة الأنعام: الآية ٣٨] أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله تعالى إلى أنْ يأخذ للجماء من القرناء ثمَّ يقول: كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً فكيف أنت يا مسكين في يوم ترى صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك؟ فتقول: أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصَّبر عنها نصبك، واشتدَّ بسبب الكف عنها عناؤك. فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط. فيقال: هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم، وقصدتهم السُّوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أنْ تعبدَ الأصنام بأرض العرب، ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات، وهي الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم، فإن العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطَّاعات فيرى أنهن في جيبه فما يزال عبد يجيء. فيقول: يا رب فلاناً ظلمني بمظلمة. فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى لَهُ من حسناته شيء، وإنَّ مثل ذلك مثل سفر نزلوا فلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا، فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا»، وكذلك الذنوب لما نزل قوله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾[سورة الزمر: الآيتان ٣٠، ٣١].

قال الزبير: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدُّنيا مع خواص الذنوب؟. قال: «نعم. ليكون عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذي حق حقه». قال الزبير: والله إنَّ الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة، ولا يتجاوز فيه عن لطمه، ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم.

قال أنس سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد عراة غبراً بهما» قلنا ما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء يناديهم ربهم تعالى بصوتٍ يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب، أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا لأحد من أهل النَّار مظلمة حتى أقتصه منه، ولا لأحد من أهل النَّار أن يدخل للنَّار، ولا لأحد من أهل الجنة عنده مظلمة، حتى اقتصه منهُ حتى اللطمة». قلنا وكيف؟ وإنما نأتي الله عز وجل عراة غبراً بهما فقال: «بالحسنات والسيئات».

فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخذ أموالهم، والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع، ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فيكثر من حسناته ليوم القصاص، وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص، بحيث لا يطلع عليه إلا الله فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم.

كما روى أنس عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه. فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العز. فقال أحدهما: يا رب خذ مظلمتي من أخي.

فقال الله تعالى: أعطِ أخاك مظلمته. فقال: يا رب لم يبق من حسناتي شيء. فقال الله تعالى للطالب: كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء؟. قال: يا رب يتحمل عني من أوزاري. قال: وقد فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثمَّ قال إنَّ ذلك اليوم عظيم، يوم يحتاج الناسُ إلى أنْ يحملَ عنهم أوزارهم. قال: فقال الله تعالى للطالب: ارفع رأسك وانظر في الجنان فرفع رأسه. فقال: يا رب أرى مدائن من فضة مرتفعة، وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا أو لأي صديق هذا؟ أو لأي شهيد هذا؟ قال: لمن أعطاني الثمن؟ قال: يا رب ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه، قال: وما هو؟ قال: عفوك عن أخيك. قال: يا رب إني قد عفوت عنهُ».

قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة. ثم قال ﷺ: «**عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله يصلح بين المؤمنين**» في هذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله، وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق، فتفكر الآن في نفسك، إنْ خلت صحيفتك من المظالم، أو تلطف لك حتى عفا عنك، وأيقنت سعادة ليس بعدها شقاء، وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء، وعند ذلك طار قلبك سروراً وفرحاً ابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم برد والرضا يتلألأ من جبينك، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك، وينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه، وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، فترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدُّنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك، فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة لَهُ إليه، فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصَّافي والنية الصَّادقة في معاملتك مع الله، فلن تدرك ذلك إلاَّ بهِ وأن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة، وهي عند الله عظيمة فمقتك لأجلها، فقال: عليك لعنتي يا عبد السُّوء، لا أتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النِّداء إلاَّ ويسود وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون: عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين، وعند ذلك تنثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها[١] وصورها المنكرة، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ

---

(١) قوله وزعارتها: بالزاي المفتوحة أي شراستها.

الخلائق، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك، وأنت تنادي بالويل والثبور، وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبوراً واحداً وادع ثبوراً كثيراً وتنادي الملائكة، ويقولون: هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه، ولعنه بقبائح مساويه فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله، أو طلباً للمكانة في قلوبهم أو خوفاً من الافتضاح عندهم، فما أعظم جهلك إذ يحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدُّنيا المنقرضة، ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم من التعرض لسخط الله، وعقابه الأليم والسِّياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك، وأنت لم تشعر بالخطر.

الباب الثامن والثلاثون

في بيان ذم المال

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ [سورة المنافقون: الآية ٩].

وقال الله تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٥] فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسراناً عظيماً. وقال تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ [سورة التكاثر: الآية ١].

وقال عز وجل: ﴿من كان يريد الحياة الدُّنيا وزينتها﴾[سورة هود: الآية ١٥] الآية وقال: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾[سورة العلق: الآيتان ٦، ٧] فلا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

وقال رسول الله ﷺ: **«حب المال والشَّرف ينبتان النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل»** وقال ﷺ: **«ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الشَّرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم»**.

وقال ﷺ: **«هلك المكثرون الأمَل»**، قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم. وقيل: يا رسول الله أي أمتك شر؟. قال: **«الأغنياء»**. وقال ﷺ: **«سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدُّنيا وألوانها يركبون فره الخيل وألوانها وينكحون أجمل النِّساء وألوانها، ويلبسون أجمل الثياب وألوانها لهم بطون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا**

تقنع، عاكفين على الدُّنيا يغدون ويروحون إليها اتخذوها آلهة من دون إلهك ورباً دون ربهم، أمرها ينتهون ولهواهم يتبعون فعزيمة من محمد بن عبد اللَّه لمن أدركه ذلك الزمان، من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم، فمن يفعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام».

وقال ﷺ: «دعوا الدُّنيا لأهلها من أخذ من الدُّنيا فوق ما يكفيه، أخذ حتفه وهو لا يشعر».

وقال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي ومالي وهل لك من مالك إلاَّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت». وقال رجل: يا رسول الله مالي لا أحب الموت. فقال: «هل معك من مال» قال: نعم يا رسول الله، قال: «قدم مالك فإن قلب المؤمن مع ماله، إن قدَّمه أحب أن يلحقه، إن خلفه أحب أن يتخلف معه»، وقال ﷺ: «أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني يتبعه إلى قبره، والثالث يتبعه إلى محشره، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله والذي يتبعه إلى قبره فهو أهله، والذي يتبعه إلى محشره فهو عمله».

وقال الحواريون لعيسى عليه السَّلام: ما لك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟. فقال لهم: ما منزلة الدينار والدرهم عندكم، قالوا: حسنة، قال: لكنهما والمدر عندي سواء.

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما يا أخي إياك أن تجمع من الدُّنيا ما لا تؤدي شكره فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بصاحب الدُّنيا الذي أطاع الله فيها، وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له: امض فقد أديت حق الله في، ثم يجاء بصاحب الدُّنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه، كلما تكفأ به الصراط، قال له ماله: ويلك ألا أديت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعو الويل والثبور».

وقال ﷺ: «إذا مات العبد قالت الملائكة: ما قدم. وقال الناس: ما خلف».

وقال ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدُّنيا»، وروي أن رجلاً نال من أبي الدرداء وأراه أسوأ، فقال: اللَّهم من فعل سوءاً فأصح جسمه وأطال عمره وأكثر ماله فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر، لأنه لا بد وأن يفضي إلى الطغيان، ووضع علي كرم وجهه درهماً على كفه ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها، فقالت: ما هذا؟ قالوا أرسله إليك عمر بن الخطاب. قالت: غفر الله له، ثم حلت ستراً كان لها فقطعته وجعلته صرراً وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها ثم رفعت يديها، وقالت: اللَّهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا فكانت أول نساء رسول الله ﷺ لحوقاً به.

وقال الحسن: والله ما أعز الدرهم أحد إلاَّ أذله الله، وقيل: إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس، ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما. وقال: من أحبكما فهو عبدي حقاً.

وقال سميط بن عجلان: إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون بها إلى النَّار. وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقبته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل وما رقبته؟. قال أخذه من حله ووضعه في حقه.

وقال العلاء بن زياد: تمثلت لي الدُّنيا وعليها من كل زينة. فقلت: أعوذ بالله من شرك. فقالت: إن سرك أن يعيذك الله مني فأبغض الدرهم والدينار هما الدُّنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنهما صبر عن الدُّنيا، وفي ذلك قيل:

إنـي وجـدت فـلا تظنـوا غيـره ... إن التـورع عنـد هـذا الـدرهـم
فـإذا قـدرت عليـه ثـم تـركتـه ... فـاعلـم بـأن تقـاك تقـوى المسلـم

وفي ذلك قيل أيضاً:

لا يغـرنـك مـن المـرء قميـص رقعـة ... أو إزار فـوق عظـم السـاق منـه رقعـة
أو جبيـن لاح فيـه أثـر قـد خلعـه ... أره الـدرهـم تعـرف حبـه أو ورعـه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته. فقال: يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار، وكان له ثلاثة عشر من الولد. فقال عمر: أقعدوني فأقعدوه. فقال: أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً، فإني لم أمنعهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم، وإنما ولدي أحد رجلين إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصَّالحين، وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع.

وروي عن محمد بن كعب القرظي أصاب مالاً كثيراً فقيل له: لو أدخرته لولدك

من بعدك. قال: لا ولكن أدخره لنفسي عند ربي، وأدخر ربي لولدي.

ويروى أن رجلاً قال لأبي عبد ربه: يا أخي لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير. فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم، وقال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما، للعبد في ماله عند وموته، قيل: وما هما. قال: يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله.

الباب التاسع والثلاثون

في الأعمال والميزان وعذاب النّار

يا أخي لا تغفل عن الفكر في الميزان، وتطاير الكتب إلى الإيمان، والشمائل فإن النّاس بعد السُّؤال ثلاث: فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النّار عنق أسود فيلتقطهم لقط الطير الحب، وينطوي عليهم ويلقيهم في النّار فتبتلعهم النّار، وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها، وقسم آخر لا سيئة لهم، فيناد مناد ليقم الحمّادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة، ثمَّ يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثمَّ بمن لم تشغله تجارة الدُّنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى، وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها، ويبقى قسم ثالث، وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلاَّ أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو، وعدله عند العقاب فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات، وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشّمال، ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق.

ورویَ الحسن أن رسول الله ﷺ كانَ رأسه في حجر عائشة رضي الله عنهما فنعس فذكرت الآخرة، فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله ﷺ فانتبه فقال: **«ما يبكيك يا عائشة»**، قالت: ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: **«والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن فإن أحداً لا يذكر إلاَّ نفسه، إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم، أيخف ميزانه أم يثقل؟ وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله وعند الصراط»**.

وعن أنس قال: يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية، وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النَّار إلى النَّار.

وقال رسول الله ﷺ في يوم القيامة: «**إنه يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليهم السَّلام، فيقول لَهُ: قمْ يا آدم فابعث بعث النَّار، فيقول: وكم بعث النَّار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فلما سمع الصحابة ذلك ألبسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة**»، فلما رأى رسول الله ﷺ ما عند أصحابه. قال: «**اعملوا وابشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بني آدم وبني إبليس**»، قالوا وما هما يا رسول الله؟ قال: «**يأجوج ومأجوج**». قال: فسري عن القوم، فقال: «**اعملوا وابشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في النَّاس يوم القيامة إلاَّ كالشَّامة في جنب البعير، أو كالرقمة في ذراع الدابة**».

يا أيها الغافل عن نفسه، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدُّنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه، واصرف الفكر إلى أمورك فإنك أخبرت بأن النَّار مورد للجميع، إذ قيل: ﴿وإنْ منكم إلاَّ واردها كان على ربّك حتماً مقضياً ثمَّ ننجي الذين اتقوا ونذر الظَّالمين فيها جثيا﴾ [سورة مريم: الآيتان ٧١ ـ ٧٢] فأنت من الورود على يقين، ومن النَّجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد، فعساك تستعد للنجاة منه وتأمل في حال الخلائق، وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب.

فَعِنْدَ ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البراء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان ابن فلان المسوف نفسه في الدُّنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد وينكسونه في قعر الجحيم.

ويقولون له: ذق أنك أنت العزيز الكريم فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء مظلمة

المسالك مبهمة المهالك يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السَّعير شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم فيها فكاك قد شدت أقدامهم إلى النَّواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافهم، ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منّا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنَّا لا نعود.

فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسؤوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون.

فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم النَّدم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين النَّار من فوقهم، والنَّار من تحتهم والنَّار عن إيمانهم والنَّار عن شمالهم فهم غرقى في النَّار، طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السَّلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها، ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها تغلى بهم النَّار كغلي القدور.

ويهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوقهم رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم، والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم، وتتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها، ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها وكلما نضجت بدلناهم جلوداً غيرها، قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب، وهي تنش في لفح تلك النِّيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون، فكيف بك لو نظرت إليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواد من الحميم، وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النَّار بوجودهم، ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم فلهيب النَّار سار في بواطن أجزائهم، وحيات الهاوية وعقاربها، متشبثة بظواهر أعضائهم.

هذا بعض جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوائهم، وتفكر أيضاً في أودية جهنم وشعابها، فقد قال النبي ﷺ: **«إنَّ في جهنم سبعين ألف واد، في كل واد سبعون ألف شعب، في كل شعب سبعون ألف ثعبان، وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر أو المنافق حتى يواقع ذلك كله»**.

وقال علي كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: «**تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن**». قيل يا رسول الله: وما واد أو جب الحزن؟ قال: «**واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة، أعده الله تعالى للقراء المرائين فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها، وهي بحسب عدد أودية الدُّنيا وشهواتها، وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السَّبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض، الأعلى جهنم ثمَّ سقر ثمَّ لظى ثمَّ الحطمة ثمَّ السعير ثمَّ الجحيم ثمَّ الهاوية**».

فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها، كما لا حد لعمق شهوات الدّنيا، فكما لا ينتهي أرب من الدّنيا إلاَّ أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلاَّ هاوية أعمق منها.

قال أبو هريرة: كُنّا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة، فقال رسول الله ﷺ: «**أتدرون ما هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عاماً والآن انتهى إلى قعرها**»، ثمَّ انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فكما أن إكباب النَّاس على الدُّنيا يتفاوت، فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها، ومن خائض فيها إلى حدود فكذلك تناول النَّار لهم متفاوت، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النَّار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلاَّ أنَّ أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدُّنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أدنى أهل النَّار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه**»، فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه، ومهما تشككت في شدة عذاب النَّار، فقربْ أصبعك في النَّار وقس ذلك به، ثم اعلم أنك أخطأت في القياس، فإن نار الدّنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدُّنيا عذاب هذهِ النَّار عرف عذاب جهنم بها، هيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النَّار لخاضوها طائعين هرباً مما هم فيه.

وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل: إن نار الدُّنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدّنيا بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم، فقال: «**أمر الله تعالى أنْ يوقدَ على النَّار ألف عام حتى احمرت، ثمَّ أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثمَّ أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة**».

وقال رسول الله ﷺ: «**اشتكت النَّار إلى ربها، فقالت: يا ربّ أكل بعضي بعضاً،**

فأذن لها في نفسين نفس في الشِّتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدونه في الصيف من حرها، وأشد ما تجدونه في الشِّتاء من زمهريرها».

وقال أنس بن مالك: يؤتى بأنعم النَّاس في الدُّنيا من الكفار، فيقال: اغمسوه في النَّار غمسة، ثمَّ يقال له: هل رأيت نعيم قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأشد النَّاس ضراً في الدُّنيا. فيقول: اغمسوه في الجنة غمسة، ثمَّ يقال له: هل رأيت ضراً؟ فيقول: لا.

وقال أبو هُريرة: لو كانَ في المسجد مائة ألف آو يزيدون، ثمَّ تنفس رجل من أهل النَّار لماتوا. وقد قال بعض العُلماء: في قوله تلفح وجوههم النَّار أنها لفحتهم واحدة، فما أبقت لحماً على عظم إلاَّ ألقته عند أعقابها، ثمَّ انظر بعد هذا في نتن الصَّديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق.

قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: **«لو أن دلواً من غساق جهنم ألقي في الدّنيا لأنتن أهل الأرض»**، فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه، ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوهَ بئسَ الشَّراب وساءت مرتفقا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩] ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى: ﴿ثمَّ إنكم أيها الضَّالون المكذبون لآكلون من شجرة من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربونَ شرب الهيم﴾ [سورة الواقعة: الآيات ٥١ ـ ٥٥].

وقال تعالى: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشَّياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثمَّ إنَّ لهم عليهم لشوباً من حميم ثمَّ إنَّ مرجعهم لإلى الجحيم﴾ [سورة الصافات: الآيات ٦٤ ـ ٦٨] وقال تعالى: ﴿تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية﴾ [سورة الغاشية: الآيتان ٤ ـ ٥]. وقال تعالى: ﴿إنَّ لدنيا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً﴾ [سورة المزمل: الآيتان ١٢ ـ ١٣].

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: **«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدُّنيا أفسدت على أهل الدُّنيا معايشهم، فكيف من يكون طعامه ذلك؟»**، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: **«ارغبوا فيما رغبكم الله، واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم، ولو كانت قطرة من النَّار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبثتها عليكم»**.

وقال أبو الدَّرداء: قال رسولُ الله ﷺ: **«يلقي على أهل النَّار الجوع حتى يعدل ما هم**

فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، ويستغيثون بالطَّعام فيغاثون بطعامٍ ذا غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدُّنيا بشراب، فيستغيثون بشراب فيرفَعُ إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم».

فإذا دخلَ الشَّراب بطونهم قطع ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، قال: فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً العذاب، فيقولون: أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى. قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلاَّ في ضلال، قال: فيقولون ادعوا مالكاً فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك، قال: فيجيبهم أنكم ماكثون قال الأعمش: أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام. قال: فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم. فيقولون: ربَّنا غلبت علينا شقوتنا، وكنا قوماً ضالين، ربنا أخرجنا منها فإنْ عدنا فإنَّا ظالمون. قال: فيجيبهم ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٨] قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك أخذوا الزفير والحسرة والويل.

وقال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ [سورة إبراهيم: الآيتان ١٦ ـ ١٧] قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه، فإذا شربهُ قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره» يقول الله تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ [سورة محمد: الآية ١٥].

وقال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩] فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم، فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى سمومها وعظم أشخاصها وفظاعة منظرها، وقد سلطت على أهليها وأغريت بهم فهي لا تفتر عن النَّهش واللدغ ساعة واحدة.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من أتاهُ الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع لَهُ زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثمَّ يأخذ بلهازمه يعني أشداقه فيقول: أنا مالك أنا كنزك»، ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٠] الآية.

وقال رسول الله ﷺ: «إن في النَّار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً، وإن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها

أربعين خريفاً»، وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدُّنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء النَّاس، ومن وقي ذلك وقى هذه الحميات فلم تمثل لَهُ، ثمَّ تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النَّار، فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً، حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النَّار، ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**ضرس الكافر في النَّار مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث**» وقال رسول الله ﷺ: «**شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه**»، وقال ﷺ: «**إن الكافر ليجر لسانه في سجين يوم القيامة يتواطأه النَّاس**» ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النَّار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم.

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ [سورة النساء: الآية ٥٦] قال: تأكلهم النَّار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم، قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا، ثمَّ تفكر الآن في بكاء أهل النَّار، وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور، فإن ذلك يسلط عليهم في أول إلقائهم في النَّار، قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك**» وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**يرسل على أهل النَّار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثمَّ يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود، ولو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضاً من ذلك**».

وقال محمد بن كعب: لأهل النَّار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً، فيقولون: ﴿ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ [سورة غافر: الآية ١١] فيقول الله تعالى مجيباً لهم: ﴿ذلكم بأنه إذا دُعيَ الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ [سورة غافر: الآية١٢].

ثمَّ يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أولم تكونوا أقسمتهم من قبل ما لكم من زوال﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٤] فيقولون: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ [سورة فاطر: الآية ٣٧].

ثم يقولون: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضانين، ربنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنَّا

ظالمون، فيجيبهم الله: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٨] بعدها أبداً، وذلك غاية شدة العذاب. قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن اسلم في قوله تعالى: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢١] قال: صبروا مائة سنة، ثمَّ جزعوا مائة سنة، ثمَّ صبروا مائة سنة، ثمَّ قالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا.

وقال ﷺ: «**يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنَّار ويقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت**».

وعن الحسن قال: يخرجُ من النَّار رجل بعد ألف عام وليتني ذلك الرجل، ورؤي الحسن رضي الله عنهُ جالساً في زاوية وهو يبكي، فقيل له: لِمَ تبكي. فقال: أخشى أنْ يطرحني في النَّار ولا يبالي، فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة، وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية لَهُ، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب، حسرة فوت نعيم الجنة، وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم، فإنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلاَّ بشهوات حقيرة في الدَّنيا أياماً قصيرة، وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منغصة.

فيقولون في أنفسهم: واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا؟ وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياماً قلائل؟ ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنه أيامه، وبقينا الآن في جوار ربّ العالمين متنعمين بالرضا والرضوان، فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا ما بلوا به، ولم يبق معهم شيء من نعيم الدُّنيا ولذاتها، ثمَّ إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم.

فقد قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بناس من النَّار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها، ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون الآخرون بمثلها. فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النَّار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك، وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا، فيقول الله تعالى: ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم النَّاس لقيتموهم مخبتين، تراءون النَّاس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم النَّاس ولم تهابوني، وأجللتم النَّاس ولم تجلوني، وتركتم للنَّاس ولم تتركوا إلي، فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثَّواب المقيم**».

قال أحمد بن حرب: إنَّ أحدنا يؤثر الظل على الشَّمس، ثمَّ لا يؤثر الجنة على

النَّار، وقال عيسى عليه السَّلام: كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النَّار يصيح.

وقال داود: إلهي لا صبر لي على حر شمسك، فكيف لي صبر على حر نارك؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك، فكيف على صوت عذابك؟ فانظر يا مسكين في هذه الأهوال، واعلم أن الله تعالى خلق النَّار بأهوالها، وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه.

قال الله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ [سورة مريم: الآية ٣٩] ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل، ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدُّنيا، ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك، فإن قلت فليت شعري ماذا موردي؟ وإلى ماذا مآلي ومرجعي؟ وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها، وهو أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلاًّ ميسر لما خلق لَهُ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فابشر مبعد عن النَّار، وأن كنت لا تقصد خيراً إلاَّ ويحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شراً إلاَّ ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضي عليك، فإن دلالة هذا على العاقة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النَّار.

فقد قال الله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم﴾ [سورة الانفطار: الآيتان ١٣ ـ ١٤] فاعرض نفسك على الآيتين، وقد عرفت مستقرك من الدارين والله اعلم.

الباب الأربعون

في فضلِ الطَّاعة

اعلم أن طاعة الله سبحانه وتعالى جماع الخير كلهُ، وقد حث الله تعالى عليها في كتابه في آيات متعددة، وبها أرسل الرسل ليخرج النَّاس من ظلمات النُّفوس إلى أنوار معرفة القدوس، وليتمتعوا في دار النَّعيم التي أعدت للمتقين، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإنَّهم لم يخلقوا عبثاً بل ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وهو الغني عن طاعتهم، ولا تضره معصيتهم ولا تنقص من كمالاته شيئاً، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون لَهُ بالليل والنَّهار وهم لا

يسأمون. من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، والله الغني وأنتم الفقراء، يا عجباً أحدنا يشتري الرقيق، ويجب أن يكون قائماً بما يلزم من الخدمة ناصحاً فيها، منقاداً لمولاه الذي استولى عليه بالعرض اليسير الفاني، ويمقته بزلة واحدة ويغضب عليه وربما منعه مرتبة أو طرده أو باعه، فما لنا لا نطيع مولانا الحقيقي الذي خلقنا وسوانا، ونقع في زلات عدد المطر، ومع ذلك لم يمنع نعمه عنا وإمداداته التي لولاها لهلكنا، وهو قادر على البطش بنا بمجرد ارتكاب زلة واحدة لكنه يُمهلنا لعلنا نتوب فيقبلنا، ويغفر زلتنا ويستر عورتنا، فالعاقل يعرف من هو الأحق بالطاعة فيقبل عليه ويتوجه بكليته، وكلما أذنب تاب، وإلى خالقه أناب لا ييأس من رحمته ويتحبب إليه بشكر نعمته، ويواظب على ذلك عسى أن يكتب من المحبين فيأتيه الموت، وهو مشتاق إلى مولاه، ومولاه أشد شوقاً إلى لقائه.

قال أبو الدرداء لكعب رضي الله عنهما: أخبرني عن أخص آية يعني في التوراة، فقال: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني إلى لقائهم لأشد شوقاً. قال: ومكتوب إلى جانبها من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني. فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا. وفي أخبار داود عليه السَّلام أن الله تعالى قال: «يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن حبني وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس ذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد اعلم ذلك يقيناً من قلبه، إلاَّ قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وآنسوا بي أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبابي من طينة إبراهيم خليلي، وموسى نجيي ومحمد صفيي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي».

وَرُوِي عن بعض السَّلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصَّديقين أن لي عباداً من عبادي يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظِّلال بالنَّهار كما يراعي الراعي الشَّفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشَّمس كما يحن الطَّائر إلى وكره عند الغروب، فإذا جنهم اللَّيل واختلط بالظَّلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة، خلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلي

وجوههم، وناجوني بكلامي وتملقوا إلي بأنعامي فبين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي أول ما أعطيهم ثلاث، أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثَّانية لو كانت السَّموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة أقبل بوجهي عليهم فترى من أقبلت بوجهي عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وفي أخبار داود عليه السَّلام أن الله تعالى أوحى إليه: يا داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشَّوق إلي؟ قال: يا رب من المشتاقون إليك؟ قال: إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر، ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم خرقاً ينظرون إلي لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي، ثمَّ أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي فأقول: إني لم أدعكم لتسجدوا لي، ولكني دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي، وأباهي بكم أهل الشَّوق إلي، فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي، كما تضيء الشَّمس لأهل الأرض، يا داود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدثين، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون بِهِ إلي ويزدادون في كل يوم شوقاً.

قال داود: يا رب أرني أهل محبتك. فقال: يا داود أئت جبل لبنان، فإنَّ فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول. فإذا أتيتهم فأقرئهم مني السَّلام، وقل لهم إنَّ ربكم يقرئكم السَّلام، ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبابي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فأتاهم داود عليه السَّلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عز وجل، فلما نظروا إلى داود عليه السَّلام نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال داود: إني رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه، وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض.

فقال داود: أني رسول الله إليكم يقرئكم السَّلام ويقول لكم: ألا تسألون حاجة؟ ألا تنادوني؟ أسمع صوتكم وكلامكم، فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم في كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيقة. قال: فجرت الدموع على خدودهم.

فقال شيخهم: سبحانك سبحانك نحنُ عبيدك وبنوا عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا، وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك

فامنن علينا بحسن النَّظر فيما بيننا وبينك، وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحنُ عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء على الدعاء، وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا، فأدم علينا لزوم الطريق إليك، وأتمم لنا بذلك المنة علينا. وقال الآخر: نحنُ مقصرون في طلب رضاك فأعنا عليه بجودك. وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومننت علينا بالتفكر في عظمتك، أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك وطلبنا الدنو من نورك. وقال الآخر: كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك، وكثرة منتك على أهل محبتك، وقال آخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك، وفرغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك، وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنما هي النَّظر إلى وجهك.

وقال الآخر: كيف يجترىء العبد على سيده؟ إذا أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نوراً نهتدي به في الظّلمات من أطباق السَّموات، وقال الآخر: ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا.

وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا. وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك فأمنن علينا بالنَّظر إلى جمال وجهك. وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النَّظر إلى الدُّنيا وأهلها، وقلبي عن الاشتغال بغير الآخرة. وقال الآخر: قد عرفت تباركت وتعاليت، إنك أنت تحب أوليائك، فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك.

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السَّلام: قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليفارق كل واحد منكم صاحبه، وليتخذ لنفسه سرداباً فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم، حتى تنظروا نوري وجلالي. فقال داود: يا رب بم نالوا هذه منك؟ قال: بحسن الظَّن والكف عن الدُّنيا، وأهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي، وإن هذا منزل لا يناله إلاَّ من رفض الدُّنيا وأهلها، ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لي، واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه، حتى ينظر إلي نظر النَّاظر بعينه إلى الشَّيء، وأريه كرامتي في كل ساعة وأقربه من نور وجهي، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشَّفوقة ولدها، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكري، فإذا فعلتُ ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدُّنيا وأهلها، ولم أحببها إليه لا يفتر عن الاشتغال بي يستعجلني القدوم، وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي لا يرى غيري، ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه

وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه، إذ سمع بذكري أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي يزداد خوفاً وعبادة، وعزتي وجلالي يا داود لأقعدنّه في الفردوس لأشفين صدره من النَّظر إلي حتى يرضى وفوق الرضا.

وفي أخبار داود أيضاً قُلْ لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضركم إذا احتجبت عن خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم، حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم؟ وما ضركم ما زويت عنكم من الدُّنيا إذا بسطت ديني لكم؟ وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي؟

وفي أخبار داود أيضاً أن الله تعالى أوحى إليه تزعم إنك تحبني فإن كنت تحبني فاخرج حب الدُّنيا من قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب، يا داود خالص تحبني مخالصة وخالط أهل الدُّنيا مخالطة، ودينك فقلدنه ولا تقلد دينك الرجال أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به، وأما ما أشكل عليك فقلدنه حقاً على إني مسارع إلى سياستك وتقويمك، وأكون قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشَّدائد.

وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلاَّ عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كتفيه بين يدي، وأنه لا غنى لَهُ عني، فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك، وأسكن الغنى قلبك، فإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي، إلى نفسه ينظر إلى أفعالها إلاَّ وكلته إليها أضعف الأشياء التي لا تضاد عملك فتكون متعتياً، ولا ينفع بك من يصحبك، ولا تجد لمعرفتي حداً فليس لها غاية، ومتى طلبت مني الزيادة أعطك، ولا تجد للزيادة مني حداً، ثمَّ اعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم. عندما أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ضعني بين عينيك وانظر إلي ببصر قلبك، ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني فأمرجوها فوسخت بانقطاع ثوابي عنها، فإني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويق، تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين، لو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها، يا داود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيداً، ومن كتبته عندي جهيداً لا تكون عليك وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين.

يا داود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك، لا تؤتين منها فاحجب عنك

محبتي، لا تيئس عبادي من رحمتي، اقطع شهوتك فإنما أبحث الشَّهوات يضعفه خَلْقي، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشَّهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول، أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم فإن لم أرض الدُّنيا لحبيبي ونزهته عنها، يا داود لا تجعل بيني عالماً يحجبك بسكره عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشَّهوات بإدمان الصَّوم وإياك والتجربة في الإفطار فإن محبتي للصوم وإدمانه.

الباب الحادي والأربعون

في الشُّكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشَّكر بالذكر في كتابه مع أنهُ قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] فقال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] وقال الله تعالى: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٧] وقال تعالى: ﴿وسنجزي الشَّاكرين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٥] وقال عز وجل عن إبليس اللعين: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٦] قيل هو طريق الشكر طعن اللعين في الخلق.

فقال: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] وقال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣] وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشّكر ولم يستثن فقال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧] واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة.

فقال تعالى: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إنْ شاء﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٨] وقال تعالى: ﴿يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٢]، وقال تعالى: ﴿يغفرُ ما دون ذلك لما يشاء﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨] وقال تعالى: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ [سورة التوبة: الآية ١٥] وهو خلق من أخلاق الربوبية، إذ قال تعالى: ﴿والله شكور رحيم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٧] وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة، فقال تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٤] وقال تعالى: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ [سورة يونس: الآية ١٠].

وأما الأخبار فقد قال رسول الله ﷺ: «**الطَّاعم الشَّاكر بمنزلة الصَّائم الصَّابر**».

وروي عن عطاء أنه قال: دخلتُ على عائشة رضي الله عنها، فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت، وقالت: وأي شأنه لم يكن عجباً أتاني ليلة فدخل معي في فراشي، أو قالت: في لحافي حتى مس جلدي جلده، ثم قال: «**يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي**» قالت: قلت: إني أحب قربك لكني أؤثر هواك فأذنت فقام إلى قربة فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثمَّ قام فصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثمَّ ركع فبكى، ثمَّ سجد فبكى، ثمَّ رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصَّلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟.

قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً ولم لا أفعل ذلك، وقد أنزل الله تعالى علي**» ﴿إنَّ في خلق السَّمواتِ والأرضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٤] وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً، وإلى هذا السّر يشير ما روي أنه مرّ بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منهُ ماء كثير فتعجب منُه فأنطقه الله تعالى فقال: منذ سمعت قوله تعالى: ﴿وقودها النَّاس والحجارة﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] فأنا أبكي من خوفه، فسأل الله أن يجيره من النَّار فأجاره، ثمَّ رآه بعد مدة على مثل ذلك، فقال: لم تبكي الآن؟ فقال: ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور، وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة، ولا تزول إلاَّ بالبكاء في حال الخوف والشّكر جميعاً.

وروي عنهُ ﷺ أنهُ قال: «**ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة**» وقيل: من الحمادون؟ قال: «**الذين يشكرون الله تعالى على كل حال**» وفي لفظ آخر: «**الذين يشكرون الله على السرَّاء والضَّراء**».

قال ﷺ: «**الحمد رداء الرحمٰن**» وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السَّلام إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل، وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصَّابرين، أن دراهم السَّلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر، وهو خير الكلام وعند الشكر سنزيدهم، وبالنَّظر إلي أزيدهم ولما نزل في الكنوز ما نزل.

وقال عمر رضي الله عنهُ: أي المال يتخذ؟ فقال عليه السَّلام: «**ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً**»، فأمر باقتناء الشّكر بدل المال.

وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان، اعلم أن الشكر يتعلق بالقلب واللسان وبالجوارح، أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق، وأما باللسان فإظهار الشكر لله

تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء، والشكر باللسان لإظهار الرضى عن الله تعالى وهو مأمور به.

فقد قال ﷺ لرجل: «**كيف أصبحت؟**» قال: بخير فأعاد ﷺ السُّؤال حتى قال في الثَّالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال ﷺ: «**هذا الذي أردت منك**»، وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشَّاكر مطيعاً، والمستنطق له به مطيعاً، وما كان قصدهم الوفاء بإظهار الشوق، كل عبد سائل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت، فالشكر طاعة، والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك، وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء، فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشَّكوى أن تكون شكواه لله تعالى فهو المبلي، والقادر على إزالة البلاء وذل العبد لمولاه عزٌّ، والشكوى إلى غيره ذل، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح.

قال الله تعالى: ﴿الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا لَهُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٧] وقال الله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٤] فالشكر باللسان من جملة الشكر.

وقد روي أن وفداً قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله. فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكبر الكبر، فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك، فقال: تكلم. فقال: لسنا وفداً لرغبة ولا وفداً لرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنَّما نحنُ وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف.

الباب الثاني والأربعون

في بيان ذم الكبر

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر، فقال تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٦] وقال عز وجل: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥] وقال تعالى: ﴿واستفتحوا وخَابَ كل جبار عنيد﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٥] وقال تعالى: ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ [سورة النحل: الآية ٢٣] وقال تعالى: ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ [سورة الفرقان: الآية ٢١] وقال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] وذم الكبر في القرآن كثير.

وقد قال الرسول ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النَّار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي**».

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن قال: التقى عبد اللَّه بن عمرو وعبد اللَّه بن عمر على الصَّفا فتوافقا فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي. فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمٰن؟ فقال: هذا، يعني عبد اللَّه بن عمر، وزعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النَّار على وجهه**». وقال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الكافرين فيصيبه ما أصابهم من العذاب**».

قال سليمان بن داود عليه السَّلام يوماً للطير والإنس والجن والبهائم: أخرجوا فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السَّموات، ثمَّ خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتاً يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته، وقال ﷺ: «**يخرج من النَّار عنق لَهُ أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول: وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد بكل**

من دعا مع الله إلٰهاً آخر وبالمصورين»، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيـىء المملكة» .

وقال ﷺ: «تحاجت الجنة والنَّار، فقالت النَّار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلاَّ الضعفاء من النَّاس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنَّار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحد منكما ملؤها»، وقال ﷺ: «بئس العبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، وبئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى، وبئس العبد عبد عتى وبغى ونسي المبدأ والمنتهى» وعن ثابت أنهُ قال: يا رسول الله ما أعظم كبر فلان؟ فقال: «أليس بعده الموت؟» .

وقال عبد اللَّه بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن نوحاً عليه السَّلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه، وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك والكبر، وآمركما بلا إلٰه إلاَّ الله فإن السموات والأرضين وما فيهما لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت لا إلٰه إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منها ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانت حلقة جماع فوضعت لا إلٰه إلا الله عليها لقصمتها، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء» .

وقال المسيح عليه السَّلام: طوبى لمن علمته الله كتابه، ثمَّ لم يمت جباراً .

وقال ﷺ: «أهل النَّار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المقلون»، وقال ﷺ: «إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفهيقون»، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفهيقون؟ قال: «المتكبرون» .

وقال ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر، تطأهم النَّاس ذراً في مثل صور لرجال يعلوهم كل شيء من الصَّغار، ثمَّ يساقون إلى سجنٍ في جهنم يقالُ لَهُ بولس[1]، تعلوهم نار الأنيار يسؤون من طين الخبال عصارة أهل النَّار» .

وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «يحشرُ الجبارون المتكبرون يوم القيامة في صور

---

(١) قوله بولس: بموحدة مضمومة ولام مفتحوحة وسين مهملة كما في القاموس ا هـ.

الذر، تطأهم النَّاسُ لهوانهم على الله تعالى» وعن محمد بن واسع قال: دخلتُ على بلال بن أبي بردة فقلت لَهُ: يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ في جهنم وادياً يقالُ لَهُ هيهب حق على الله أن يسكنه كل جبار، فإياك يا بلال تكون ممن يسكنه»، وقال ﷺ: «إنَّ في النَّار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم».

وقال ﷺ: «اللَّهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء»، وقال: «من فارق روحه جسده، وهو بريء من ثلاث دخل الجنة الكبر والدين والغلول».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير، وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كلِّ متكبر، وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريرهِ فجاء يوماً ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزاحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه، فقال: عجباً لابن آدم متكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين.

وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخراء بيده كل يوم مرة أو مرتين، ثمَّ يعارض جبار السَّموات، وقد قال: في أنفسكم أفلا تبصرون هو سبيل الغائط والبول.

وقال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر إلاَّ نقص من عقله بقدر ما دخل في ذلك قل أو أكثر؛ وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حصنة، فقال: الكبر، وقال النعمان بن بشير على المنبر: إن للشيطان مصائد وفخوخاً، وإن مصائد الشَّيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله، نسألُ الله تعالى العفو والعافية في الدُّنيا والآخرة منه وكرمه، وقال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل جر إزاره بطراً».

وقال ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بردته إذا أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»، وقال زيد بن أسلم: دخلت على ابن عمر فمر به عبد اللَّه بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعتُه يقول: أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء».

روي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد جمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الترقي قلت: أتصدق وأنى

أوان الصَّدقة» وقال ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض»، قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال، وقال ﷺ: «من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان».

وعن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحنُ مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة وعليه جباب خزّ قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر، ونظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف شامخ بأنفه ثاني عطفه مصعر خدّه وينظر في عطفيه، أي حميق أنت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة، غير مأخوذ بأمر الله فيها، ولا مؤدي حق الله منها في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لفتة والله أن يمشي أحد طبيعته، أو يتخلج تخلج المجنون خير لَهُ من هذا، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه. فقال: لا تعتذر إلي وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ولا تمشي في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٧].

ومر بالحسن شاب عليه بزة لَهُ حسنة فدعاه، فقال لَهُ: يا ابن آدم تعجب بشبابك محب لشمائلك كأن القبر قد وارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

وروي أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه، ثمَّ قال: ليست هذه مشية من في بطنه خرء. فقال عمر كالمعتذر: (يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها) ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائة درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله، ورأى ابن عمر رجلاً يجر إزاره فقال: إن للشَّيطان إخواناً كررها مرتين أو ثلاثاً.

وروي أن مطرف بن عبد اللَّه بن الشَّخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز فقال: يا عبد اللَّه هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال لَهُ المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أولك نطفة بذرة وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فمضى المهلب وترك مشيته تلك، وأنشد في هذا المعنى.

عجبت من معجب بصورته ... وكان بالأمس نطفة مذرة
وفي غد بعد حسن هيئته ... يصير في القبر جيفة قذرة

وأنشد خلف الأحمر:

لنا صاحب مولع بالخلاف ... كثير الخطأ قليل الصواب

أشد لجاجاً من الخنفساء ... وأزهى إذا مشى من غراب

وقال آخر:

قلت للمعجب لما قال مثلي لا يراجع ... يا قريب العهد بالمخرج لم لا تتواضع

ومثله لذي النون المصري:

أيها الشامخ الذي لا يرام ... نحن من طينة عليك السلام

إنما هذه الحياة الدنيا متاع ... ومع الموت تستوي الأقدام

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثمَّ ذهب إلى أهلِه يتمطى﴾ [سورة القيامة: الآية ٣٣] أي يتبختر والله تعالى اعلم.

الباب الثالث والأربعون

في التَّفكرِ في الأيام وغيرها

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدين في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى فقال تعالى: ﴿إنَّ في خلق السَّموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٤] الآية أي تعاقبهما في المجيء والذهاب يخلف أحدهما صاحبه، إذا أحدهما جاء الآخر خلفه أي بعده قال تعالى: ﴿وهو الذي جعلَ اللَّيل والنَّهار خلفة﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٢].

قال عطاء: أرادَ اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان وما أحسن قول القائل:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد تطرقن أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله ... فرب آخر ليل أجج النارا

وقول آخر:

إن الليالي للأنام مناهل ... تطوى وتنشر دونها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وأثنى الله على المتفكرين، فقال تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السَّموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١]. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبي ﷺ: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدوره قدره**».

وعن النبي ﷺ أنهُ خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون، فقال: «**ما لكم لا تتكلمون؟**»، فقالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل. قال: «**فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه، ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها مسيرة الشَّمس أربعين يوماً بها خلق من الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين**». قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قالوا: ما يدرون خلق الشَّيطان أم لا؟ قالوا: أمن ولد آدم؟ قال: «**لا يدرون خلق آدم أم لا**».

وعن عطاء قال: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: «**زر غباً تزدد حباً**» قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ. قال: فبكت وقالت: كل شيء من أمره كان عجباً، أتاني مرة في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثمَّ قال: «**ذريني أتعبد لربي عز وجل**» فقام إلى القربة فتوضأ منها، ثمَّ قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثمَّ سجد حتى بل الأرض، ثمَّ اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصُّبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**ويحك يا بلال ما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة**»: ﴿إن في خلق السَّموات والأرض واختلاف اللَّيل والنَّهار لآيات لأولي الألباب﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩٠]. ثمَّ قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**». فقيل للأوزاعي: ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن ويعلقهن.

وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر، فسألها عن عبادة أبي ذر. فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر.

وعن الحسن قال: تفكر في الله ساعة خير من قيام ليلة. وعن الفضيل قال: الفكر مرآة يريك حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل. وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً، ونظره عبرة فإنه مثلي، وقال الحسن: من لَمْ يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكر فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو وفي قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٦] قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطوا أعينكم حظها من العبادة**» فقالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: «**النَّظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه**» وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة إنها قالت: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد أدخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدُّنيا عيش، ولم تقر لهم في الدُّنيا عين، وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه، فيقول: يا لقمان إنك تطيل الجلوس وحدك فلو جلست مع النَّاس كان آنس لك، فيقول: إن طول الوحدة أدوم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرىء قط إلاَّ علم وما علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة، وقال عبد اللّه بن المبارك يوماً لسهل بن علي ورآه ساكتاً متفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط. وقال بشر: لو تفكر النَّاس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل.

وعن ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وبينا أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي.

وقال أبو سليمان: عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر، وقال أبو سليمان أيضاً: الفكر في الدُّنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب.

وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف، وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والنَّدم على الشر يدعو إلى تركه.

ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه: إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر

إلى همه وهواه، فإذا كان همه وهواه لي، جعلت صمته تفكراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلم.

وقال الحسن: إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة. وقال إسحاق بن خلف: كان داود الطَّائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوتِ السَّموات والأرض، وهو ينظر إلى السَّماء ويبكي حتى وقع في دار جار لَه. قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وبيده سيف وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السَّيف، وقال: من الذي طرحك على السطح؟ قال: ما شعرت بذلك.

وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله عز وجل ثمَّ قال: يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه.

وقال الشَّافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصَّمت وعلى الاستنباط بالفكر، وقال أيضاً: صحة النَّظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم. الرؤية والفكر يكشفان عن الحرام، والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس، وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم.

وقال أيضاً: الفضائل أربعة إحداهما الحكمة وقوامها في الفكرة، والثانية العفة وقوامها في الشَّهوة، والثالثة القوة وقوامها في الغضب، والرابعة العدل وقوامها في اعتدال قوى النَّفس.

الباب الرابع والأربعون

في بيانِ شدة الموت

عن الحسن أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «**هو قدر ثلثمائة ضربة بالسَّيف**»، وسئل ﷺ عن الموت وشدته، فقال: «**إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصَّوف إلاَّ ومعها صوف**» ودخل ﷺ على مريض ثمَّ قال: «**إني أعلم ما يلقى، ما منه عِرْقٌ إلاَّ وبألم للموت على حدته**»، وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال. ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسَّيف أهون علي من موتي على فراشي.

وقال الأوزاعي: بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره. وقال شداد بن أوس: الموت أفظع من هول في الدُّنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشد نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدُّنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم.

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغهما بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يجزيه هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النَّار. وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيراً من المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل لَهُ: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السَّموات مطبقة على الأرض، وكأن نفسي يخرج من ثقب إبرة وقال ﷺ: «**موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر**».

وروي عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السَّموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى، لأن في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلاَّ مات**». ويروى ولو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدّنيا كلها لذابت.

ويُروى أن إبراهيم عليه السَّلام لما مات قال الله تعالى: كيف وجدت الموت يا خليلي؟ قال: كسفود جعل في صوف رطب ثمَّ جذب، فقال: أما إنا قد هونا عليك.

وروي عن موسى عليه السَّلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير.

وروي عنهُ أنهُ قال: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب. وروي عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه، ويقول: «**اللهم هون علي سكرات الموت**» وفاطمة رضي الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه وهو يقول: «**لا كرب على أبيك بعد اليوم**».

وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب حدثنا عن الموت فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشَّوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثمَّ جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى.

وقال ﷺ: «إن العبد ليعالج كرب الموت وسكراته، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السَّلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة» فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه، فما حالنا ونحنُ المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي، فإن دواهي الموت ثلاث، الأولى شدة النزع كما ذكرناه، والداهية الثَّانية مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول الروع والخوف منه على القلب، فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته».

فقد روي عن إبراهيم الخليل عليه السَّلام أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك. قال: بلى قال: فأعرض عني فأعرض عنهُ، ثمَّ التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشَّعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النَّار والدخان فغشي على إبراهيم عليه السَّلام، ثمَّ أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى. فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلاَّ صور وجهك لكان حسبه.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «أن داود عليه السَّلام كان رجلاً غيوراً وكان إذا خرج غلق الأبواب، فغلقها ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار، فقالت: من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه. فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنعهم مني الحجاب. فقال: فأنت والله إذاً ملك الموت وزمل داود عليه السَّلام مكانه».

وروي أن عيسى عليه السَّلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال تكلمي بإذن الله فقالت: يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينما أنا جالس في ملكي وعلي تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي إذا بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حيالِهِ، ثمَّ خرجت نفسي إليه فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة، ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون.

فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك، ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها.

فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيماً عليه السَّلام كان رجلاً غيوراً وكان لَهُ بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت. فقال: من

أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها. فقال أنا ربها: فقال: أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك، فقال: أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم فأعرض عني ثمَّ التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه. فقال: يا ملك الموت لو لم يلقى المؤمن عند الموت إلاَّ صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة الملكين الحافظين، قال وهيب: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى لَهُ ملكاه الكاتبان عمله فمن كان مطيعاً قالا لَهُ: جزاك الله عنا خير أقرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا، وإن كان فاجر قالا لَهُ: لا جزاك الله عنا خير أقرب مجلس سوء أجلستنا، وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله خيراً فذلك شخوص بصر الميت إليهما، ولا يرجع إلى الدُّنيا أبداً الداهية. الثَّالثة مشاهدة العصاة مواضعهم من النَّار، وخوفهم قبل المشاهدة فإنهم في حال السكرات، قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم، وأن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشرين، أما أبشر يا عدو الله بالنَّار أو أبشر يا ولي الله بالجنة، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب. وقد قال النبي ﷺ: **«لن يخرج أحدكم من الدُّنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النَّار»**.

الباب الخامس والأربعون

في بيانِ القبر وسؤاله

قال رسول الله ﷺ: **«يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بي إذ كنت تمر بي فذاذاً، فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر، فيقول: أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ فيقول القبر: إذا أتحول عليه خضر أو يعود جسده نوراً وتصعد روحه إلى الله تعالى»**، والفذاذ هو الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي.

وقال عبيد بن عمير الليثي: ليس من ميت يموت إلاَّ نادته حفرته التي يدفن فيها، أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد، فإن كنت في حياتك لله مطيعاً كنت عليك اليوم رحمة، وإن كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة، أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً، ومن دخلني عاصياً خرج مثبوراً.

وقال محمد بن صبيح: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره، ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف في الدُّنيا بعد إخوانه وجيرانه، أما كان لك فينا معتبر، أما كان لك في متقدم إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأتيت في الليلة فلا استدركت ما فات إخوانك. وتناديه بقاع الأرض: أيها المغتر بظاهر الدُّنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض ممن غرته الدُّنيا قبلك، ثمَّ سبق به أجله إلى القبور، وأنت تراه محمولاً تهاداه أحبته إلى المنزل الذي لا بد لَهُ منه.

وقال يزيد الرقاشي: بلغني أن الميت إذا وضِعَ في قبره احتوشته أعماله، ثمَّ أنطقها الله، فقالت: أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء الأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا.

وقال كعب: إذا وضِعَ العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصَّلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة، قال: فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصَّلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بي القيام لله عليهما، فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدُّنيا فلا سبيل لكم عليه، فيأتونه من قبل جسده فيقول: الحج والجهاد إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه، قال: فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين، حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه، قال: فيقال له: هنيئاً طبت حياً وطبت ميتاً قال: ويأتيه وملائكة الرحمة فتفرش لَهُ فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة، ويفسح لَهُ في قبره مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره.

وقال عبيد بن عمير في جنازة: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلاَّ قبره يقول: ويحك يا ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي فماذا أعددت لي؟»**.

وقال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه، ثمَّ قال: **«اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً»** ثمَّ قال: **«إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشّمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره، فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السَّماء والأرض، وكل ملك في السَّماء وفتحت أبواب السَّماء، فليس منها باب إلاَّ يحب أن يدخل**

بروحه منهُ فإذا صعد بروحه، قيل أي رب عبدك فلان فيقول: أرجعوه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته» ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتى يقال: يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ. قال: فينتهرانه انتهاراً شديداً وهي آخر فتنة تعرض على الميت، فإذا قال ذلك نادى منادان قد صدقت، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثَّابت﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٧] الآية.

ثمَّ يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول: أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم؛ فيقول: وأنت فبشرك الله بخير من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصَّالح، والله علمت أنك كنت لسريعاً إلى طاعة الله تعالى بطيئاً عن معصية الله فجزاك خيراً، قال: ثمَّ ينادي مناد أن افرشوا لَهُ من فرش الجنة، وافتحوا لَهُ باباً إلى الجنة فيفرش لَهُ من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة، فيقول: اللهم عجل قيام السَّاعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدُّنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار، وسرابيل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السَّماء والأرض، وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السَّماء، فليس منها باب إلاَّ يكره أنْ يدخل بروحه نبذ، وقيل: أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل: أرجعوه فأروه ما أعددت لَهُ من الشَّر إني وعدته ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال: يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فيقول: لا أدري. فيقال له لا دريت، ثمَّ يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول: أبشر بسخط الله وبعذاب أليم مقيم فيقول: بشرك الله بشر من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث والله إن كنت لسريعاً إلى معصية الله بطيئاً عن طاعة الله فجزاك الله شراً فبقول: وأنت فجزاك الله شراً، ثمَّ يقيض لَهُ أصم أعمى أبكم معهُ مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا، ولو ضرب بها جبل صار تراباً فيضربه بها ضربة فيصير تراباً، ثمَّ تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين، قال: ثم ينادي مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا لَهُ باباً إلى النَّار فيفرش لَهُ لوحان من نار ويفتح له باب إلى النَّار.

وقال محمد بن علي: ما من ميت يموت إلاَّ مثل لَهُ عند الموت أعماله الحسنة

وأعماله السيئة، قال: فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان، فتسل روحه كما تسل الشَّعرة من العجين ويقال: أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح الله وكرامته، فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة، وبعث بها إلى عليين، وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعاً شديداً، ويقال أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة، ومسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه، فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة، وإن لها نشيشاً ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين**».

وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربِّ أرجعون لعلي أعمل صالحاً﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠] فيما تركت، قال: أي شيء تريد وفي أي شيء ترغب، أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار؟ قال: لعلي أعمل صالحاً فيما تركت. قال فيقول الجبار: كلا إنها كلمة هو قائلها أي ليقولنها عند الموت.

وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**المؤمن في قبره روضة خضراء، ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون في ماذا أنزلت؟**»: ﴿فإنَّ لَهُ معيشة ضنكاً﴾ قال: «**في عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً هل تدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون، ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فإن عدد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصِّفات فإن لها أصولاً معدودة، ثمَّ تتشعب منها فروع معدودة، ثمَّ تنقسم فروعها بأقسام وتلك الصِّفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب، وما بينهما يؤذي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات، وانشعاب فروعها إلى أن مقدار عددها ما لا يوقف إلاَّ بنور النبوة**». فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة، وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف لَهُ حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أن درجات الإيمان التصديق والتسليم.

الباب السادس والأربعون

في بيان علم اليقين وعين اليقين والسؤال يوم العرض

قال الله تعالى: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ [سورة التكاثر: الآية ٥] يعني لو تعلمون أمر القيامة باليقين لألهاكم عن ذلك أي عن التكاثر والتفاخر، ولفعلتم ما ينفعكم من الخير ولتركتم ما لا ينفعكم، ويقال حقاً لو تعلمون علم اليقين كما يعلمه الرسل إن المال والحساب في الفخر لا ينفعكم يوم القيامة ما افتخرتم بالمال، وكثرة العدد لترون الجحيم أقسم الرب أنكم لترون النَّار وشدتها يوم القيامة عياناً ثمَّ لترونها عين اليقين.

يعني لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والمعاينة التي لا شك فيها، فإن قيل: ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين؟ قيل لَهُ: علم اليقين كان للأنبياء بنبوّتهم، وعين اليقين للملائكة لأنهم يعاينون الجنة والنَّار واللوح والقلم والعرش والكرسي فتكون لهم عين اليقين، وإن شئت قلت: علم اليقين علم الموت والقبور للأحياء لأنهم يعرفون بأن الأموات في القبور، لكن لا يدرون كيف حالهم فيها، وعين اليقين للأموات لأنهم عاينوا القبور إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النَّار، وإن شئت قلت: علم اليقين علم القيامة، وعين اليقين معاينة القيامة وأهوالها، وإن شئت قلت: علم اليقين علم الجنة والنَّار، وعين اليقين الرواية. ﴿ثمَّ لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ [سورة التكاثر: الآية ٨] يعني لتسألن يوم القيامة عن نعيم الدُّنيا من صحة الأبدان والأسماع والأبصار والمكاسب، وملاذ المآكل والمشارب وغير ذلك هل أديتم شكرها لمولاها وعرفتموها وآمنتم بها أم كفرتم بها؟.

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ [سورة التكاثر: الآية ١] يعني عن الطَّاعات ﴿حتى زرتم المقابر﴾ [سورة التكاثر: الآية ٢] يقول: حتى يأتيكم الموت ﴿كلا سوف تعلمون﴾ [سورة التكاثر: الآية ٣] يعني لو قد دخلتم قبوركم ﴿ثمَّ كلا سوف تعلمون﴾ [سورة التكاثر: الآية ٤] يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ [سورة التكاثر: الآية ٥] قال: لو قد وقفتم

على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿لترون الجحيم﴾ [سورة التكاثر: الآية ٦] وذلك لأن الصراط يوضع وسط جهنم فناج مسلم ومخدوش مسلم ومكدوش في نار جهنم ﴿ثمَّ لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ [سورة التكاثر: الآية ٨] يعني شبع البطون وبارد الشَّراب الشَّراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم. وعن علي رضي الله عنه قال: النعيم العافية. وعنه قال: من أكل خبز البر وشرب من الفرات مبرداً وكان لَهُ منزل يسكنه فذلك من النعيم الذي يسئل عنه.

وعن أبي قلابة عن النبي ﷺ في الآية قال: **«ناس من أمتي يعقدون السَّمن والعسل النقي فيأكلونه»** وعن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية قال الصحابة: يا رسول الله أي نعيم نحن فيه؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشَّعير فأوحى الله إلى نبيه ﷺ قل لهم: أليس تحتذون النعال وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم.

وروى الترمذي وغيره أنه لما نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿النعيم﴾. قالوا: يا رسول الله أي نعيم نسئل عنه وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر فعن أي نعيم نسئل؟ قال: **«أما إن ذلك سيكون»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال لَهُ: ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد؟»**.

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجَ النبيُّ ﷺ فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: **«ما أخرجكما من بيوتكما السَّاعة؟»** قالا: الجوع يا رسول الله. قال: **«والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما»** فقاما معه فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة. قالت: مرحباً فقال النبي ﷺ **«أين فلان؟»** فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه. فقال: الحمد لله ما أجد اليوم أكرم أضيافاً مني فانطلق فجاء بعذق فيه بر وتمر. وقال: كلوا من هذا، وأخذ المدية، فقال لَهُ رسول الله ﷺ: **«إياك والحلوب»** فذبح لهم فأكلوا من الشَّاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: **«والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة»**.

الباب السابع والأربعون

في فضل ذكر الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٢] قال ثابت البناني رحمه الله: إني اعلم متى يذكرني ربي عز وجل ففزعوا منهُ. وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني. وقال تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤١] وقال تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المسجد الحرام واذكروه كما هداكم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٨] وقال عز وجل: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩١] وقال تعالى: ﴿فإذا قضيتم الصَّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي باللّيل والنَّهار في البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصِّحة والسر والعلانية. وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٢] وقال عز وجل: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٥] وقال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لَهُ وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه، والآخر أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه إلى غير ذلك من الآيات.

وقال رسول الله ﷺ: **«ذاكر الله في الغافلين كالشَّجرة الخضراء في وسط الهشيم»**، وقال ﷺ: **«ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين»** وقال ﷺ: **«يقول الله عز وجل: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي»** وقال ﷺ: **«ما عمل ابن آدم من عمل أنجى لَهُ من عذاب الله من ذكر الله عز وجل»**، قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ وقال ﷺ: **«ولا الجهاد في سبيل الله إلاَّ أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثمَّ تضرب به حتى ينقطع ثمَّ تضرب به حتى ينقطع»**.

وقال ﷺ: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل» وسئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل». وقال ﷺ: «أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسي وليس عليك خطيئة».

وقال ﷺ: «لذكر الله عز وجل بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن عطاء المال سحا». وقال ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه، وإذا تقرب مني شبراً تقربت منهُ ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا مشى إلي هرولت إليه» يعني بالهرولة سرعة الإجابة.

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله من جملتهم رجل يذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله».

وقال أبي الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله عز وجل دائماً».

وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السّائلين». وقال الفضيل: بلغنا أن الله عز وجل قال: يا عبدي اذكرني بعد الصبح ساعة، وبعد العصر ساعة أكفل ما بينهما، وقال بعض العلماء: إن الله عز وجل يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه.

وقال الحسن: الذكر ذكر إن ذكر الله عز وجل بين نفسك، وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره، وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند حرم الله عز وجل ويروى أن كل نفس تخرج من الدّنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء، إلاّ على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها.

وقال رسول الله ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلاّ حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده» وقال ﷺ: «ما من قوم

اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلاَّ وجهه، إلاَّ ناداهم مناد من السَّماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات»، وقال ﷺ: «ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة».

وقال داود عليه السَّلام: إلٰهي إذا رأيتني أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين، فاكسر رجلي دونهم فإنها نعمة تنعم بها علي. وقال ﷺ: «المجلس الصَّالح يكفر عن المؤمن ألفي ألف مجلس من مجالس السُّوء».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أهل السَّماء ليتراؤون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النُّجوم.

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشَّيطان والدُّنيا. فيقول الشَّيطان للدُّنيا: ألا ترين ما يصنعون؟ فتقول الدُّنيا: دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنهُ دخلَ السُّوق وقال: أراكم هٰهنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد، فذهب النَّاسُ إلى المسجد وتركوا السُّوق، فلم يروا ميراثاً فقالوا: يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد قال: فماذا رأيتم؟ قالوا: رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل يقرأون القرآن، قال: فذلك ميراث رسول الله ﷺ.

وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عنه ﷺ أنهُ قال: «إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كتاب النَّاس فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل، وتنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون فيحفون بهم إلى السَّماء، فيقول الله تبارك وتعالى: أي شيء تركتم عبادي يصنعونه؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك، فيقول الله تبارك وتعالى: وهل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول جلَّ جلالُه: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك لكانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً، فيقول لهم: من أي شيء يتعوذون؟ فيقولون: من النَّار، فيقول تعالى: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول الله عز وجل: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد هرباً منها وأشد نفوراً. فيقول الله عز وجل: وأي شيء يطلبون؟ فيقولون: الجنة. فيقول تعالى: وهل رأوها؟ فيقولون: لا. فيقول تعالى: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً، فيقول جل جلاله: إني أشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقولون: كان فيهم فلان ابن فلان لم يردهم إنما جاء لحاجة، فيقول الله عز وجل: هم القوم لا يشقى جليسهم».

وقال ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إِلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك لَهُ»، وقال ﷺ: «من قال لا إِلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك لَهُ، لَهُ الملك ولَهُ الحمد، وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة، كانت لَهُ عدل عشر رقاب، وكتبت لَهُ مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت لَهُ حرز من الشَّيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء بِهِ إلاَّ أحدٌ عمل أكثر من ذلك» قال:

وقال ﷺ: «ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء، ثمَّ رفع طرفه إلى السَّماء، فقال: أشهد أنْ لا إِلٰه إلا الله وحده لا شريك لَهُ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلاَّ فتحت لَهُ أبواب الجنة يدخل من أيها شاء».

الباب الثامن والأربعون

في فضائلِ الصلوات

قال الله تعالى: ﴿إن الصَّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٣] وقال ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن، كان لَهُ عند الله عهد أن يدخلَهُ الجنة، ومن لم يأت بهم فليس لَهُ عند الله عهد إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة».

وقال ﷺ: «مثل الصَّلوات الخمس كمثل نهر عذب يمر بباب أحدكم يستحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقى من درنه؟». قالوا: لا شيء قال ﷺ: «فإن الصَّلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن» قال ﷺ: «إن الصَّلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» كما قال تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السَّيئات﴾ [سورة هود: الآية ١١٤] ومعنى يذهبنها يكفرنها حتى كأنها لم تكن، وأخرج البخاري ومسلم وأهل السُّنن وغيرهم عن ابن مسعود، أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فذكر لَهُ كأنه يسأل عن كفارتها فنزلت عليه ﴿وأقم الصَّلاة طرفي النَّهار﴾ [سورة هود: الآية ١١٤]. فقال الرجل: يا رسول الله إلي هذا؟ قال: «هي لمن عمل بها من أمتي».

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي أمامة أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أقم في حد الله مرة أو مرتين فأعرض عنهُ، ثمَّ أقيمت الصلاة فلما فرغ قال: «أين الرجل؟» قال: أنا ذا، قال: «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً؟» قال: نعم، قال:

«فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعدو» وأنزل الله على رسوله حينئذٍ: ﴿وأقم الصَّلاة طرفي النَّهار﴾ [سورة هود: الآية ١١٤] الآية.

وقال ﷺ: «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصُّبح لا يستطيعونهما»، وقال ﷺ: «من لقي الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ بشيء من حسناته»، وقال ﷺ: «الصَّلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين» وسئل ﷺ أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الصَّلاة لمواقيتها».

وقال ﷺ: «من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت لَهُ نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان»، وقال ﷺ: «مفتاح الجنة الصَّلاة» وقال: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحب منها لتعبد به ملائكته، فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد».

وقال النبي ﷺ: «من ترك الصَّلاة متعمداً فقد كفر» أي قارب أن ينخلع عن الإيمان، بانحلال عروته وسقوط عماده، كما يقال لمن قارب البلدة أنه بلغها ودخلها وقال ﷺ: «من تركَ الصَّلاة متعمداً فقد برىء من ذمة محمد عليه السَّلام».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: من توضأ فأحسن وضوئه، ثمَّ خرج عامداً إلى الصَّلاة فإنهُ في صلاة ما كان يعمد إلى الصَّلاة، وأنه يكتب لَهُ بإحدى خطوتيه حسنة، وتمحى عنه بالأخرى سيئة، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي لَهُ أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً، قالوا: لما يا أبا هريرة؟ قال: من أجل كثرة الخطى.

قال رسول الله ﷺ: «ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي» وقال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يسجد لله سجدة، إلاَّ رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة».

وروي أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك، وأن يرزقني مرافقتك في الجنة، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «أعني بكثرة السَّجود»، وقيل: أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى أن يكون ساجداً وهو معنى قوله عز وجل: ﴿واسْجُدْ واقتربْ﴾ [سورة العلق: الآية ١٩]. وقال عز وجل: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] فقيل: هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السُّجود وقيل: هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر وهي الأصح. وقيل: هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء.

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشَّيطان يبكي،

ويقول: يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد، فله الجنة وأمرت أنا بالسُّجود فعصيت فلي النَّار».

ويروى عن علي بن عبد اللَّه بن عباس أنه كان يسجد كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجّاد.

ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلاَّ على التراب، وكان يوسف بن سباط يقول: يا معشر الشَّباب بادروا بالصِّحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلاَّ رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك.

وقال سعيد بن جبير: ما آسي على شيء من الدُّنيا إلاّ على السُّجود، وقال عقبة بن مسلم: ما من خصلة في العبد أحبّ إلى الله عز وجل منه، حيث يخر ساجداً، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل، إذا سجد فأكثروا الدُّعاء عند ذلك.

الباب التاسع والأربعون

في بيان عقوبة تارك الصَّلاة

قال تعالى مخبراً عن أصحاب الجحيم: ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نكُ من المصلِّين ولم نكُ نطعم المسكين وكنّا نخوضُ مع الخائضين﴾ وأخرج أحمد وبين الرجل وبين الكفر ترك الصَّلاة، ومسلم بين الرجل وبين الشِّرك والكفر ترك الصَّلاة، وأبو داود والنسائي ليس بين العبد وبين الكفر إلاَّ ترك الصَّلاة، والترمذي بين الكفر والإيمان ترك الصَّلاة، وابن ماجه بين العبد وبين الكفر ترك الصَّلاة، وصح كما رواه الترمذي وغيره أنه ﷺ قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصَّلاة فمن تركها قد كفر».

والطَّبراني بإسناد لا بأس به من ترك الصَّلاة متعمداً فقد كفر جهاراً، وفي رواية بين العبد والكفر أو الشّرك ترك الصَّلاة، فإذا ترك الصَّلاة فقد كفر، وفي أخرى ليس بين العبد والشّرك إلاّ ترك الصَّلاة، فإذا تركها فقد أشرك، وفي أخرى سندها حسن عز الإسلام، وقواعد الدين ثلاث عليهن أسس الإسلام، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر، حلال الدم شهادة أن لا إله إلاَّ الله، والصَّلاة المكتوبة وصوم رمضان.

وفي أخرى سندها حسن أيضاً، من ترك منهن واحدة فهو بالله كافر، ولا يقبل منه

صرف ولا عدل وقد حل دمه وماله، والطّبراني وغيره بإسنادين لا بأس بهما عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه أوصاني خليلي عليه الصَّلاة والسَّلام بسبع خلال قال: لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو حرقتم أو صلبتم، ولا تتركوا الصَّلاة تعمداً فمن تركها متعمداً فقد خرج من الله، ولا تركبوا المعصية فإنها سخط الله، ولا تشربوا الخمر فإنها رأس الخطايا كلها الحديث، والترمذي كان أصحاب محمد عليه الصَّلاة والسَّلام لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصَّلاة، وصح خبر بين العبد وبين الكفر والإيمان الصَّلاة، فإذا تركها فقد أشرك، والبزار لا سهم في الإسلام لمن لا صلاة لَهُ، ولا صلاة لمن لا وضوء لَهُ.

والطَّبراني لا إيمان لمن لا أمانة لَهُ، ولا صلاة لمن لا طهور لَهُ، ولا دين لمن لا صلاة لَهُ، إنما موضع الصَّلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد.

وابن ماجه والبيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ أن: لا تشرك بالله شيئاً، وإن قطعت وإن أحرقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً، فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر.

والبزار وغيره بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قام بصري أي ذهب مع بقاء صحة الحدقة قيل: نداويك وتدع الصَّلاة أياماً؟ قلت: لا، أن رسول الله ﷺ قال: **«من ترك الصَّلاة لقي الله وهو عليه غضبان»**.

والطَّبراني بسند لا بأس به في المتابعات أتى رسول الله ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله علمني عملاً إذا أنا عملته دخلت الجنة؟ قال: **«لا تشرك بالله شيئاً وإن عذبت وحرقت، وأطع والديك وإن أخرجاك من مالك ومن كل شيء هو لك، ولا تترك الصَّلاة متعمداً، فإن من ترك الصَّلاة فقد برئت منه ذمة الله»** الحديث.

وفي رواية سندها صحيح لكن فيه انقطاع: **«لا تشرك بالله شيء وإن قتلت وحرقت، ولا تعقّن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمداً، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن الخمر، فإنه أي شربها رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حل سخط الله، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك النَّاس، وإن أصاب النَّاس موت فأثبت وأنفق على أهلك من طولك، ولا ترفع عصاك عنهم أدباً وأخفهم في الله»**.

وابن حبان في صحيحه بكروا بالصَّلاة في يوم الغيم، فإنه من ترك الصَّلاة فقد كفر.

والطَّبراني عن أميمة مولاة رسول الله ﷺ قالت: كنت أصب على رأس رسول الله ﷺ وضوءه، فدخل رجل، فقال: أوصني فقال ﷺ: «**لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت وحرقت بالنَّار، ولا تعص والديك وإن أمراك أن تخلي من أهلك ودنياك فتخله، ولا تشربن خمر فإنها مفتاح كل شر، ولا تتركن صلاة متعمداً فمن فعل ذلك برئت منه ذمة الله ورسوله**» الحديث.

وأبو نعيم من ترك الصَّلاة متعمداً كتب الله اسمه على باب النَّار ممن يدخلها، والطَّبراني والبيهقي من ترك الصَّلاة فإنما وتر أهله وماله. والحاكم عن علي أنه ﷺ قال: «**يا معشر قريش لتقيمن الصَّلاة ولتؤتن الزكاة، أو لأبعثن عليكم رجلاً فيضرب أعناقكم على الدين**» الحديث، والبزار لا سهم في الإسلام لمن لا صلاة لَهُ ولا صلاة لمن لا ضوء لَهُ، وأحمد مرسلاً أربع فرضهن الله في الإسلام، فمن أتى بثلاث لم يغنين عنه شيئاً، حتى يأتي بهن جميعاً الصَّلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت.

والأصبهاني من ترك صلاة متعمداً أحبط الله عمله، وبرئت منه ذمة الله حتى يرجع لله عز وجل توبة، والطَّبراني من ترك الصَّلاة فقد كفر جهاراً.

وأحمد بسندٍ صحيح لكن فيه انقطاع، لا تترك الصَّلاة متعمداً فإنه من ترك الصَّلاة فقد برئت منه ذمة الله ورسوله، وابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه موقوفاً عن علي رضي الله عنهُ، قال: من لم يصل فهو كافر ومحمد بن نضر وابن عبد البر موقوفاً على ابن عباس من ترك الصَّلاة فقد كفر.

وابن نصر موقوفاً على ابن مسعود قال: من ترك الصَّلاة فلا دين لَهُ، وابن عبد البر موقوفاً على جابر من لم يصل فهو كافر، وابن عبد البر وغيره موقوفاً على أبي الدرداء، قال: لا إيمان لمن لا صلاة لَهُ، ولا صلاة لمن لا وضوء لَهُ.

وقال ابن أبي شيبة: قال النبي ﷺ: «**من ترك الصَّلاة فقد كفر**» وقال محمد بن نصر: سمعت إسحاق يقول صح عن النبي ﷺ: «**إن تارك الصَّلاة كافر**» وكذلك كان رأي أهل العلم من لدن النبي ﷺ إن تارك الصَّلاة عمداً من غير عذر، حتى يذهب وقتها كافر.

وقال أيوب: ترك الصَّلاة كفر لا يختلف فيه، وقال تعالى: ﴿فخلفَ منْ بعدهمْ خلفٌ أضاعوا الصَّلاةَ واتبعوا الشَّهواتِ فسوفَ يلقونَ غيًا إلاَّ من تاب﴾ [سورة مريم: الآية ٥٩]، قال ابن مسعود: ليس معنى أضاعوها تركوها بالكلية، ولكن أخروها عن أوقاتها.

وقال سعيد بن المسيب إمام التابعين: هو أن لا يصلي الظّهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر إلى المغرب، ولا يصلي المغرب إلى العشاء ولا يصلي العشاء إلى الفجر، ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشَّمس، فمن مات وهو مصر على هذه الحالة ولم يتب أوعده الله بغي، وهو واد في جهنم بعيد قعره شديد عقابه.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ [سورة المنافقون: الآية ٩]. قال جماعة من المفسرين: المراد بذكر الله هنا الصَّلوات الخمس، فمن اشتغل عن الصَّلاة في وقتها بماله كبيعه أو صنعته أو ولده كان من الخاسرين، ولهذا قال ﷺ: «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح ونجح، وإن نقصت فقد خاب وخسر**».

وقال تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ [سورة الماعون: الآيتان ٤ ـ ٥] قال ﷺ: «**هم الذين يؤخرون الصَّلاة عن وقتها**» وأخرج أحمد بسندٍ جيد والطبَّراني وابن حبان في صحيحه أنهُ ﷺ ذكر الصَّلاة يوماً، فقال: «**من حافظ عليها كانت لَهُ نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، فمن لم يحافظ عليها لم يكن لَهُ نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف**».

قال بعض العلماء: وإنما حشر مع هؤلاء لأنه اشتغل عن الصَّلاة بماله أشبه قارون، فيحشر معه، أو بملكه أشبه فرعون فيحشر معهُ، أو بوزارته أشبه هامان فيحشر معه، أو بتجارته أشبه أبي بن خلف تاجر كفار مكة فيحشر معه.

والبزار عن سعد بن أبي وقاص سألت النبي ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال: «**هم الذين يؤخرون الصَّلاة عن أوقاتها**»، وأبو يعلى بسند حسن عن مصعب بن سعيد، قال: قلت لأبي: يا أبتاه أرأيت قوله تعالى: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ أينا لا يسهو أينا لا يحث نفسه؟ قال: ليس ذاك إنما هو إضاعة الوقت والويل شدة العذاب، وقيل: واد في جهنم لو سير فيه جبال لذابت من شدة حره فهو مسكن من يتهاون بالصَّلاة، ويؤخرها عن وقتها إلاَّ أن يتوب إلى الله تعالى ويندم على ما فرط.

وابن حبان في صحيحه من فاتته صلاة فكأنه وتر أهله وماله. والحاكم بسند فيه من اختلف في توثيقه والأكثر على عدمه فكأنما جمع بين صلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر والشَّيخان، والأربعة الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر بأهله وماله زاد ابن

خزيمة في صحيحة قال مالك: تفسيره ذهاب الوقت والنسائي أن هذه الصَّلاة صلاة من فاتته، فكأنما وتر أهله وماله يعني العصر، ومسلم والنسائي أن هذه الصَّلاة يعني العصر عرضت على من كان قبلكم فضيعوها، فمن حافظ منكم اليوم عليها كان لَهُ أجره اليوم مرتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشَّاهد أي النجم.

وأحمد والبخاري والنِّسائي من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله، وأحمد بإسناد صحيح وابن أبي شيبة: من ترك صلاة العصر متعمداً حتى تفوته فقد حبط عمله، وابن أبي شيبة مرسلاً من ترك العصر حتى تغيب الشَّمس من غير عذر فقد حبط عمله، وعبد الرزاق لأن يؤثر أحدكم أهله وماله خير لَهُ من أن تفوته صلاة العصر.

والطَّبراني وأحمد من ترك صلاة العصر متعمداً حتى تغرب الشَّمس، فكأنما وتر أهله وماله والشَّافعي والبيهقي من فاتته الصَّلاة، فكأنما وتر أهله وماله والبخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنهُ، قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم رؤيا فيقص عليه ما شاء الله أن يقص» وأنهُ قال لنا ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان، وأنهما بعثا بي، وأنهما قالا لي: انطلق وأني انطلقت معهما، وإذ أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيبلغ رأسه فيتدهده الحجر أي فيتدحرج فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثمَّ يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى قال: قلت لهما: سبحان الله ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق فأتينا على رجل مستلق على قفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر أي يشق شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعيناه إلى قفاه.

قال: وربما قال أبو رجاء فيشق، قال: ثمَّ يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثمَّ يعود عليه فيفعل مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك، حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثمَّ يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى، قال: قلت: سبحان الله ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: فأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات.

قال: فاطلعنا عليه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا أي بفتح المعجمتين وسكون الواوين صياح مع انضمام وفزع، قال: قلت ما هؤلاء؟ قال لي: انطلق انطلق.

قال: انطلق على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم، وإذا في النَّهر رجل سابح يسبح، وإذا على شاطىء النَّهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح، ثمَّ يرجع إليه كلما رجع إليه فغر أي بفاء معجمة مفتوحتين فتح فاه فألقمه حجراً، قلت لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآه كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مرئياً، وإذا عنده نار يحشها أي بمهملة مضمومة فمعجمه يوقدها ويسعى حولها.

قال: قلت لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق فانطلقنا على روضة معتمة أي طويلة النبات من أعتمِ إذا طال فيها كلِ نور الربيع، وإذا بين ظهران الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السَّماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم. قال: قلت: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم ولا أحسن منها. قالا لي: أرق فيها فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلنا فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر منهم كأقبح ما أنت راء. قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النَّهر، قال: إذا النهر معترض يجري كان ماءه المحض أي الخالص في البياض فذهبوا فوقعوا، ثمَّ رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن وهذا منزلك. قال: فسما أي ارتفع بصري صعداً بضمتين فوق، فإذا قصر مثل الربابة أي السَّحابة البيضاء. قالا لي: هذا منزلك، قال: قلت لهما: بارك الله فيكما فذراني فأدخله، قالا: أمَّا الآن فلا وأنت داخله، قال: قلت لهما: فإني رأيت منذ اللّيلة عجباً، فما هذا الذي رأيت؟ قالا لي: إنا سنخبرك أما الرجل الأول، والذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنهُ الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصَّلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، فإنهُ الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق، وأما الرجال والنِّساء العراة الذين هم مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني أما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النَّهر ويقلم الحجر، فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النَّار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن النَّار. وأما الرجل الطَّويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم وأما الولدان الذي حوله فكل مولود مات على الفطرة».

فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين. وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن، وشطر منهم قبيح، فإنهُ قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم».

وفي حديث البزار قال: ثمَّ أتى النبي ﷺ على قوم ترضخ رؤوسهم بالصَّخر كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء. قال: **«يا جبريل من هؤلاء؟»** قال: هؤلاء تثاقلت رؤوسهم عن الصَّلاة.

وأخرج الخطيب وابن النجار علم الإسلام، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدها ووقتها وسننها فهو مؤمن، وابن ماجة قال الله تعالى: افترضت على أمتك خمس صلوات، وعهدت عندي عهداً أن من حافظ عليهن لوقتهن أدخلته الجنة، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد لَهُ عندي، وأحمد والحاكم من علم أن الصَّلاة عليه حق واجب وأداها دخل الجنة.

والترمذي وقال حسن غريب والنسائي وابن ماجة: أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصَّلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضته. قال الرب انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة. ثمَّ يكون سائر عمله على ذلك، والنسائي أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصَّلاة، وأول ما يقضي به بين النَّاس في الدماء.

وأحمد وأبو داود والنِّسائي وابن ماجة والحاكم، أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أتمها كتبت لَهُ تامة، وإن لم يكن أتمها، قال لملائكته: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع؟ فيكملون بها فريضته، ثمَّ الزكاة كذلك ثمَّ تؤخذ الأعمال على حسب ذلك، والطَّبراني أول ما يسئل عنهُ العبد يوم القيامة ينظر صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وإن فسدت خاب وخسر.

وابن عساكر أول ما يحاسب به العبد صلاته، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله، يقول: انظروا هل لعبدي نافلة؟ فإن كانت لَهُ أتم بها الفريضة ثمَّ الفرائض كذلك لعائدة الله ورحمته.

وأحمد وأبو داود والنسائي والحاكم، أول ما يحاسب النَّاس به يوم القيامة من أعمالهم الصَّلاة، فيقول ربنا عز وجل لملائكته: وهو أعلم انظروا في صلاة عبدي أتمها أو نقصها، فإن كانت تامة كتبت تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً، قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان لَهُ تطوع لعبدي فريضته من تطوعه، ثمَّ يأخذ الأعمال على ذلك.

والطَّيالسي والطَّبراني والضِّياء في المختارة: **«أتاني جبريل من عند اللّه تبارك وتعالى، فقال: يا محمد إن الله عز وجل يقول: إني افترضت على أمتك خمس صلوات،**

فمن أوفى بهن على وضوئهن ومواقيتهن وركوعهن وسجودهن كان لَهُ بهن عهد أن أدخله الجنة، ومن لقيني قد انتقص من ذلك شيئاً فليس لَهُ عندي عهد إن شئت عذبته وإن شئت رحمته».

والبيهقي الصَّلاة ميزان فمن أوفى استوفى، والدَّيلمي الصَّلاة تسود وجه الشَّيطان، والصَّدقة تكسر ظهره، والتَّحابب في الله والتودد في العلم يقطع دابره، فإذا فعلتم ذلك تباعد منكم كمطلع الشَّمس من مغربها.

والترمذي وابن حبان والحاكم، اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذوي أمركم تدخلوا جنة ربّكم، وأحمد والشَّيخان وأبو داود والنَّسائي أحب الأعمال إلى الله تعالى الصَّلاة لوقتها، ثم بر الوالدين ثمَّ الجهاد في سبيل الله.

والبيهقي عن عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله في الإسلام؟ فقال: «**الصَّلاة لوقتها ومن ترك الصَّلاة فلا دين لَهُ والصَّلاة عماد الدين**»؛ ولذلك لما طعن عمر رضي الله عنه قيل لَهُ: الصَّلاة يا أمير المؤمنين قال: نعمت أما إنه لا حظّ لأحد في الإسلام أضاع الصَّلاة وصلى رضي الله عنه وجرحه يجري دمه.

وروى الذهبي أنَّهُ ﷺ قال: «**إذا صلى العبد الصَّلاة في أول الوقت صعدت إلى السَّماء، ولها نور حتى تنتهي إلى العرش فتستغفر لصاحبها إلى يوم القيامة، وتقول حفظك الله كما حفظتني، وإذا صلى العبد الصَّلاة في غير وقتها صعدت إلى السَّماء وعليها ظلمة، فإذا انتهت إلى السَّماء تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها**».

وأخرج أبو داود أنهُ ﷺ قال: «**ثلاث لا يقبل الله منه صلاتهم، وُذكر منهم من أتى الصَّلاة دباراً أي بعد أن تفوته**»، قال بعضهم: وورد في الحديث أن من حافظ على الصَّلاة أكرمه الله بخمس خصال، يرفع عنه ضيق العيش، وعذاب القبر ويعطيه الله تعالى كتابه بيمينه ويمر على الصراط كالبرق، ويدخل الجنة بغير حساب ومن تهاون عن الصَّلاة عاقبه الله بخمس عشر عقوبة، خمس في الدّنيا، وثلاث عند الموت، وثلاث في قبره، وثلاث عند خروجه من القبر، فأما اللواتي في الدُّنيا فالأولى تنزع البركة من عمره، والثَّانية تمحي سيما الصَّالحين من وجهه، والثَّالثة كل عمل يعمله لا يأجره الله عليه، والرابعة لا يرفع لَهُ دعاء إلى السَّماء، والخامسة ليس لَهُ في حظ في دعاء الصَّالحين، وأما التي عند الموت فإنه يموت ذليلاً، والثَّانية يموت جائعاً، والثَّالثة يموت عطشاناً ولو سقي بحار الدّنيا، وما

روي من عطشه، وأما التي تصيبه في قبره فالأولى يضيق عليه القبر حتى تختلف أضلاعه، والثّانية يوقد عليه القبر ناراً فيتقلب على الجمر ليلاً نهاراً، والثّالثة يسلط عليه في قبره ثعبان اسمه الشُّجاع الأقرع عيناه من نار وأظفاره من حديد طول كل ظفر مسيرة يوم يكلم الميت فيقول: أنا الشُّجاع الأقرع وصوته مثل الرعد القاصف، يقول: أمرني ربي أن أضربك على تضيـيع صلاة الصُّبح إلى طلوع الشَّمس، وأضربك على تضيـيع صلاة الظّهر إلى العصر، وأضربك على تضيـيع صلاة العشاء إلى الفجر، فكلما ضربه ضربة يغوص في الأرض سبعين ذراعاً، فلا يزال في القبر معذباً إلى يوم القيامة، وأما التي تصيبه عند خروجه من القبر في موقف القيامة فشدة الحساب وسخط الرب ودخول النَّار.

وفي رواية فإنه يأتي يوم القيامة وعلى وجهه ثلاثة أسطر مكتوبات، السَّطر الأول يا مضيع حق الله فآيس اليوم أنت من رحمة الله، وما ذكر هذا الحديث من قبيل العدد لا يوافق جملة الخمس عشرة لأن المفصل أربع عشرة فقط فلعل الراوي نسي الخامس عشر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إذا كان يوم القيامة يؤتى برجل فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيأمر الله به إلى النَّار، فيقول: يا رب بماذا؟ فيقول تعالى: بتأخيرك الصَّلاة عن أوقاتها وحلفك بي كاذباً.

قال بعضهم أيضاً: وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال يوماً لأصحابه: «**قولوا اللهم لا تدع فينا شقياً ولا محروماً**» ثمَّ قال ﷺ: «**أتدرون من الشقي المحروم؟**» قالوا: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «**تارك الصَّلاة**» قال أيضاً: ويروى أنه أول ما تسود يوم القيامة وجوه تاركي الصَّلاة، وأن في جهنم وادياً يقالُ لَهُ لملم فيه حيات كل حية بثخن رقبة البعير طولها مسيرة شهر تلسع تارك الصلاة فيغلي سمها في جسمه سبعين ثمَّ ينهري لحمه.

قال وروي: أن امرأة من بني إسرائيل جاءت إلى موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيـين، فقالت: يا نبي الله أذنبت ذنباً عظيماً، وقد تبت إلى الله تعالى فادع الله أن يغفر ذنبي ويتوب علي، فقال لها موسى: وما ذنبك؟ قالت: يا نبي الله زنيت وولدت ولداً وقتلته، فقال لها موسى عليه السَّلام: اخرجي يا فاجرة لئلا تنزل نار من السَّماء فتحرقنا بشؤمك، فخرجت من عنده منكسرة القلب، فنزل جبريل عليه السَّلام وقال: يا موسى: الرب تعالى يقول لك: لِمَ رددت التائبة يا موسى أما وجدت شر منها؟ قال موسى: يا جبريل ومن شر منها؟ قال تارك الصَّلاة عامداً متعمداً.

أيضاً روي عن بعض السَّلف أنهُ دفن أختاً لَهُ ماتت، فسقط منهُ كيس فيه مال في

قبرها، ولم يشعر به حتى انصرف عن قبرها، ثمَّ تذكرهُ فرجع إلى قبرها فنبشه بعدما انصرف النَّاس، فوجد القبر يشتعل عليها ناراً فرد التراب عليها ورجع إلى أمه باكياً حزيناً، فقال: يا أماه أخبريني عن أختي، وما كانت تعمل؟ قالت: وما سؤالك عنها؟ قال: يا أماه رأيتُ قبرها يشتعل ناراً، فبكت وقالت: يا ولدي كانت أختك تتهاون بالصَّلاة وتؤخرها عن وقتها فهذا حال من يؤخر الصَّلاة عن وقتها، فكيف حال من لا يصلي؟ فنسأل الله تعالى أن يعيننا على المحافظة عليها بكمالاتها في أوقاتها إنه كريم رؤوف رحيم.

الباب الخمسون

في بيانِ عرصات جهنم وعذابها

قال الله تعالى: ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٤] المراد بالجزء هنا الحزب والطَّائفة والفريق، وقيل: المراد بالأبواب الأطباق طبق فوق طبق قال ابن جريج: النَّار سبع دركات وهي جهنم ثمَّ لظى ثمَّ الحطمة ثمَّ السَّعير ثمَّ سقر ثمَّ الجحيم ثمَّ الهاوية؛ فأعلاها للموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين.

جهنم أعلى الطبقات ثمَّ بعدها تحتها ثمَّ كذلك كذا قيل والمعنى أن الله يجزي أتباع إبليس سبعة أجزاء فيدخل كل جزء وقسم دركه من النَّار والسبب فيه أن مراتب الكفر والمعاصي مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النَّار وقيل: جعلت سبعة أطباق على وفق الأعضاء السَّبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل؛ لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة.

وعن علي رضي الله عنهُ قال: أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيملأ الأول ثمَّ الثَّاني ثم الثَّالث حتى تملأ كلها، وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«لجهنم سبعة أبواب منها لمن سل السَّيف على أمتي»**.

وَرَوَى الطَّبراني في الأوسط، أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ في غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال: **«يا جبريل: ما لي أراك متغير اللون؟»** فقال: ما جئتك حتى أمر الله تعالى بمنافخ النَّار، فقال رسول الله ﷺ: **«يا جبريل صف لي النَّار أو انعت لي جهنم»** فقال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم، فأوقد عليها ألف عام حتى

ابيضت، ثمَّ أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثمَّ أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يطفأ لهيبها.

والذي بعثك بالحق نبياً لو أن قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات من في الأرض كلهم جميعاً، والذي بعثك بالحق لو أن خازناً من خزنة جهنم برز إلى أهل الدّنيا لمات من في الأرض كلهم جميعاً من قبح وجهه ونتن ريحه، والذي بعثك بالحق لو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النّار التي نعت الله في كتابه، وضعت في حبال الدّنيا لأرفضت وما تقاربت حتى تنتهي إلى الأرض السُّفلى.

فقال رسول الله ﷺ: «**حسبي يا جبريل لا ينصدع قلبي فأموت**». قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي! فقال: «**تبكي يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذي أنت فيه؟**» فقال: ما لي ولا أبكي وأنا أحق بالبكاء لعلي أكون في علم الله على غير الحالة التي أنا عليها، وما أدري لعلي أبتلى بما ابتلي إبليس، فقد كان من الملائكة وما أدري لعلي أبتلى بما ابتلي به هاروت وماروت.

قال: فبكى النبي ﷺ وبكى جبريل فما زالا يبكيان حتى نودي أن يا جبريل ويا محمد إن الله تعالى قد آمنكما أن تعصياه فارتفع جبريل، وخرج رسول الله ﷺ فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون. فقال: «**أتضحكون ووراءكم جهنم؟ فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما أسفتم الطّعام والشّراب ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل**» فنودي يا محمد لا تقنط عبادي إنما بعثتك مبشراً ولم أبعثك معسراً. فقال ﷺ: «**سددوا وقاربوا**».

وروى الإمام أحمد أنه ﷺ قال لجبريل: «**ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكاً قط؟**» قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النّار.

وَرَوىَ مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**».

الباب الحادي والخمسون

في بيانِ عذاب جهنم أيضاً

رَوى أبو داود والنِّسائي والترمذي وصححه واللفظ لَهُ، لما خلق الله تعالى الجنة والنَّار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فجاء ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلاَّ دخلها فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر ما أعددت لأهلها فيها، فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه وقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد، فقال: اذهب إلى النَّار فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضهم بعضاً فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها فأمر بها فحفت بالشَّهوات فقال: ارجع إليها فرجع إليها، فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلاَّ دخلها.

والبيهقي بسند لا بأس به عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ [سورة المرسلات: الآية ٣٢] قال: أما أني لست أقول كالشَّجرة، ولكن كالحصون والمدائن.

وأحمد وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه: ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والترمذي ويل واد بين جبلين يهوي فيه الكافر سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره.

وابن ماجة واللفظ لَهُ والترمذي: «**نعوذ بالله من جب الحزن**» قالوا: يا رسول الله وما جب الحزن؟ قال ﷺ: «**واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة**»، قيل: يا رسول الله من الذي يدخله؟ قال: «**أعد للقراء المرائين بأعمالهم، وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء الجورة**».

والطبَّراني في جهنم وادياً تستعيذ جهنم من ذلك الوادي كل يوم أربعمائة مرة أعد للمرائين من أمة محمد ﷺ، وابن أبي الدُّنيا أن في النَّار سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب، وكل شعب سبعون ألف حجر في كل حجر حية تأكل وجوه أهل النَّار، والبخاري في تاريخه بسند فيه نكارة إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف

شعب، وفي كل شعب سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت في كل بيت سبعون ألف بئر في كل بئر سبعون ألف ثعبان في شدق كل ثعبان سبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر أو المنافق حتى يواقع ذلك كله.

والترمذي بسند فيه انقطاع أن الصَّخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين خريفاً وما تفضي إلى قرارها، وكان عمر رضي الله عنه يقول: أكثر وذكر النَّار فإن حرها شديد وإن قعرها بعيد وإن مقامعها حديد، والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والبيهقي: لو أن حجر قذف به في جهنم لهوى بها سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها.

ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فسمعنا وجبة فقال النبي ﷺ: **«أتدرون ما هذا؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **«هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن حين انتهى إلى قعرها»**.

والطبراني عن سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ صوتاً هاله، فأتاه جبريل عليه السَّلام فقال رسول الله ﷺ: **«ما هذا الصوت يا جبريل؟»** فقال: هذه صخرة هوت من شفير جهنم من سبعين عاماً، فهذا حين بلغت قعرها، فأحب الله تعالى أن يسمعك صوتها، فما رؤي رسول الله ﷺ ضاحكاً ملء فيه حتى قبضه الله عز وجل.

وأحمد الترمذي وحسنه لو أن رصاصة مثل هذه وأشار إلى الجمجمة أرسلت من السَّماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل اللّيل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً اللّيل والنَّهار قبل أن تبلغ أصلها.

أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه لو أن مقمعاً من حديد جهنم وضع في الأرض فاجتمع لَهُ الثقلان ما أقلوه من الأرض، والحاكم وصححه لو ضرب الجبل بمقمع من حديد جهنم لتفتت فصار رماداً. (المقمع المطراق وقيل السوط).

وابن أبي الدّنيا أن الحجر الواحد منها لو وضع على جبال الدّنيا لذابت منه وأن مع كل إنسان منهم حجراً أو شيطاناً والحاكم وصححه أن الأرضين السَّبع بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، فالعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السَّماء، والحوت على صخرة والصخرة بيد ملك، والثانية سجن الريح، فلما أراد الله تعالى أن يهلكَ عاد أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلكهم، قال: يا رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثَّور، قال له الجبار: تبارك وتعالى إذن تكفىء الأرض وما عليها، ولكن

أرسل عليهم بقدر خاتم فهي التي قال الله في كتابه العزيز: ﴿من شيء أتتْ عليهِ إلاَّ وجعلته كالرميم﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٢].

والثَّالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم. وقالوا: يا رسول الله أللنار كبريت؟ قال: «**نعم، والذي نفسي بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الراوي لماعت**»، والخامسة فيها حيات جهنم إن أفواهها كالأودية تلسع الكافر اللسعة فلا يبقى منه لحم على عظم، والسَّادسة فيها عقارب جهنم أدنى عقرب منها كالبغال الموكفة تضرب الكافر ضربة تنسيه ضربتها حر جهنم والسَّابعة فيها إبليس مصفد بالحديد يد أمامه ويد خلفه، فإذا أراد الله أن يطلقه لمن شاء من عباده أطلقه.

وأحمد والطَّبراني وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه أن في النَّار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع أحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً، وأن في النَّار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموها أربعين سنة.

والترمذي وابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه عنه ﷺ في قوله تبارك وتعالى: ﴿كالمهل﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩] قال: كعكر الزيت فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه والترمذي، وقال: حسن غريب صحيح إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلب ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان(والحميم الماء الحار الذي يحرق.)

وقال الضَّحاك: الحميم يغلي منذ خلق الله السَّموات والأرض إلى يوم يسقونه، ويصب على رؤوسهن، وقيل: هو ما يجتمع من دموع أعينهن في حياض النَّار فيسقونه، وقيل غير ذلك وهو المذكور في قوله تبارك وتعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ [سورة محمد: الآية ١٥].

وأحمد والترمذي وقال غريب والحاكم: وقال صحيح على شرط مسلم عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ [سورة إبراهيم: الآيتان ١٦ ـ ١٧] قال: «**يقرب إلى ما فيه فيكرهه، فإذا دنا منهُ شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره**»، قال الله عز وجل: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾، وقال جل ذكره: ﴿وأن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشَّراب﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٩].

وأحمد والحاكم وصححه لو أن دلو من غساق يهرق في الدُّنيا لأنتن أهل الدُّنيا،

والغساق هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فليذوقوه حميم وغساق﴾ [سورة صٓ: الآية ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿إلاَّ حميماً وغساقاً﴾ [سورة النبأ: الآية ٢٥] واختلف فيه.

فعند ابن عباس رضي الله عنهما هو ما يسيل من جلد الكافر ونحوه وعند آخرين هو صديدهم، وقال كعب: هو عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غير ذلك، فيستنقع فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في عقبيه وكعبيه فيجر لحمه كما يجر المرء ثوبه والترمذي، وقال حسن: صحيح أنهُ ﷺ قرأ هذه الآية ﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢].

فقال ﷺ: **«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدّنيا لأفسدت على أهل الدُّنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟»**

وفي رواية فكيف بمن ليس لَهُ طعام غيره، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ [سورة المزمل: الآية ١٣] شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج والشَّيخان ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع، والمنكب مجمع رأس الكتف والعضد، وأحمد ضرس الكافر مثل أحد وفخذه مثل البيضاء أي وهو جبل ومقعده من النَّار كما بين قديد ومكة أي نحو ثلاثة أيام، وكثافة جلده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار، أي ملك باليمن لَهُ ذراع معروف المقدار كذا.

قال ابن حبان وغيره: وقيل: ملك بالعجم ومسلم ضرس، أو قال: ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث، والترمذي ولفظه قال رسول ﷺ: **«ضرس الكافر يوم القيامة مثل أُحد، وفخذه مثل البيضاء ومقعده من النَّار مسيرة ثلاث من الربذة»** أي كما بين المدينة والربذة، وأحمد بسند جيد ضرس الكافر يوم القيامة، مثل أحد وعرض جلده سبعون ذراعاً وعضده، وفخذه مثل ورقان البيضاء، ومقعده من النَّار ما بيني وبين الربذة.

وفي رواية ومقعده من النَّار مسيرة ثلاث مثل الربذة، وأحمد والطَّبراني وإسناده قريب من الحسن كما قالَهُ الحافظ المنذري والترمذي عن الفضيل بن يزيد: أن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطأه النَّاس، والفضيل بن يزيد عن أبي العجلان أن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتوطأه النَّاس، أخرجه البيهقي وغيره وهو الصَّواب.

قال النبي ﷺ: **«ويعظم أهل النَّار في النَّار حتى أن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه**

مسيرة سبعمائة عام، وأن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وأن ضرسه مثل أحد». وأحمد بسند صحيح، والحاكم وصححه عن مجاهد، قال ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا، قال: أجل والله ما تدري أن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً، تجري فيه أودية القيح والدم قلت: أنهار؟ قال: لا بل أودية.

الباب الثاني والخمسون

في بيانِ الخوف من الذَّنب

اعلم أن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى، وخشية انتقامه وسطوته وحذر عقابه وغضبه وبطشه ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [سورة النور: الآية ٦٣] جاء أنه ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلاَّ أعطاهُ الله ما يرجو وآمنه مما يخاف**».

وعن وهب بن ورد قال: كان عيسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم يقول: حب الفردوس وخشية جهنم يورثان الصَّبر عن المصيبة، ويبعدان العبد من لذات الدُّنيا وشهواتها ومعاصيها.

وعن الحسن قال: والله لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أنفق أحدهم عدد الحصى ذهباً يخشى أن لا ينجو لعظم الذنب في نفسه، وقال رسول الله ﷺ: «**هل تسمعون ما أسمع؟ أطت السَّماء وحق لها أن تئط، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلاَّ وملك ساجد لله تعالى أو قائم أو راكع، ولو تعلمون ما أعلَم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتمْ، أو لصعدتمْ إلى الصعدات أي الجبال تجأرون إلى الله تعالى خوفاً من عظم سطوتِه وشدة انتقامه**».

وفي رواية لا تدرون تنجون أو لا تنجون، وقال بكر بن عبد اللَّه المزني: من أتى الخطيئة وهو يضحك دخل النَّار وهو يبكي، وفي الحديث لو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن النَّار، وفي الصحيحين قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٤]، فقال: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس عم رسول**

الله، **لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً**».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون يا رسول الله، هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو يخالف الله؟ قال: «**لا، يا بنت أبي بكر يا بنت الصِّديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق، ويخاف أن لا يتقبل منه**».

رواه أحمد وقيل للحسن البصري: يا أبا سعيد كيف تصنع بمجالسة قوم يحدثونا عن الرجاء حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال لَهُ: إنك والله تصحب قوماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف، ولما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقربت وفاته قال لابنه: ويلك ضع خدي على الأرض لا أم لك، وويلي وأي ويل إن لم يرحمني، وقال ابن عباس: ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله بك الفتوح، ومصر بك الأمصار، وفعل بك وفعل؟ قال: وددت أن أنجو لا علي ولا لي وفي رواية لا أجراً ولا وزراً.

وكان زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهم، إذا توضأ وفرغ من وضوئه أخذته رعدة، فقيل له في ذلك فقال: ويحكم أتدرون إلى من أقوم ولمن أريد أن أناجي؟ وقال أحمد بن حنبل: الخوف يمنعني من أكل الطَّعام والشراب فما أشتهيه.

وفي الصَّحيحين أنه ﷺ ذكر من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلاَّ ظله رجلاً ذكر الله أي وعيده وعقابه خالياً ففاضت عيناه أي خوفاً مما جنتاه واقترفه من المخالفات والذنوب. وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «**عينان لا تمسهما النَّار عين بكت في جوف اللَّيل من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى**».

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله، وعيناً سهرت في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى**».

وأخرج الترمذي وقال حسن وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلج أَنْ يدخل النَّار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**»، قال عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله

عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله أحبُّ إلي من أتصدق بألف دينار، وقال عون بن عبد اللَّه: بلغني أنه لا تصيب دموع الإنسان من خشية الله مكاناً من جسده إلا حرم الله ذلك المكان على النَّار.

وكان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء أي فوران وغليان كغليان القدر على النَّار. وقال الكندي: البكاء من خشية الله تعالى تطفيء الدمعة منهُ، أمثال البحار من النَّار، وكان ابن السَّماك يعاتب نفسه، ويقول لها: تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين، ومع ذلك الجنة تطلبين أن تدخلينها، هيهات هيهات للجنة قوم آخرون، ولهم أعمال غير ما نحنُ عاملون.

وعن سفيان الثَّوري قال: دخلت على جعفر الصَّادق فقلت له: يا ابن رسول الله أوصني، قال: يا سفيان لا مروءة لكذوب ولا راحة لحسود ولا أخاء لملول ولا سؤدد لسيىء الخلق. قلت: يا ابن رسول الله ﷺ زدني، قال: يا سفيان كف عن محارم الله تكن عابد وارض بما قسم الله لك تكن مسلماً، واصحب النَّاس بما تحب أن يصحبوك به تكن مؤمناً، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره أي للحديث المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل، وشاور في أمرك الذين يخشون الله، قلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى طاعة الله، قلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: أدبني أبي بثلاث، قال لي: يا بني إن من يصحب صاحب السَّوء لا يسلم، ومن يدخل مدخل السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم، وقال ابن المبارك: سألت وهيب بن الورد أيجد طعم العبادة من يعصي الله تعالى؟ قال: لا. ولا. من يهم بمعصية الله تعالى.

وقال الإمام أبو الفرج بن الجوزي، الخوف هو النَّار المحرقة للشَّهوات، فإذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشَّهوة، وبقدر ما يكف عن المعصية، ويحث على الطَّاعة وكيف لا يكون الخوف إذاً فضيلة، به تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، كما علم من الآيات والأخبار كقوله تعالى: ﴿هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٤] وقوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ [سورة البينة: الآية ٨] وقوله تعالى: ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٥] وقال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤٦] وقال تعالى: ﴿سيذكر من يخشى﴾ [سورة الأعلى: الآية ١٠] وقال

تعالى لنا: ﴿يخشى الله من عباده العلماء﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم، وأخرج ابن أبي الدُّنيا أنه ﷺ قال: «إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه خطاياه، كما يتحات عن الشَّجرة اليابسة ورقها»، وقال ﷺ: «قال الله سبحانه وتعالى: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، إن أمنني في الدُّنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدّنيا أمنته يوم القيامة»؛ وقال أبو سليمان الداراني: كل قلب ليس فيه خوف من الله فهو خراب وقد قال الله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون﴾ [سورة الأعراف: الآية ٩٩].

الباب الثالث والخمسون

في بيان فضل التَّوبة

جاء في فضل التَّوبة آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [سورة النور: الآية ٣١] وقوله: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النَّفس التي حرم الله إلاَّ بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف لَهُ العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلاَّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ومن تاب وعمل صالحاً فإنهُ يتوب إلى الله متاباً﴾ [سورة الفرقان: الآيات ٦١ ـ ٧١].

والأحاديث في ذلك كثيرة أخرج مسلم أن الله يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النَّهار، ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيء اللّيل حتى تطلع الشَّمس من مغربها.

والترمذي وصححه أن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً أو سبعون سنة فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السَّموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشَّمس منهُ، وصحح أيضاً أن الله تعالى جعل بالمغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشَّمس من قبله، وذلك قوله تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٨] الآية قيل: وليس هٰذه الرواية ولا الأولى تصريح برفعه، كما صرح البيهقي انتهى ويجاب بأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي فله حكم المرفوع.

والطَّبراني بسند جيد للجنة ثمانية أبواب سبعة مغلقة، وباب مفتوح للتوبة حتى

تطلع الشَّمس من نحوه، وابن ماجة بسند جيد لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السَّماء، ثم تبتم لتاب الله عليكم، والحاكم وصححه من سعادة المرء أنْ يطولَ عمره ويرزقه الله الاتابة. والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التَّوابون.

والشَّيخان أن عبد أصاب ذنباً، فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي، فقال لَهُ ربه علم عبدي أن لَهُ رباً يغفر الذنب، ويأخذ به فغفر لَهُ، ثمَّ مكث ما شاء الله ثمَّ أصاب ذنباً آخر وربما قال: أذنب ذنباً آخر فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي، فقال ربه: علم عبدي أن لَهُ رباً يغفر الذنب ويأخذ بهِ فغفر لَهُ، ثمَّ مكث ما شاء الله تعالى، ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال: أذنبت ذنب آخر فقال يا رب: أني أذنبت ذنب آخر فاغفره لي، فقال ربه: علم عبدي أن لَهُ رب يغفر الذنب ويأخذ به، فقال ربه: غفرت لعبدي فليعمل ما شاء.

قال المنذري قوله: فليعمل ما شاء معناه والله اعلم أنه ما دام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ولم يعد إليه بدليل قوله، ثمَّ أصاب ذنباً آخر فليعمل إذا كان هذا دأبه ما شاء، لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره لا أن المعنى أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع، ثمَّ يعاوده فإن هذه توبة الكذابين.

وروى جماعة وصححوه أن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها، وإن زاد زادت حتى يغلق بها قلبه، فلذلك الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كلاَّ بلْ رانَ على قلوبهمْ ما كانوا يكسبون﴾ [سورة المطففين: الآية ٤١] والترمذي وحسنه أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر أي تبلغ روحه حلقومه.

والطَّبراني بسند حسن لكن فيه انقطاع والبيهقي بسند فيه مجهول عن معاذ قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فمشى ميلاً، ثمَّ قال يا معاذ: «**أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ورحم اليتيم وحفظ الجوار وكظم الغيظ ولين الكلام وبذل السَّلام ولزوم الإمام والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وقصر الأمل وحسن العمل وأنهاك أن تشتم مسلماً أو تصدق كاذباً أو تكذب صادقاً وتعصي إماماً عادلاً وأن تفسد في الأرض، يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر، وأحدث لكل ذنب توبة السّر بالسر والعلانية بالعلانية**».

والأصفهاني إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله حفظته ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه

ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة، وليس عليه شاهد من الله بذنب والأصفهاني أيضاً: النَّادم ينتظر من الله الرحمة، والمعجب ينتظر المقت واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله، ولا يخرج من الدّنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله وإنما الأعمال بخواتيمها، واللَّيل والنَّهار مطيتان فاحسنوا السَّير عليهما إلى الآخرة، واحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن النَّار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨].

والطَّبراني بسند صحيح لكن فيه انقطاع التَّائب من الذنب كمن لا ذنب لَهُ. ورواه البيهقي من طريق آخر وزادوا المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه، وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه النَّدم توبة أي أنه معظم أركانها كخبر الحج عرفة، ولا بد في النَّدم أن يكون من حيث المعصية وقبحها وخوف عقابها بخلافه لنحو هتك، أو ضياع مال على المعصية أو نحو ذلك.

والحاكم وصححه لكن فيه ساقط ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلاَّ غفر لَهُ قبل أن يستغفر منه، ومسلم وغيره والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم غيركم يذنبون ويستغفرون الله فيغفر لهم، ومسلم ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل.

ومسلم أن امرأة جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا، فقالت يا رسول الله: أصبت حداً فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: «**أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها**» ففعل. فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها، ثمَّ أمر بها فرجمت ثمَّ صلى عليها، فقال: عمر تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت، قال ﷺ: «**لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل مما جادت بنفسها لله عز وجل**»، والترمذي حسنه وابن حبان في صحيح والحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلاَّ مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات، ولكن سمعته أكثر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أوعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا. ولكنه عمل ما**

عملته قط، وما حملني عليه إلاَّ الحاجة. فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلته قط، اذهبي فهي لك وقال: لا والله لا أعصي بعدها أبداً، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه أن الله قد غفر للكفل». وصح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كانت قريتان إحداهما صالحة والأخرى طالحة، فخرج رجل من القرية الطالحة يريد القرية الصَّالحة، فأتاه الموت حين شاء الله، فاختصم فيه الملك والشَّيطان فقال: الشَّيطان والله ما عصاني قط، وقال الملك: إنه قد خرج يريد التوبة، فقضى الله بينهما أن ينظر إلى أيهما أقرب، فوجدوه أقرب إلى القرية الصَّالحة بشبر فغفر له، قال معمر: وسمعت من يقول قرب الله إليه القرية الصَّالحة.

والشَّيخان كان في من كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعون نفساً، فسأل عن اعلم أهل الأرض؟ فدل على راهب فأتاهُ، فقال لَهُ: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل لَهُ من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به المائة، ثمَّ سأل عن اعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينك وبين التَّوبة، انطلق إلى الأرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد معهم ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطَّريق أتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقالوا: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما هو أدنى كان لَهُ فقاسها، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة.

وفي رواية فكان إلى القرية الصَّالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها، وفي رواية أوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذا أقرب بشبر فغفر له، وفي رواية قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت ناء بصدره نحوها.

والطَّبراني بسند جيد أن رجلاً أسرف على نفسه فلقي رجلاً، فقال: إن الآخر قتل تسعة وتسعين نفساً كلهم ظلماً، فهل تجد لي من توبة؟ فقال: إن حدثتك أن الله لا يتوب على من تاب كذبتك، ههنا قوم يتعبدون فإليهم تعبد الله معهم، فتوجه إليهم فمات على ذلك، فاختصمت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فبعث الله إليهم ملكاً فقال: قيسوا ما بين المكانين فأيهم كان أقرب فهو منهم، فوجدوه هو أقرب إلى دير التوابين بأنملة فغفر لَهُ.

وفي رواية لَهُ ثمَّ أتى راهباً آخر، فقال: إني قتلت مائة نفس، فهل تجد لي من توبة؟

فقال: أسرفت ما أدري ولكن هنا قريتان قرية يقال لها نصرة، والأخرى يقال لها كفرة، فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة لا يثبت فيها غيرهم، وأما أهل كفرة فيعملون عمل أهل النَّار لا يثبت فيها غيرهم، فانطلق إلى نصرة فإن ثبت فيها وعملت عمل أهلها فلا شك في توبتك، فانطلق يريدها حتى إذا كان بين أهل القريتين أدركه الموت، فسألت الملائكة ربها عنهُ فقال: انظروا إلى أي القريتين كان أقرب فاكتبوه من أهلها، فوجدوه أقرب إلى نصرة بقيد أنملة فكتب من أهلها.

الباب الرابع والخمسون

في بيان النَّهي عن الظلم

قال الله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٢٧] وقال ﷺ: «**الظُّلم ظلمات يوم القيامة**» وقال ﷺ: «**من ظلم شبراً من أرض طوقه الله من أرضين يوم القيامة**»، وفي بعض الكتب يقول الله تعالى: اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد لَهُ ناصراً غيري وما أحسن قول بعضهم:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظُّلم يرجع عقباه إلى النَّدم
تنامُ عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله الآخر:

إذا ما الظلوم استوطأ الأرض مركباً ... ولج غلوا في قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الزمان فإنه ... سيبدي له ما لم يكن في حسابه

وقال بعض السلف: لا تظلمْ الضُّعفاء فتكون من شرار الأقوياء، وقال أبو هريرة رضي الله عنهُ: أن الحبارى لتموت هولاً في وكرها من ظلم ظالم، وقيل: مكتوب في التَّوراة ينادي منادي من وراء الجسر، يعني الصِّراط يا معشر الجبابرة الطُّغاة، ويا معشر المترفين الأشقياء، أن الله يحلف بعزته أن لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظلم ظالم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال: «**ألا تخبروني عنه بأعجب ما رأيتم في أرض الحبشة**» فقال قتيبة: وكان منهم علي يا رسول الله: بينما نحن قوماً جلوس، إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثمَّ دفعها فخرت المرأة على ركبتيها

وانكسرت قلتها، فلما قامت التفتت إليه، ثمَّ قالت: سوف تعلم يا غدار، إذا وضع الله الكرسي فجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، سوف تعلم ما أمري وأمرك عنده غداً، قال: فقال ﷺ: «**كيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم**»؟.

ورُوي عن رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: «**خمسة غضب الله عليهم، إن شاء أمضى غضبه عليهم في الدُّنيا، وإلاَّ ثوى بهم في الآخرة إلى النَّار أمير قوم يأخذ حقه من رعيته، ولا ينصفهم من نفسه، ولا يدفع الظلم عنهم، وزعيم قوم يطيعونه ولا يسوي بين القوي والضعيف، ويتكلم بالهوى، ورجل لا يأمر أهل وولده بطاعة الله، ولا يعلمهم أمر دينهم، ورجل استأجر أجيراً فاستعمله ولم يوفه أجره ورجل ظلم امرأة في صداقها**».

وعن عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنهُ أنَّهُ قال: إن الله تعالى لما خلق الخلق واستووا على أقدامهم رفعوا رؤوسهم إلى الله، وقالوا: يا رب من أنت؟ قال مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه.

وعن وهب بن منبه رضي الله عنه: بنى جبار من الجابرة قصراً وشيده فجاءت عجوز فقيرة فبنت إلى جانبه شيئاً تأوي إليه، فركب الجبار يوماً وطاف حول القصر فرأى بناءها، فقال: لمن هذا؟ فقيل: لامرأة فقيرة تأوي إليه، فأمر بهدمه فهدم فجاءت العجوز فرأته مهدوماً، فقالت: من هدمه؟ فقيل لها: الملك رآه فهدمه فرفعت العجوز رأسها إلى السَّماء، وقالت: يا رب أنا لم أكن حاضرة، فأنت أين كنت؟ قال: فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه.

وقيلَ لما حبس بعض البرامكة ولده. قال يا أبت: بعد العز صرنا في القيد والحبس. قال يا بني: دعوة مظلوم سرت بليل غفلنا عنها، ولم يغفل الله عز وجل عنها، وكان يزيد بن حكيم يقول: ما هبت أحداً قط هيبتي رجلاً ظلمته وأنا اعلم أنه لا ناصر لَهُ إلاَّ الله يقول لي: حسبي الله بيني وبينك.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: يجيء الظَّالم يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم فلقيه المظلوم وعرف ما في ظلمه، فما يبرح الذين ظلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات، فإن لم يجدوا لهم حسنات حملوا عليهم من سيئاتهم، ومثل ما ظلموهم حتى يردوا الدرك الأسفل من النَّار، وعن عبد اللَّه بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ: «**يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة، فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من**

قرب، أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة، فما فوقها ولا ينبغي لأحد من أهل النَّار أنْ يدخلَ النَّار، وعنده مظلمة حتى اللطمة، فما فوقها ولا يظلم ربك أحداً» قلنا يا رسول الله: كيف وإنما تأتي حفاة عراة؟ قال: «بالحسنات والسيئات جزاء وفاقاً ولا يظلم ربك أحداً» وعنه ﷺ أنَّهُ قال: «من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة».

ومما ذكر أن كسرى استحضر مؤدباً لولده يعلمه ويؤدبه، فلما بلغ الولد الغاية في الفضل والأدب، استحضره المؤدب يوماً وضربه ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب فحقد الولد على المعلم إلى أن كبر ومات أبوه فتولى الملك بعده، فاستحضر المعلم وقال لَهُ: ما حملك على أن ضربتني في يوم كذا ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب فقال له المعلم: اعلم أيها الملك أنك لما بلغت الغاية في الفضل والأدب علمت أنك تنال الملك بعد أبيك فأردت أن أذيقك طعم الضَّرب، وألم الظلم حتى لا تظلم أحداً بعد فقال لَهُ: جزاك الله خيراً ثمَّ أمر لَهُ بجائزة وصرفه.

الباب الخامس والخمسون

في النهي عن ظلم اليتيم

قال تعالى: ﴿إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ [سورة النساء: الآية ٨] قال قتادة: نزلت في رجل من غطفان، ولي مال ابن أخيه، وهو صغير يتيم فأكله وقوله ظلماً أي لأجله أو حال كونهم ظالمين، وخرج به أكلها بحق كأكل الولي بشروطه المقررة في كتب الفقه، قال تعالى: ﴿ومن كان غنياً فليستعففْ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ [سورة النساء: الآية ٦] أي بمقدار الحاجة فحسب، أو بأن يأخذ قرضاً أو بقدر أجرة علمه، أو إن اضطر فإن أيسر قضاه، وإلاَّ فهو في حل، وقد نبه الله تعالى على تأكيد حق الأيتام ومزيد الاعتناء به بقوله قبل هذه الآية ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولون قولاً سديداً﴾ [سورة النساء: الآية ٩] إذ المراد بشهادة السّياق خلافاً لمن حمل الآية على أنها في الوصية بأكثر من الثلث، أو نحو ذلك الحمل لمن كان في حجره يتيم على أنه يحسن إليه حتى في الخطاب، فلا يخاطبه إلاَّ بنحو يا بني مما يخاطب بهِ أولاده، ويفعل معهُ من البر والمعروف والإحسان والقيام في ماله ما يحب أن يفعل بماله وبذريته من بعدهِ، فإن الجزاء من جنس العمل

﴿مالك يوم الدين﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٤] أي الجزاء كما تدين تدان، أي كما تفعل يفعل معك، بينما الإنسان آمن متصرف في مال الغير وعلى أولاد غيره، وإذا بالموت قد حل به فيجزيه الله تعالى في ماله وذريته وعياله وسائر تعلقاته بنظير ما فعله مع غيره، إن خيراً فخير وإن شراً فشر فليخش العاقل على أولاده وماله إن لم يكن له خشية على دينه، ويتصرف على الأيتام الذين في حجره بما يحب أن يتصرف ولي أولاده لو كانوا أيتاماً عليهم في ماله.

وجاء أن الله تعالى أوحى إلى داود صلى الله على نبينا وعليه وسلم، يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم وكن للأرملة كالزوج الشَّفيق، واعلم أنك كما تزرع كذا تحصد، أي كما تفعل يفعل معك، إذ لا بد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم وامرأة أرملة وجاء في التشديد في أموال اليتامى والظلم فيها أحاديث كثيرة موافقة لما في الآية من ذلك الوعيد الشَّديد تحذيراً للنَّاس عن هذه الفاحشة الوخيمة المهلكة، اخرج مسلم وغيره يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وأني أُحبّ لك ما أُحبُّ لنفسي، لا تأمرون على اثنين ولا تلين مال يتيم، والشَّيخان وغيرهما اجتنبوا السَّبع الموبقات أي المهلكات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: «**الشَّرك بالله والسّحر وقتل النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم**» الحديث. والبزار الكبائر سبع الإشراك بالله وقتل النفس بغير حق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم الحديث.

والحاكم وصححه أربع حق على الله، أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها، مدمن خمر وآكل الربا وآكل مال اليتيم بغير حق والعاق لوالديه، وابن حبان في صحيحه أن من جملة كتابه ﷺ الذي أرسله مع عمرو بن حزم إلى أهل اليمن، وإنَّ أكبر الكبائر عن الله يوم القيامة الإشراك بالله وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار من الجهاد في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين ورمي المحصنة وتعلم السحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم.

وأبو يعلى: يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً، فقيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**الله يقول ألم تر**» ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ [سورة النساء: الآية ١٠]. وفي حديث المعراج عند مسلم فإذا أنا برجال قد وكل بهم رجال يفكرون لحاهم، وآخرون يجيئون بالصُّخور من النَّار فيقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم، فقلت: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً.

وفي تفسير القرطبي وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنهُ قال: «**رأيت ليلة أسري بي قواماً لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ مشافرهم، ثمَّ يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، فقلت يا جبريل: من هؤلاء**»؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً.

الباب السادس والخمسون

في بيان ذم الكبر

نذكر مما ورد في ذم الكبر زيادة على ما تقدم لشؤمه وسوء عاقبته، فهو أول معصية وقعت من إبليس، فلعنه الله وطرده من جنة عرضها السَّموات والأرض إلى عذاب السَّعير، ففي الحديث القدسي: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قصمته ولا أبالي.

وورد يحشر المتكبرون أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، ويسقون من طينة الخبال وهي عصارة أهل النَّار، وقال ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان. وملك جائر. وعائل مستكبر**». وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لَهُ اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٩] فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف فقتل فقام آخر فقال: تقتلون الذي يأمرون بالمعروف، فقتل المتكبر الذي خالفه والذين أمره كبرا.

وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل لَهُ اتق الله قال: عليك نفسك، وقال ﷺ لرجل: «**كُلْ بيمينك**» قال: لا أستطيع. فقال النبي ﷺ: «**لا استطعت، فما منعه إلاَّ كبره**» قال: فما رفعها بعد ذلك أي اعتلت يده، وروى ثابت بن قيس بن شماس، قال يا رسول الله: إني امرؤ حبب إلي من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: «**لا. ولكن الكبر من بطر الحق وغمص النَّاس**»، أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منهُ.

وقال وهب بن منبه: لما قال موسى عليه السَّلام: لفرعون آمن ولك ملكك. فال: حتى أشاور هامان فشاور هامان فقال هامان: بينما أنت رب تعبد إذ أنت عبد تعبد، فاستنكف عن عبوديته وعن اتباع موسى فأغرقه الله.

وقال قريش: فيما أخبر الله عنهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين

عظيم﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣١]، قال قتادة عظيم القريتين: هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ، إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢] ثمَّ أخبرهمْ الله عن تعجبهم حين دخلوا النَّار، إذا لم يروا فيها الذين ازدروهم كأهل الصفة، فقالوا: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار، قيل: يعنون عماراً وبلالا وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم.

قال وهب رضي الله عنه: العلم كالغيث ينزل من السَّماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم تحفظه الرجال على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً، وذلك لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً، علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وتواضعاً.

ولذلك قال ﷺ: «**فيما رواه العباس رضي الله عنه يكون قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا؟ ومن أعلم؟ ثمَّ التفت إلى أصحابه، وقال: أولئك منكم أيها الأمة أولئك هو وقود النَّار**»، وقال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرة العلماء فلم يف علمكم بجهلكم، روي أن رجلاً من بني إسرائيل يقال لَهُ خليع بني إسرائيل، لكثرة فساده مر برجل آخر يقالُ لَهُ عابد بني إسرائيل، وكان على رأس العابد غمامة تظله، فلما مر الخليع به قال الخليع في نفسه، أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعل الله يرحمني فجلس إليه، فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل، فكيف يجلس إلي؟ فأنف منه وقال لَهُ: قُمْ عني فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع، وأحبطت عمل العابد، وفي رواية أخرى فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع، وهذا يعرفك أن الله تعالى إنَّما يريد من العباد قلوبهم.

روي أن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم، فقالوا يا رسول الله: هذا الذي ذكرناه لك، فقال: «**إني أرى في وجهه سفعة من الشَّيطان**» فسلم ووقف على النبي ﷺ فقال لَهُ النبي ﷺ: «**أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك**»؟ قال: اللهم نعم. فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه.

قال الحرث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ: يعجبني من القراء كل

مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين مثله. روي عن أبي ذرّ رضي الله عنه أنَّهُ قال: قاولت رجلاً عند النبي ﷺ، فقلت لَهُ: يا أبي السَّوداء فقال النبي ﷺ: «**يا أبا ذرّ طف الصَّاع طف الصَّاع، ليس لابن البيضاء على ابن السَّوداء فضل**» فقال أبو ذرّ رحمهُ الله فاضطجعت، وقلت للرجل: قم فطأ على خدي.

وقال علي كرم الله وجهه: من أرادَ أنْ ينظرُ إلى رجل من أهل النَّار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام، وقال أنس: لم يكن شخص أحب إلى أصحابه من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لَهُ لما يعلمون من كراهته لذلك، وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب، فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وساوس الشَّيطان بالكبر والعجب، كما أخرج الثوب الجديد في الصَّلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين.

الباب السابع والخمسون

في بيانِ فضل التَّواضع والقناعة

قال رسول الله ﷺ: «**ما زاد الله عبداً بعفو إلاَّ عز، وما تواضع أحد لله إلاَّ رفعه**» وقال ﷺ: «**ما من أحد ومعهُ ملكان وعليه حكمة**[1] **يمسكانه بها، فإن هو رفع نفسه حبذاها، ثمَّ قالا: اللهم ضعه وإن وضع نفسه قالا: اللهم ارفعه**»، وقال ﷺ: «**طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة**».

وروي أن النبي ﷺ كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون، فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فأذن لَهُ، فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه ثمَّ قال لَهُ: «**أطعم فكأن رجلاً من قريش اشمأز منه وتكرهه**»، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها.

وقال ﷺ: «**خَيَّرَني ربِّي بين أمرين، أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً، فلم أدر أيهما**

---

(١) قوله حكمة: محركة ما أحاط بالحنك من اللجام كما في القاموس.

أختار، وكان في صفي من الملائكة جبريل فرفعت رأسي إليه، فقال: **تواضع لربك فقلت عبداً رسولاً»** وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السَّلام، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي، وقال ﷺ: **«الكرم والتقوى والشَّرف والتَّواضع واليقين الغنى»**.

وقال المسيح عليه السَّلام: طوبى للمتواضعين في الدُّنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلين بين النَّاس في الدُّنيا هم يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدُّنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة، وقال بعضهم: بلغني أن النبي ﷺ قال: **«إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن لَهُ ورزقه مع ذلك تواضعاً، فذلك من صفوة الله»** وقال ﷺ: **«أربع لا يعطيهن الله إلا من أحب الصَّمت وهو أول العبادة، والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدُّنيا»**.

ويروى أن رسول الله ﷺ كان يطعم، فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلاَّ قام من جنبه فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه، وقال ﷺ: **«إنَّهُ ليعجبني أن يحمل الرجل الشَّيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه»** وقال ﷺ لأصحابه يوماً: **«ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة»** قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: **«التواضع»**. وقال: **«إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فإن ذلك مذلة لهم وصغار»**؛ ومن أحسن ما قيل شعراً:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع

ومما جاء في فضل القناعة زيادة على ما تقدم قال ﷺ: **«عز المؤمن استغناؤه عن النَّاس ففي القناعة الحرية والعز»** ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، واحسن إلى من شئت تكن أميره، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال بعضهم: ما رأيت غنى أفضل من القناعة ولا فقر أشد من الرغبة وأنشد:

أفادتني القناعة ثوب عز ... وأي غنى أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعة
تجد ريحين تغني عن خليل ... وتنعم في الجنان بصبر ساعة

وقال آخر:

قنـع النفـس بـالكفـاف وإلا | طلبت منـك فـوق مـا يكفيهـا
إنمـا أنـت طـول عمـرك | ما عمرت في الساعة التي أنت فيها

وقال آخر:

إذا الـرزق عنـك نـأى فـاصطبـر | ومنـه اقنـع بـالـذي قـد حصـل
ولا تتعـب النفـس فـي تحصيلـه | فـإن كـان ثـم نصيـب وصـل

وقال آخر:

إذا أعطشتـك أكـف اللئـام | كفتـك القنـاعـة شبعـاً وريـا
فكـن رجـلاً رجلـه فـي الثـرى | وهـامـة همتـه فـي الثـريـا

وقال آخر:

يـا طـالـب الـرزق الهنـي بقـوة | هيهـات أنـت ببـاطـل مشغـوف
رعـت الأسـود بقـوة جيـف الفلا | ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

وكان رسول الله ﷺ إذا أصابته خصاصة، قال لأهله: «**قوموا إلى الصَّلاة**» ويقول: أمرت بهذا، ويقرأ ﴿وأمر أهلكَ بالصَّلاة واصطبرْ عليها﴾ [سورة طه: الآية ١٣٢] الآية.

وأنشدوا:

دع التهـافـت فـي الـدُّنيـا وزينتهـا | ولا يغـرنـك الإكثـار والجشـع
واقنع بما قسم الرحمٰن وارض به | إن القنـاعـة مـال ليـس ينقطـع
وخل ويك فضول العيش أجمعها | فليـس فيهـا إذا حققـت منتفـع

ولبعضهم:

اقنـع بمـا تلقـى بـلا بلغـة | فليـس ينسـى ربنـا النملـه
إن أقبـل الـدهـر فقـم قـائمـاً | وإن تـولـى مـدبـراً نـم لـه

ومن كلام الحكماء ليست العزة في حسن البزة، فإن التنعم بلبس الثياب والتجمل بحسن الزي، يشغل العبد حتى لا يعبأ بشيء من أمر دينه ميلا لدنياه وقلما يخلو صاحبه من العجب، وأنشد بعضهم:

رضيـت مـن الـدُّنيـا بلقمـة بـائـس | ولبـس عبـاء لا أريـد سـواهمـا
لأنـي رأيـت الـدّهـر ليـس بـدائـم | فـدهـري وعمـري فـانيـان كـلاهمـا

الباب الثامن والخمسون

في بيانِ غرور الدُّنيا

جميع أحوال الدُّنيا مصروفة إلى ما يسوء ويسر، فليست مساعدة جميع أهلها وإنما هي متلونة على ما اقتضته حكمة الحكيم، قال سبحانه: ﴿ولا يزالون مختلفين إلاَّ من رحم ربك﴾ [سورة هود: الآيتان ١١٨]، قال بعض المفسرين: مختلفين في الرزق يريد اختلافهم في الغنى والفقر، فمن الواجب على من ساعدتهُ دنياه، وأخدمها له مولاه أن يلتقي ذلك بشكره، ويتوجه إليه بصنائع المعروف، فإنها تقي مصارع السّوء ولا يغتر بدنياه وكفى بقوله تعالى: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدُّنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ [سورة لقمان: الآية ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني﴾ [سورة الحديد: الآية ١٤] الآية تنفيراً عن الغرور بها وقال ﷺ: «**حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبطون؟ سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين**».

وقال ﷺ: «**الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**». وقال الشاعر:

ومن يحمد الدُّنيا لشيء يسره ... فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال آخر:

تالله لو كانت الدُّنيا بأجمعها ... تبقى علينا ويأتي رزقها رغدا
ما كان في حق حر أن يذل لها ... فكيف وهي متاع يضمحل غدا

وأنشد ابن بسام:

أفٌ للدُّنيا وأيامها ... فإنها للحزن مخلوقه
همومها لا تنقض ساعة ... عن ملك فيها ولا سوقه
يا عجباً منها ومن شأنها ... عدوة للنَّاس معشوقه

وأنشد آخر:

وقــائلــة أرى الأيــام تعطــي | لئـام النَّـاس مـن رزق حثيـث
وتمنـعُ مـن لَـهُ شـرف وفضـل | فقلت لها خذي أصل الحديث
رأت حمل المكاسب من حرام | فجادت بالخبيث على الخبيث

وأنشد آخر أيضاً:

سـل الأيـام مـا فعلـت بكسـرى | وقيصـر والقصـور وسـاكنيهـا
أمـا استـدعتهـم للبيـن طـراً | فلـم تـدع الحليـم ولا السفيهـا

وحُكي أن أعرابياً نزل بقوم فقدموا إليه طعاماً فأكل، ثمَّ نام في ظل خيمتهم، فاقتلعوا الخيمة فأصابه حر الشَّمس فانتبه فارتحل وهو يقول:

إلا إنمـا الـدُّنيـا كظـل بنيتـه | ولا بـد يـومـاً إن ظلـك زائـل

وقال أيضاً:

إلا إنمـا الـدُّنيـا مقيـل لـراكـب | قضى وطـراً مـن منـزل ثـمَّ هجـرا

قال بعض الحكماء لصاحب لَهُ: قد أسمعك الداعي، وأعذر إليك الطالب ولا أحد أعظم رزية ممن ضيع اليقين وأخطأ العمل.

وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله غماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً وقال رسول الله ﷺ: **«من أحبَّ الدُّنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه»** وقال بعضهم: إن العبد يحاسب على التحزن على ما فاته من الدُّنيا، ويحاسب بفرحه في الدُّنيا إذا قدر عليها، ولقد كان السَّلف الصَّالح فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم أن الذي لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم، وكان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات وهي لمسعر بن كدام:

نهـارك يـا مغـرور نـوم وغفلـة | وليلـك نـوم والـردى لـك لازم
يغـرك مـا يفنـى وتفـرح بـالمنـى | كما غر باللذات في النوم حالم
وشغلـك فيهـا سـوف تكـره غبـه | كذلك في الدنيا تعيش البهائم

الباب التاسع والخمسون

في بيان ذم الدُّنيا والتحذير منها

روي عن أبي أُمامة الباهلي أنَّ ثعْلبة بن حاطب، قال: يا رسول الله ادعُ الله أَنْ يرزقني مالاً، قال: «**يا ثعْلبة قليلٌ تؤدي شكره خيرُ من كثيرٍ لا تطيقهُ**» قال: يا رسول الله ادعُ الله أنْ يرزقني مالاً، قال: «**يا ثعْلبة أما لكَ فيَ أُسوة أما تَرْضى أنْ تكونَ مثل نبي الله تعالى، أما والذي نفسي بيده لو شئت أنْ تسيرَ معي الجبال ذهباً وفضة لسارت**»، قال: والذي بعثك بالحق نبياً لئن دِعوت الله أنْ يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ولأفعلن ولأفعلن، قال رسول الله ﷺ: «**اللهُمَّ ارزق ثعْلبة مالاً**» فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزلَ وادياً من أوديتها حتى جعلَ يُصلي الظهر والعصر في الجماعة ويدع ما سواهما ثم نمت وكثرت، فتنحى حتى تركَ الجماعة إلاَّ الجُمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى تركَ الجمعة، وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة، فيسألهم عن الأخبار في المدينة.

وسألَ رسول الله ﷺ عنه، فقال: «**ما فَعَلَ ثَعْلَبة بن حَاطِبَ**» فقيل يا رسول الله اتخذ غنماً، فضاقت عليه المدينة وأخبر بأمره كله فقال: «**يا ويحَ ثعْلبة يا ويح ثعْلبة، ويا ويح ثعْلبة**» قال: وأنزل الله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣] وأنزل الله تعالى فرائض الصَّدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم على الصَّدقة، وكتب لهم كتاباً بأخذ الصَّدقة، وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصَّدقة من المسلمين، وقال: «**مرا بثعلبة بن حاطب وبفلان رجل من بني سليم وخذا صدقاتهما**»، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصَّدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلاَّ جزية ما هذه إلاَّ جزية أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثمَّ تعودا إليّ فانطلقا نحو السُّليمي فسمع، فقام إلى أخيار أسنان أبله فعزلها للصدقة ثمَّ استقبلهما بها فلما رأوها قالا: لا يجب عليك ذلك وما نريد أن نأخذها منك، قال بلى خذوها نفسي بها طيبة وإنما هي لتأخذاها، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصَّدقة فقال: أرياني كتابكما فنظر فيه فقال: هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ: فلما رآهما قال: «**يا ويح ثعلبة**» قبل أنْ يُكلماه، ودعا

للسّليمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، وبالذي صنع السليمي، فأنزل الله تعالى في ثعلبة ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصَّالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ [سورة التوبة: الآيات ٧٥، ٧٦، ٧٧] وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة، فقال: لا أم لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج حتى أتى النبي ﷺ فسأله أنْ يقبل منه صدقته، فقال: «إنَّ الله منعني أنْ أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثو التراب على رأسه فقال لَهُ رسول الله ﷺ: «هذا عملك أمرتك فلم تُطعني» فلما أبى أن يقبل منه شيء رجع إلى منزله، فلما قبضَ رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بَكر الصَّديق رضي الله عنهُ، فأبى أن يقبلها منه، وجاء بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منها، وتوفي ثعلبة بعد خلافة عثمان.

وقد روي عن جرير عن أنس قال صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السَّلام فقال: أكون معك وأصحبك فانطلقا حتى انتهيا إلى شط نهر، فجلسا يتغذيان ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب، ثمَّ رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري قال: فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها، فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منهُ فأكل هو وذاك الرجل ثمَّ قال للخشف: قُم بإذن الله فقام فذهب، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري ثمَّ انتهيا إلى وادي ماء، فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء فلما جاوزا قال له: اسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال لا أدري، فانتهيا إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السَّلام يجمع تراباً وكثيباً ثم قال: كن ذهباً بإذن الله تعالى فصار ذهباً، فقسمه ثلاثة أثلاث ثمَّ قال ثلث لي وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف، فقال أنا الذي أخذت الرغيف، فقال: كله لك، وفارقه عيسى عليه السَّلام فانتهى إليه رجلان في المفازة ومعه المال، فأراد أن يأخذاه منه ويقتلاه فقال: هو: بيننا أثلاثاً فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاماً نأكله قال: فبعثوا أحدهم فقال الذي بعث: لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال لكني أضع في الطَّعام سماً فاقتلهما وآخذ المال وحدي قال: ففعل. وقال ذلك الرجلان: لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا، قال: فلما رجع إليهما قتلاه، وأكلا الطَّعام فماتا فبقي ذلك المال في المفازة، وأولئك الثَّلاثة عنده قتلى فمر بهم عيسى عليه السَّلام على تلك الحالة فقال لأصحابه: هذه الدّنيا فاحذروها.

وحكي أنَّ ذا القرنين أتى على أُمة من الأُمم ليسَ بأيديهم شيء مما يستمتع به النَّاس من دنياهم، قد احتفروا قبور فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قيض لهم في ذلك معايش من نبات الأرض، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال لَهُ: أجب ذو القرنين فقال: ما لي إليه حاجة، فإن كان لَهُ حاجة فليأتني فقال: ذوالقرنين صدق. فأقبل ذو القرنين وقال لَهُ: أرسلت إليك لتأتيني فأبيت فها أنا قد جئت فقال: لو كان لي إليك حاجة لأتيتك فقال لَهُ ذو القرنين: ما لي أراكم على حالة لم أر أحداً من الأمم عليها قال: وما ذاك؟ قال: ليس لكم دنيا ولا شيء، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما، قال: إنما كرهناهما لأن أحداً لم يعط منهما شيئاً إلاَّ تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه، فقال: ما بالكم قد احتفرتم قبور، فإذا أصبحتم تعهدتموها فكنستموها وصليتم عندها قالوا: أردنا إذا نظرنا إليها وأمنا الدُّنيا منعتنا قبورنا من الأمل قال: وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها قالوا: كرهنا أن تجعل بطوننا قبوراً لها، ورأينا في نبات الأرض بلاغاً، وإنما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطَّعام، وأي ما جاوز الحنك من الطعام لم تجد لَهُ طعماً كائناً ما كان من الطَّعام، ثمَّ بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة، فقال يا ذا القرنين: أتدري من هذا؟ قال: لا. ومن هو؟ قال: ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا، فلما رأى الله سبحانه ذلك منه حسمه بالموت، فصارَ كالحجر الملقى، وقد أحصى عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته. ثمَّ تناول جمجمة أخرى بالية فقال يا ذا القرنين: هل تدري من هذا؟ قال لا أدري. ومن هو؟ قال: هذا ملك ملكه الله بعدما قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالنَّاس من الغشم والظلم والتجبر، فتواضع وخشع لله عز وجل، وأمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته، ثمَّ أشار إلى جمجمة ذي القرنين فقال: وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين. ما أنت صانع؟ فقال لَهُ ذو القرنين: هل لك في صحبتي فاتخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني الله من هذا المال قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان، ولا أن نكون جميعاً. قال ذو القرنين: وَلِمَ؟ قال: من أجل أن النَّاس كلهم لك عدو ولي صديق، قال: ولم؟ قال: يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدُّنيا، ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشّيء، قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً وما أحسن قول القائل:

يا من تمتع بالدُّنيا وزينتها ... ولا تنام عن اللذات عيناه
شغلت نفسك فيما ليس تدركه ... تقول لله ماذا حين تلقاه

وقول الآخر:

عتبت على الدُّنيا لرفعة جاهل ... وتأخير ذي فضل فقالت خذ العذرا
بنوا الجهل أبنائي لهذا رفعتهم ... وأهل التَّقوى أبناء ضرتي الأخرى

وقول محمود الباهلي:

إلا أنما الدُّنيا على المرء فتلة ... على كل حال أقبلت أو تولت
فإن أقبلت فاستقبل الشُّكر دائماً ... ومهما تولت فاصطبر وتثبت

الباب الستون

في فضلِ الصَّدقة

قال ﷺ: «**من تَصَدَّق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلاَّ طيباً فإن الله يقبلها بيمينه**»؛ أي متلبسة بيمينه وبركته ثمَّ يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه بفتح فضم فتشديد مهر أول ما يولد حتى تكون مثل الجبل؛

وفي رواية كما يربي أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٤] ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٦] ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلاَّ رفعه الله عز وجل. وفي رواية الطَّبراني ما نقصت صدقة من مال، وما مد عبده يده لصدقة إلاَّ ألقيت في يد الله، أي إلاَّ قبلها الله تعالى ورضي بها قبل أن تقع في يدِ السَّائل، وما فتح عبد باب مسألة لَهُ غنى إلاَّ فتح الله لَهُ باب فقر، ويقول العبد مالي مالي وإنما من ماله ثلاث ما أكل أو لبس، فأبلى أو أعطى فاقتنى ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للنَّاس.

وفي الخبر ما منكم من أحد إلاَّ سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلاَّ ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلاَّ ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلاَّ النَّار تلقاء وجهه، فاتقوا النَّار ولو بشق تمرة، وفي الخبر أيضاً ليق أحدكم وجهه من النَّار ولو بشق تمرة.

وقال ﷺ: «**الصَّدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النَّار**». يا كعب بن عجرة إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتاً على سحت، النَّار أولى به، يا كعب بن عجرة النَّاس غاديان فغاد في فكاك نفسه فمعتقها وغاد موبقها. يا كعب بن عجرة، الصَّلاة قربان، والصَّوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة، كما يذهب الجليد على الصَّفا.

وفي رواية كما يطفىء الماء النَّار إن الصدقة لتطفىء غضب الرب، وتدفع ميتة السوء، وفي رواية أن الله ليدرأ، أي يدفع بالصَّدقة سبعين باباً من ميتة السَّوء. وفي الحديث كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين النَّاس، وفي آخر لا يخرج رجل شيئاً من الصَّدقة حتى يفك عنها لحى سبعين شيطاناً. وقيلَ يا رسول الله: أي الصَّدقة أفضل؟ قال: جهد المقل وأبدأ بمن تعول، وقال ﷺ: «**درهم سبق مائة درهم**» فقال، رجل: كيف ذاك يا رسول الله؟ فقال: «**رجل لَهُ مال كثير أخذ من عرضه**» أي بضم أوله المهمل وبالضاد المعجمة «**جانبه مائة ألف درهم وتصدق بها، ورجل ليس لَهُ إلاَّ درهماً فأخذَ أحدهما فتصدق به**»، وقال ﷺ: «**لا ترد سائلك ولو بظلف**». هو بكسر أوله المعجم للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله. إلى أن قال: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، صنائع المعروف تقي مصارع السَّوء، وصدقة السر تُطفىء غضب الربّ، وصلة الرحيم تزيد في العمر**»، وفي رواية للطبراني «صنائع المعروف تقي مصارع السوء والصَّدقة خفياً تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدُّنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدُّنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف».

وفي أخرى لَهُ ولأحمد ما الصَّدقة يا رسول الله؟ قال: «**أضعاف مضاعفة وعند الله المزيد**» ثمَّ قرأ: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه لَهُ أضعافاً كثيرة﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] قيل: يا رسول الله أيّ الصدقة أفضل؟ قال: «**سر إلى فقير أو جهد من مقل**»، ثمَّ قرأ ﴿إن تبدوا الصَّدقات فنعماً هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧١] الآية من كسا مسلماً ثوباً لم يزل في ستر الله تعالى ما دام عليه من خيط أو سلك، أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُري كساه الله تعالى من خضر الجنة، وأيما مُسلم أطعمَ مُسلماً على جوع أطعمه الله تعالى من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم، الصَّدقة على المسكين صدقة وعلى ذي رحم اثنتان، أي

صدقة وصلة، أي الصَّدقة أفضل؟ قال: «على ذي الرحم الكاشح» أي المضمر لعداوتك في كشحه، أي خصره كناية عن باطنه، من منح منيحة لبن أي بأن أعطى لبوناً لمن يأكل لبنها ثمَّ يردها أو ورق أي بأن أقرض دراهم، أو هدى رفاقاً أي إلى الطَّريق كان لَهُ مثل عتق رقبة كل قرض صدقة.

وفي رواية عند جماعة: «رأيتُ ليلة أُسريَ بي على باب الجنة مكتوباً، الصَّدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر منْ يسر على معسر يسر الله عليه في الدُّنيا والآخرة» أي الإسلام خير قال: «تطعم الطَّعام وتقرىء السَّلام على من عرفت ومن لم تعرف» أنبئني عن كل شيء؟ قال: «كل شيء خلق من الماء» فقلت: أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة، قال: «أطعم الطَّعام وأفش السَّلام وصل الأرحام وصلِّ باللَّيل والنَّاس نيام تدخل الجنة بسلام»، اعبدوا الرَّحمٰن وأطعموا الطَّعام وأفشوا السَّلام تدخلوا الجنة بسلام، من موجبات الرحمة إطعام المسلم المسكين من أطعم أخاه حتى يشبعه، وسقاه من الماء حتى يرويه باعده الله من النَّار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام. إن الله عز وجل يقول: يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال: كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال: يا ربّ كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال: يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي.

الباب الحادي والستون

في قضاء حاجة أخيه المسلم

قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [سورة المائدة: الآية ٢] وقال ﷺ: «من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله»، وقال رسول الله ﷺ: «إن لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج النَّاس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنَّار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والنَّاس في الحساب»، وقال رسول الله ﷺ: «من سعى لأخيه المسلم في حاجة فقضيت لَهُ، أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما

تأخر، وكتب لَهُ براءتان براءة من النَّار وبراءة من النِّفاق»؛ وقال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلاَّ شفعت لَهُ» رواه أبو نعيم في الحلية.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله لَهُ بكل خطوة سبعين حسنة، وكفر عنه سبعين سيئة، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإن مات في خلال ذلك دخل، الجنة بغير حساب».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى مع أخيه المسلم في حاجة فناصحه فيها، جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق، ما بين الخندق والخندق كما بين السَّماء والأرض»، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عند أقوام نعماً يقرها عندهم ما داموا في حوائج النَّاس ما لم يملوا، فإذا ملوا نقلها إلى غيرهم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقول الأسد في زئيره»؟ قالوا: الله ورسوله اعلم قال: يقول: «اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف»، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس، وليقرأ إذا خرج من منزله سورة آل عمران وآية الكرسي، ﴿وإنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [سورة القدر: الآية ١] وأم الكتاب فإن فيها حوائج الدُّنيا والآخرة.

وعن عبد اللَّه بن الحسن بن الحسين رضي الله تعالى عنهم قال: أتيتُ باب عمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال: إذا كانت لك حاجة إلي فأرسل رسولاً، أو اكتب لي كتاباً فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهُ أنهُ قال: والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً، وإلاَّ خلق تعالى من ذلك السّرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره، حتى يطردها عنهُ كما تطرد غريبة الإبل، وقال: أيضاً فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها، وعنه أيضاً قال: لا تكثر على أخيك الحوائج، فإن العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحته وما أحسن قول الشَّاعر:

لا تقطعن عادة الإحسان عن أحد ... ما دمت تقدر والأيام تارات
واذكر فضيلة صنع الله إذ جعلت ... إليك لا لك عند النَّاس حاجات

وقول الآخر:

اقـض الحـوائـج مـا استطعـت وكـن لهـم أخيـك فـارج
فلخيـر أيـام الفتـى يـوم قضـى فيـه الحـوائـج

وقال ﷺ: «طوبى لمن أجريت الخير على يديه، وويل لمن أجريت الشَّر على يديه».

الباب الثاني والستون

في فضل الوضوء

قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين، لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدُّنيا، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، وفي لفظ آخر ولم يسه فيهما غفر لَهُ ما قدم من ذنبه وقال ﷺ أيضاً: «ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات، اسباغ الوضوء على المكاره، ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة» فذلكم الرباط ثلاث مرات وتوضأ ﷺ مرة، وقال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصَّلاة إلاَّ به»، وتوضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين وتوضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال: «هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي، ووضوء خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السَّلام».

وقال ﷺ: «من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله، ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلاَّ ما أصاب الماء» وقال ﷺ: «من توضأ على طهر كتب الله لَهُ به عشر حسنات» وقال ﷺ: «الوضوء على الوضوء نور على نور»، وهذا كله حث على تجديد الوضوء، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت من تحت أظفاره، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه، حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه، حتى تخرج من تحت أظفار رجليه»، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة لَهُ.

ويُروى أن الطَّاهر كالصَّائم وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثمَّ رفع طرفه إلى السَّماء، فقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك لَهُ وأشهد أنَّ محُمداً عبده ورسوله، فتحت لَهُ أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء». وقال عمر رضي الله

عنه: إن الوضوء الصَّالح يطرد عنك الشَّيطان، وقال مجاهد: من استطاع أن لا يبيت إلاَّ طاهراً ذاكراً مستغفراً، فليفعل فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

وَيُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وجه رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إلى مصر لكسوة الكعبة، فنزل الرجل بعض أرض الشَّام إلى جانب صومعة حبر من الأحبار، ولم يكن حبر أعلم منهُ، فأحب رسول عمر أن يلقاه فيسمع منهُ علمه فأتاه، واستفتح باب داره فلم يفتح لَهُ طويلاً، ثم دخلَ على الحبر، فسأله ليسمع منه فأعجبه علمه فشكى إليه حبسه على بابه، فقال لَهُ: الحبر إنا كنا رأيناك حين عدلت إلينا على هيبة السُّلطان فتخوفناك، وإنما حبسناك على الباب لأن الله تبارك وتعالى قال لموسى: يا موسى إذا تخوفت سلطاناً فتوضأ، وأمر أهلك بالوضوء فإن من توضأ كان في أمان مما يتخوف، فأغلقنا دونك الباب حتى توضأت وتوضأ جميع من في الدار، وصلينا فآمناك لذلك فتحنا لك الباب.

الباب الثالث والستون

في فضلِ الصَّلوات

لما كانت الصَّلاة أفضل العبادات كررنا الحث عليها اقتداء بكتاب الله العزيز، فمما ورد في فضلها زيادة على ما تقدم قوله عليه السَّلام: ما أعطى عبد عطاء خيراً من أن يؤذن لَهُ في ركعتين يصليهما. قال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى: لو خيرت بين ركعتين وبين الجنة لاخترت الركعتين في الجنة، لأن في الركعتين رضا الله تعالى. وفي الجنة رضائي، ويقال إن الله تعالى لما خلق سبع سموات حشاها بالملائكة، وتعبدهم بالصَّلاة لا يفترون ساعة، فجعل لكل أهل سماء نوعاً من العبادة فأهل سماء قيام على أرجلهم إلى نفخة الصُّور، وأهل سماء ركع وأهل سماء سجد وأهل سماء مرخية الأجنحة من هيبته تعالى، وأهل عليين وأهل العرش وقوف يطوفون حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، فجمع الله كل ذلك في صلاة واحدة كرامة للمؤمنين، حتى يكون لهم حظ من عبادة أهل السَّماء وزادهم القرآن يتلونه فيها، فطلب منهم شكرها وشكرها وإقامتها بشرائطها وحدودها قال الله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصَّلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ [سورة البقرة: الآية ٣] وقال: ﴿وأقيموا الصَّلاة﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] وقال: ﴿وأقم الصَّلاة﴾ [سورة هود: الآية ١١٤] وقال: ﴿والمقيمين الصَّلاة﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٢] فلم تجد

ذكر الصَّلاة في موضع من التنزيل إلاّ مع ذكر إقامتها، فلما بلغ ذكر المنافقين قال: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ [سورة الماعون: الآيتان ٤، ٥] فسماهم المصلين وسمى المؤمنين المقيمين الصَّلاة، وذلك ليعلم أن المصلين كثير، والمقيمين للصلوات قليل، فأهل الغفلة يعملون الأعمال على الترويج، ولا يذكرون يوم تعرض على الله فتقبل أم ترد.

ورُوي عن النبي عليه السَّلام إنه قال: «**أن منكم من يصلي الصَّلاة فلا يكتب لَهُ من صلاته إلاً ثلثها أو ربعها أو خمسها أو سدسها حتى ذكر عشرها، يعني إنه لا يكتب لَهُ من صلاته إلاً ما عقل منها**».

وروي عن النبي عليه السَّلام أنه قال: «**من صلى ركعتين مقبلاً على الله بقلبه خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»، وإنما عظم شأن صلاة العبد بإقبال العبد على الله، فإذا لم يقبل على صلاته ولها بحديث النفس، كان بمنزلة من وقف باب مالك معتذراً من خطيئته وذلته، فلما وصلَ إلى باب الملك قام بين يديه، وأقبل عليه الملك فجعل الواقف يلتفت يميناً وشمالاً فلم يقض الملك حاجته، وإنما يقبل الملك عليه على قدر عنايته، فكذلك الصَّلاة إذا دخل العبد فيها ولها عنها لا تقبل منه، واعلم أن مثل الصَّلاة كمثل وليمة اتخذها ملك وهيأ فيها ألواناً من الأطعمة والأشربة لكل لون لذة وفي كل لون منفعة ودعا النَّاس إليها، فكذلك الصَّلاة دعاهم الرب إليها وهيأ لهم فيها أفعالاً مختلفة، وأذكار متنوعة فتعبدهم بها ليلذذهم بكل لون من العبودية فالأفعال كالأطعمة والأذكار كالأشربة، وقد قيل: إن في الصَّلاة اثنتي عشر ألف خصلة، ثمَّ جمعت هذه الاثنتا عشرة ألفاً في اثنتي عشر خصلة، فمن أراد أن يصلي فلا بد أن يتعاهد هذه الاثنتي عشرة خصلة لتتم صلاته، فستة قبل الدخول في الصَّلاة، وستة فيها أولها العلم لأن النبي عليه السَّلام قال: «**عمل قليل في علم خير من علم كثير في جهل**»، والثَّاني الوضوء، قوله عليه السَّلام: «**لا صلاة إلاً بطهور**»، والثالث اللباس لقوله: «**خذوا زينتكم عند كل مسجد**» يعني البسوا ثيابكم عند كل مسجد والرابع حفظ الوقت لقوله عز وجل: ﴿**إن الصَّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٣] يعني فرضاً مؤقتاً، والخامس استقبال القبلة لقوله عز وجل: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٤] يعني نحوه، والسَّادس النية لقوله عليه السَّلام: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى**» والسابع التكبير لقوله عليه السَّلام: «**تحريمها التكبير وتحليلها التسليم**» والثَّامن القيام لقوله عز وجل: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨] يعني صلوا قائمين،

والتَّاسع الفاتحة لقوله عز وجل: ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] والعاشر الركوع لقوله عز وجل: ﴿واركعوا﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] والحادي عشر السُّجود لقوله عز وجل: ﴿واسجدوا﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٧] والثَّاني عشر القعود لقوله عليه السَّلام: «**إذا رفع الرجل رأسه من آخر السجدة وقعد قدر التشهيد فقد تمت صلاته**»، فإذا وجدت هذه الاثنتا عشر يحتاج إلى الختم، وهو الإخلاص لتتم هذه الأشياء لأن الله تعالى يقول: ﴿فاعبدوا الله مخلصين لَهُ الدين﴾ [سورة الزمر: الآية ٢].

فأمَّا العلم فعلى ثلاثة أوجه، أولها أن يعرف الفريضة من السَّنة، والثَّاني أن يعرف ما في الوضوء من الفريضة، والسَّنة أيضاً فإن ذلك من تمام الصَّلاة، والثَّالث أن يعرف كيد الشَّيطان فيأخذ في محاربته بالجهد.

وأما الوضوء فتمامه في ثلاثة أشياء، أولها أن تطهر قلبك من الغل والحسد والغش، والثَّاني أن تطهر البدن من الذنوب، والثَّالث أن تغسل الأعضاء غسلاً سابغاً بغير إسراف في الماء، وأما اللباس فتمامه بثلاثة أشياء، أولها أن يكون أصله من الحلال، والثَّاني أن يكون طاهراً من النَّجاسات، والثَّالث أن يكون موافقاً للسَّنة، ولا يكون لبسه على وجه الفخر والخيلاء، وأما حفظ الوقت ففي ثلاثة أشياء أولها أن يكون بصرك إلى الشَّمس والقمر والنُّجوم تتعاهد به حضور الوقت، والثَّاني أن يكون سمعك إلى الآذان، والثَّالث أن يكون قلبك متفكراً متعاهداً للوقت، وأما استقبال القبلة فتمامه في ثلاثة أشياء، أولها أن تستقبل القبلة بوجهك، والثَّاني أن تقبل على الله بقلبك، والثَّالث أن تكون خاشعاً ذليلاً، وأما النية فتمامها في ثلاثة أشياء، أولها أن تعلم أي صلاة تصلي، والثَّاني أن تعلم أنك تقوم بين يدي الله تعالى وهو يراك فتقوم بالهيبة، والثَّالث أن تعلم أنه يعلم ما في قلبك فتفرغ قلبك من أشغال الدُّنيا.

وأما التكبير فتمامه في ثلاثة أشياء، أولها أن تكبر صحيحاً جزماً، والثَّاني أن ترفع يديك حذاء أذنيك، والثَّالث أن يكون قلبك حاضراً فتكبر مع التعظيم، وأما تمام القيام ففي ثلاثة أشياء، أولها أن تجعل بصرك في موضع سجودك، والثَّاني أن تجعل قلبك إلى الله، والثَّالث أن لا تلتفت يميناً ولا شمالاً.

وأما تمام القراءة ففي ثلاثة أشياء، أولها أن تقرأ فاتحة الكتاب قراءة صحيحة بالترتيل بغير لحن، والثَّاني أن تقرأ بالتفكر وتتعاهد معانيها، والثَّالث أن تعمل بما تقرأ وأما تمام الركوع ففي ثلاثة أشياء، أولها أن تبسط ظهرك ولا تنكسه ولا ترفعه، والثَّاني أن تضع

يديك على ركبتيك وتفرج به أصابعك، والثَّالث أن تطمئن راكعاً وتسبح التَّسبيحات مع التَّعظيم والوقار، وأما تمام السجود ففي ثلاثة أشياء، أولها أنْ تضعَ يديك بحذاء أذنيك، والثَّاني أن لا تبسط ذراعيك، والثَّالث أن تطمئن فيه وتسبح مع التعظيم.

وأما تمام الجلوس ففي ثلاثة أشياء، أولها أنْ تقعدَ على رجلك اليسرى وتنصب اليمنى نصباً، والثَّاني أن تنشد بالتعظيم وتدعو لنفسك وللمؤمنين، والثَّالث أن تسلم على التمام. وأما تمام السَّلام فإن يكون مع النية الصادقة من قلبك إن سلامك على من كان عن يمينك من الحفظة والرجال والنِّساء، وكذلك عن يسارك ولا تجاوز بصرك عن منكبيك.

وأما تمام الإخلاص ففي ثلاثة أشياء، أولها أن تطلب بصلاتك رضا الله تعالى، ولا تطلب رضا النَّاس والثَّاني أن ترى التوفيق من الله تعالى، والثَّالث أن تحفظها حتى تذهب بها يوم القيامة لأن الله تعالى قال: ﴿من جاء بالحسنة﴾ [سورة القصص: الآية ٨٤]، ولم يقل من عمل الحسنة.

الباب الرابع والستون

في بيانِ أهوال القيامة

رويَ أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «أما عند ثلاث مواضع فلا عند الميزان حتى يعلم إما أنْ يخف وإما أن يثقل، وعند تطاير الصّحف إما أنْ يعطى كتابه بيمينه، وإما أنْ يعطى كتابه بشماله، وحين يخرج عنق من النَّار فينطوي عليهم، ويقول: وكلت بثلاثة وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر، وبكل جبار عنيد وبكل من لا يؤمن بيوم الحساب، فينطوي عليهم حتى يرمي بهم في غمرات جهنم، ولجهنم جسر أدق من الشّعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك، والنَّاس يمرون عليه كالبرق الخاطف وكالريح العاصف» الحديث.

وعن أبي هُريرة رضي الله عنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرغ الله من خلق السّموات والأرض خلق الصّور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخصاً ببصره إلى العرش ينتظر متى يأمر» قال: قلت: يا رسول الله وما الصّور؟ قال: «قرن من نور»؛ قلت: يا رسول الله كيف هو؟ قال: «عظيم الدارة والذي بعثني بالحق نبياً لعظم دارته كعرض السّماء والأرض، ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة للفزع ونفخة للصعق ونفخة للبعث، فتخرج

الأرواح كأنها النَّحل قد ملأت ما بين السَّماء والأرض، فتدخل في الأجساد من الخياشيم».

ثم قال النبي ﷺ: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض**» وفي خبر آخر: «**إذا أحيا الله تعالى** جبريل وميكائيل وإسرافيل فينزلون إلى قبر النبي ﷺ، ومعهم البراق وحلل من الجنة فتنشق عنه الأرض فينظر النبي ﷺ إلى جبريل. فيقول: «**يا جبريل ما هذا اليوم**»؟ فيقول لَهُ: هذا يوم القيامة، هذا يوم الحاقة، هذا يوم القارعة فيقول: «**يا جبريل ما فعل الله بأمتي**»؟ فيقول له جبريل: أبشر فإنك أول من تنشق عنه الأرض.

وروي عن أبو هُريرة أنه ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى يقول: يا معشر الجن والإنس أني نصحتُ لكم فإنما هي أعمالكُم في صُحفكُم، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلوم إلاَّ نفسه**».

ذكر عن يحيى بن معاذ الرَّازي أنه قرىء في مجلسه ﴿يوم يحشر المتقين إلى الرَّحمن وفداً﴾ [سورة مريم: الآية ٨٦] أي ركباناً ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ [سورة مريم: الآية ٨٧] يعني مشاة عطاشاً فقال: أيها النَّاس مهلاً مهلاً غداً تحشرون إلى الموقف حشراً، وتأتون من الأطراف فوجاً فوجاً، وتقفون بين يدي الله فرداً فرداً، وتسألون عما فعلتم حرفاً حرفاً، وتقاد الأولياء إلى الرَّحمٰن وفداً وفداً، ويرد العاصون إلى عذاب الله ورداً، ويدخلون جهنم حزباً حزباً، إخواني أمامكم يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون يوم الراجفة يوم الآزفة، يقوم النَّاس لرب العالمين يوم الحسرة والندامة يوم المناقشة يوم المحاسبة يوم المساءلة يوم الصيحة يوم الحاقة يوم القارعة يوم النشور يوم ينظر المرء ما قدمت يداه يوم التغابن يوم تبيض وجوه وتسود وجوه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم؛ يوم لا ينفع الظَّالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدَّار.

وقال مقاتل بن سليمان: تقف الخلائق يوم القيامة مائة سنة لا يتكلمون ومائة سنة في الظُّلمة متحيرون، ومائة سنة يموج بعضهم في بعض عند ربهم يختصمون، وأن يوم القيامة على طوله خمسين ألف سنة مما تعدون ليمضي على المؤمن المخلص كأخف صلاة مكتوبة، وقال ﷺ: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربعة أشياء عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن عمله فيما عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه**».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**لم يكن نبي قط إلاَّ كانت دعوته مستجابة فعجلها في الدُّنيا، وإني خبأت دعوتي وشفاعتي لأمتي يوم القيامة اللهم شفعه فينا بجاهه عندك ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم**».

الباب الخامس والستون

في صفة جهنم والميزان

لا بأس بذكر ذلك وأن تقدم التنبيه على بعضه، تتميماً للفائدة لعل تكرار المواعظ ينفع القلوب الغافلة الفاسدة، لا سيما وقد عظم الله سبحانه وتعالى هول جهنم وأحوال القيامة في كتابه في غير موضع بما يقع في قلوب العاقلين أعظم موقع تنبيهاً على أن ما سوى ذلك هين، والآخرة خير وأبقى، أما صفة جهنم أعاذنا الله منها بمنه وكرمه.

فقد روي الحديث إن جهنم سوداء مظلمة لا ضوء لها ولا لهب. لها سبعة أبواب لكل باب سبعون ألف جبل، في كل جبل سبعون ألف شعباً من نار، في كل شعبة سبعون ألف شق من نار، في كل شق سبعون ألف وادٍ من نار، في كل وادٍ سبعون ألف قصر من نار، في كل قصر سبعون ألف بيت من نار، في كل بيت سبعون ألف حية وسبعون ألف عقرب، لكل عقرب سبعون ألف ذنب لكل ذنب سبعون ألف فقار في كل فقار سبعون ألف قلة من سم، فإذا كان يوم القيامة كشف عنها الغطاء فيطير منها سرادق عن يمين الثقلين، وسرادق آخر عن يسارهم، وسرادق من فوقهم وآخر من ورائهم، فإذا نظر الثقلان إلى ذلك جثوا على الركب وصاروا ينادون كلهم رب سلم.

وروى مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»**.

وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«في عظم خزنة جهنم المشار إليهم»** بقوله تعالى: ﴿غلاظ شداد﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] كل ملك ما بين منكبيه مسيرة سنة، ولكل واحد منهم قوة لو أنه ضرب بالمقمع الذي في يده جبلاً لصار دكاً، فيدفع بكل ضربة سبعين ألفاً في قعر جهنم.

وأما قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ [سورة المدثر: الآية ٣٠] فالمرادُ بهم رؤساء الزبانية وإلاَّ فملائكة النَّار لا يعلم عددهم إلاَّ الله تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلاَّ هو﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] وسئل ابن عباس رضي الله عنه عن سعة جهنم، فقال: والله ما أدري ما سعتها، ولكن بلغنا أنَّ بين شحمة أذن كل واحد من الزبانية وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً

يعني سبعين سنة، وأنها تجري فيها أودية القيح والدم، وفي حديث التّرمذي إن كثافة كل سرادق من سرادقات النَّار أي كثافة جداره أربعين سنة.

وروى مُسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ ناركُم هذه جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم**» قالوا: يا رسول الله وإن كانت لكافية؟ فقال: «**أنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها**» وقال ﷺ: «**لو أنَّ جهنمياً من أهل جهنم أخرج كفه إلى أهل الدُّنيا لاحترقت الدُّنيا من حرها، ولو أنَّ خازناً من خزنة جهنم أخرج إلى أهل الدُّنيا حتى يبصروه، لمات أهل الدُّنيا حين يبصرونهُ من غضب الله تعالى الذي عليه**».

وروى مُسلم، وغيره أنَّ رسول الله ﷺ كان جالساً مع أصحابه إذ سمعَ وجبة فقال النبي ﷺ: «**أتدرون ما هذا**»؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: «**هذا حجر رُمي به في نار جهنم منذ سبعين خريفاً**» فهو يهوي في النَّار الآن حين انتهى إلى قعرها والوجبة هي الهدة وهي صوت وقع الثقيل.

وكان عمر بن الخطَّاب يقول: أكثروا ذكر النَّار فإنَّ حرها شديد، وقعرها بعيد وأن مقامعها من حديد، وكان ابن عباس يقول: إنَّ النَّار تلتقط أهلها كما يلتقط الطَّائر الحب.

وسُئل رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿إذا رأتهم من مكانٍ بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ [سورة الفرقان: الآية ١٢] فهل للنَّار عينان؟ فقال: نعم. أما سمعتم قوله ﷺ: «**من كذب عليَّ مُتعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً**». قيل: يا رسول الله ولها عينان؟ قال: «**أما سمعتُم قوله تعالى: ﴿إذا رأتهُم من مكان بعيد﴾**» الحديث، ويؤيده حديث يخرج عنق من النَّار له عينان يبصران ولسان ينطق به فيقول: إني وكلت اليوم بمن جعل مع الله إلهاً آخر، فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فليلتقطه.

وأما صفة الميزان، فقد ورد في الحديث إن كفة الحسنات من نور، وكفة السيئات من ظلام.

وروى التّرمذي أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الجنة توضع عن يمين العرش والنَّار عن يساره، وكفة الحسنات عن يمينه، وكفة السيئات عن يساره، فتكون الجنة مقابلة الحسنات، والنَّار مقابلة السيئات**»، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: توزن الحسنات والسَّيئات في ميزان لَهُ كفتان ولسان، وكان يقول: إذا أرادَ الله وزن أعمال العباد قلبها أجساماً، فيزنها يوم القيامة.

الباب السادس والستون

في بيان ذم الكبر والعجب

اعلم أرشدني الله وإياك خير الدُّنيا والآخرة، أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع سماع النُّصح وقبول التأديب ولذلك قالوا: العلم يضيع بين الحياء والكبر، العلم حرب المتعالي كما أن السيل حرب للبناء العالي.

قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر**» وقال ﷺ: «**من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه**»، وقال الحكماء: لا يدوم الملك مع الكبر، وقد قرن الله سبحانه وتعالى الكبر بالفساد، فقال تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ [سورة القصص: الآية ٨٣] وقال تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٦] قال بعض الحكماءِ: ما رأيت متكبراً إلاَّ تحول ما به بي، يعني أتكبر عليه وكان ابن عرانة من أقبح النَّاس كبراً.

روي أنه قال لغلامه: اسقني ماء فقال: نعم، فقال: إنَّما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه ودعا أكاراً فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته، ويقال: فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر.

قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ومن العرب بنو جعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عدي، وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون النَّاس إلا عبيداً وأنفسهم إلا أرباباً. وقيل لرجل من بني عبد الدار: ألا تأتي الخليفة؟ فقال أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي، وقيل للحجاج بن أرطاة: ما لك لا تحضر الجماعة؟ قال: أخشى أن يزاحمني البقالون، وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً، وقال لمعاوية أعرض هذه الأرض عليه واكتبها لَهُ، فخرج معه معاوية في هاجرة شديد ومشى خلف ناقته فأحرقه حر الشَّمس، فقال له: أردفني خلفك على ناقتك. قال: لست من أرداف الملوك قال: فأعطني نعليك قال: ما بخل يمنعني يا ابن أبي سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أفيال اليمن أنك لبست نعلي، ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك شرفاً، وقيل: إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السَّرير وحدثه، وقال المسور بن هند لرجل:

أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا المسرور بن هند قال: ما أعرفك. قال: فتعساً لمن لم يعرف القمر وفي مثله يقول الشاعر:

قــولا لأحمــق يلــوي التيــه أخــدعــه   لــو كنــت تعلــم مــا فــي التيــه لــم تتــه
التيـــه مفســـدة للـــديـــن منقصـــة   للعقـــل مهلكـــة للعـــرض فـــانتبـــه

وقيلَي لا يتكبر إلاَّ كل وضيع، ولا يتواضع إلاَّ كل رفيع. وقال ﷺ: «**ثلاث مهلكات شح مطاع وهوىً متبع وإعجابُ المرء بنفسه**».

وعن عبد اللَّه بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**أن نوحا عليه السَّلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشَّرك والكبر، وآمركما بلا إله إلاَّ الله فإن السَّموات والأرض وما فيهن، لو وضعت في كفة الميزان ولا إلٰه إلا الله في الكفة الأخرى، كانت لا إلٰه إلا الله أرجح منها، ولو أن السَّموات والأرض كانتا في حلقة، فوضعت لا إلٰه إلا الله عليهما لقصمتهما، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء**».

وقال عيسى عليه السَّلام: طوبى لمن علمه الله كتابه ولم يمت جباراً، وعن عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنه، أنه مر في السَّوق وعليه حزمة من حطب فقيل له: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا؟ قال: أردت أن أدفع الكبر عن نفسي، وفي تفسير القرطبي في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهن﴾ [سورة النور: الآية ٣١] إن فعلنه تبرجاً وتعرضاً للرجال حرم، وكذا من ضرب بنعليه من الرجال عجباً حرم لأن العجب كبيرة.

الباب السابع والستون

في الإحسان إلى اليتيم واجتناب الظلم

أخرج البُخاري: «**أنا، وكافل اليتيم في الجنة كهذين**» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى، وفرج بينهما: «**ومُسلم كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة**» وأشار مالك بالسبابة والوسطى، والبزار «**من كفل يتيماً لَهُ ذو قرابة أو لا قرابة له فأنا وهو في الجنة كهاتين**» وضم أصبعيه ومن سعى على ثلاث بنات، فهو في الجنة، وكان له كأجر المجاهد في سبيل الله صائماً قائماً، وابن ماجة من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره وغدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله، وكنت أنا وهو في الجنة

أخوين كما أن هاتين أختان وألصق أصبعيه السَّبابة والوسطى.

والترمذي وصححه من قبض يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الجنة البتة، إلاَّ أن يعمل ذنباً لا يغفر لَهُ، وفي رواية سندها حسن حتى يستغنى عنهُ وجبت لَهُ الجنة البتة، وابن ماجه خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساءُ إليهِ. وأبو يعلى بسند حسن أنا أول من يفتح باب الجنة، إلاَّ أني أرى امرأة تبادرني، فأقول: ما لك؟ ومن أنت؟ تقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي. والطَّبراني بسند رواته ثقات إلاَّ واحداً مع ذلك ليس بالمتروك، والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة، من رحم اليتيم والآن لَهُ في الكلام، ورحم يتمه وضعفه ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله.

وأحمد وغيره من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلاَّ لله، كانت لَهُ في كل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين الحديث. وأخرج جماعة وصححه الحاكم أن الله تعالى، قال: ليعقوب أنَّ سبب ذهاب بصره وإنحناء ظهره، وفعل إخوة يوسف أنه أتاه يتيم مسكين صائم جائع، وقد ذبح هو وأهله شاة فأكلوها ولم يطعموه، ثمَّ أعلمه الله تعالى بأنه لم يحب شيئاً من خلقه حبه لليتامى والمساكين، وأمره أن يصنع طعاماً ويدعوا المساكين ففعل.

والشَّيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّاعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله تعالى**» وأحسبهُ قال: وكالقائم لا يفتر وكالصَّائم ثمَّ لا يفطر. وابن ماجة السَّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يقوم باللَّيل ويصوم النَّهار.

قال بعض السلف: كنت في بدء أمري سكيراً مكباً على المعاصي فرأيت يوماً يتيماً فكرمته، كما يكرم الولد بل أكثر، ثمَّ نمت فرأيت الزبانية أخذوني أخذاً مزعجاً إلى جهنم، وإذا باليتيم قد اعترضني فقال: دعوه حتى أُراجع ربي فيه فأبوا فإذا النِّداء خلوا عنه، فقد وهبنا لَهُ ما كان منه بإحسانه إليه، فاستيقظت وبالغت في إكرام اليتامى من يومئذٍ، وكان لبعض مياسير العلويين بنات من علوية فمات، واشتد بهن الفقر إلى أن رحلن عن وطنهن خوف الشَّماتة، فدخلن مسجد بلد مهجوراً فتركتهن أمهن فيه، وخرجت تحتال لهن القوت، فمرت بكبير البلد وهو مسلم فشرحت لَهُ حالها فلم يصدقها، وقال: لا بد أن تقيمي عندي البينة بذلك فقالت: أنا غريبة فأعرض عنها ثمَّ مرت بمجوسي فشرحت لَهُ

ذلك فصدق، وأرسل بعض نسائه فأتت بها وببناتها إلى داره فبالغ في إكرامهن، فلما مضى نصف اللّيل رأى ذلك عند المسلم القيامة قد قامت، والنبي ﷺ معقوداً على رأسه لواء الحمد وعنده قصر عظيم فقال: يا رسول الله لمن هذا القصر؟ قال: لرجل مسلم قال: أنا مسلم موحد قال ﷺ: «**أقم عندي البينة بذلك**» فتحير فقص لَهُ ﷺ خبر العلوية فانتبه الرجل في غاية الحزن والكآبة إذ ردها، ثمَّ بالغ في البحث عنها حتى دل عليها بدار المجوسي فطلبها منهُ فأبى، وقال: قد لحقني من بركاتهن فقال: خذ ألف دينار وسلمهن إلي فأبى فأراد أن يكرهه فقال: الذي تريده أنا أحق به، والقصر الذي رأيته في النوم خلق لي أتفخر علي بإسلامك، فوالله ما نمت أنا وأهل داري حتى أسلمنا كلنا على يد العلوية ورأيت مثل منامك وقال لي رسول الله ﷺ: «**العلوية وبناتها عندك**» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «**القصر لك ولأهل دارك**»، فانصرف المسلم وبه من الكآبة والحزن ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى.

الباب الثامن والستون

في أكلِ الحرام

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩] الآية واختلفوا في المراد به فقيل: الربا والقمار والغصب والسَّرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة. وقال ابن عباس: هو ما يأخذ من الإنسان بغير عوض، وعليه قيل: لما نزلت الآية تحرجوا من أن يأكلوا عند أحد شيئاً، حتى نزلت آية النور ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم﴾ [سورة النور: الآية ٦١] إلى آخرها، وقيل: هو العقود الفاسدة والوجه. قول ابن مسعود: أنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة انتهى، وذلك لأن الأكل بالباطل يشمل كل مأخوذ بغير حق، سواء كان على جهة الظّلم كالغصب والخيانة والسرقة أو الهزؤ واللعب، كالمأخوذ بالقمار والملاهي وسيأتي ذكر ذلك كله، أو على جهة المكر والخديعة، كالمأخوذ بعقد فاسد ويؤيد ما ذكرته، قول بعضهم: الآية تشمل أكل الإنسان مال نفسه بالباطل بأنه ينفقه في محرم، ومال غيره كالأمثلة المذكورة، وقوله تعالى: ﴿إلاَّ أن تكون تجارة﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] استثناء منقطع لأن التجارة من جنس الباطل بأي معنى أريد به، وتأويله بالسبب ليكون متصلاً ليس في محله، والتجارة وإن اختصت بعقود المعاوضات إلاَّ أن نحو القرض والهبة ملحق بها بأدلة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿عن تراض منكم﴾ [سورة النساء:الآية ٢٩] أي طيب نفس على الوجه المشروع، وتخصيص الأكل فيها بالذكر ليس للتقييد به بل لكونه أغلب وجوه الانتفاعات على حد ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ [سورة النساء: الآية ١٠] وأدلة هذا المبحث والتغليظات الواردة فيه من السُّنة كثيرة فلنقتصر على بعضها.

أخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله طيب لا يقبل إلاَّ طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**» فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطَّيبات واعملوا عملاً صالحاً﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٥١] وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٢] ثمَّ ذكر الرجل يطيل السَّفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السَّماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك.

والطَّبراني بإسناد حسن طلب الحلال واجب على كل مسلم. والطَّبراني والبيهقي طلب الحلال فريضة بعد الفرائض. والترمذي وقال حسن: صحيح غريب والحاكم، وصححه من أكل طيباً وعمل في سنة وأمن النَّاس بواتقه دخل الجنة. قالوا يا رسول الله: إن هذا في أمتك اليوم كثير. قال: وسيكون في قرون بعدي.

وأحمد وغيره بإسناد حسن أربع، إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدُّنيا حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خلق وعفة في طعمة، والطَّبراني: طوبى لمن طاب كسبه وصلحت سريرته وكرمت علانيته، وعزل عن النَّاس شره، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله.

والطَّبراني يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفسي بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنَّار أولى بهِ. والبزار وفيه نكارة إنه لا دين لمن لا أمانة لَهُ ولا صلاة ولا زكاة إنه من أصحاب مالاً من حرام، فلبس جلباباً يعني قميصاً لم تقبل صلاته حتى ينحي ذلك الجلباب عنه، إن الله تبارك وتعالى أكرم وأجل من أن يقبل عمل رجل أو صلاته وعليه جلباب من حرام.

وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام لم يقبل الله عز وجل لَهُ صلاة ما دام عليه، ثمَّ أدخل أصبعيه في أذنيه ثمَّ قال: اصمتا إن لم يكن النبي ﷺ سمعته يقول: والبيهقي «**من اشترى سرقة،**

وهو يعلم أنها سرقة فقد اشترك في عارها وإثمها».

قال الحافظ المنذري في إسناده: احتمال للتحسين ويشبه أن يكون موقوفاً وأحمد بسند جيد والذي نفسي بيده لا يأخذ أحدكم حبله، فيذهب به إلى الجبل فيحتطب، ثمَّ يأتي فيحمله على ظهره فيأكل خير لَهُ من أن يجعل فيه ما حرم الله عليه وابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما والحاكم، من جمع مالاً حراماً ثمَّ تصدق به لم يكن لَهُ فيه أجر، وكان إصره عليه، والطَّبراني من كسب مالاً حراماً فأعتق منه ووصل منه رحمه كان ذلك إصر عليه، وأحمد وغيره بسند حسنه بعضهم أن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وأنَّ الله يعطي الدُّنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلاَّ لمن يحب، ومن أعطاهُ الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا سلم أو لا يسلم عبد، حتى سلم أو يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه.

قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: **«غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالاً من حرام فيتصدق منه فيقبل منه، ولا ينفق منه فيبارك لَهُ فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلاَّ كان زاده إلى النَّار، إن الله تعالى لا يمحو السَّيىء ولكن يمحو السيىء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»** والترمذي.

وقال حسن صحيح غريب: سئل ﷺ عن أكثر ما يدخل النَّاس النَّار؟ قال: **«الفم والفرج»** وسئل عن أكثر ما يدخل النَّاس الجنة؟ قال: **«تقوى الله وحسن الخلق»** والترمذي وصححه ما تزول قدماً عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه، والبيهقي، الدُّنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالاً من غير حله، وأنفقه في غير حقه أورده الله دار الهوان، ورب متخوض في مال الله ورسوله لَهُ النَّار يوم النَّار يوم القيامة.

يقول الله تعالى: ﴿كلما خبت زدناهم سعيراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧] وابن حبان في صحيحه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتاً من سحت، والنَّار أولى به، والترمذي لا يربو لحم نبت من سحت إلاَّ كانت النَّار أولى به والسحت بضم فسكون أو ضم الحرام، وقيل: الخبيث من المكاسب وفي رواية بسند حسن لا يدخل الجنة جسد غذي بحرام.

الباب التاسع والستون

في النهي عن الرِّبا

الآيات في النَّهي عن الرِّبا كثيرة ومن الأحاديث ما رواه البخاري وأبو داود لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة، وآكل الربا وموكله، ونهى عن ثمن الكلب وكسب البغي ولعن المصورين، وروى أحمد وأبو يعلى وابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما عن ابن مسعود رضي الله عنهُ قال: آكل الرِّبا وموكله وشاهداه وكاتبه إذا علموا به والواشمة والمستوشمة. للحسن ولاوي الصَّدقة، والمرتد أعرابياً بعد الهجرة ملعونون على لسان محمد ﷺ، والحاكم وصححه أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها، مدمن الخمر وآكل الربا وآكل مال اليتيم بغير حق والعاق لوالديه والحاكم.

وقال الصحيح على شرط الشيخين: الربا ثلاث وسبعون باباً ولشرك مثل والبيهقي الرِّبا سبعون باباً أدناها الذي يقع على أمه؛ والطَّبراني في الكبير عن عبد اللّه بن سلام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«الدرهم يصيبه الرجل من الرِّبا أعظم عند الله من ثلاث وثلاثين زنية يزنيها في الإسلام وفي سنده انقطاع»**.

وروى ابن أبي الدُّنيا والبغوي وغيرهما، موقوفاً على عبد اللّه هو الصَّحيح وهذا الموقوف في حكم المرفوع، لأن كون الدرهم أعظم وزناً من هذا العدد المخصوص من الزنا لا يدرك إلاَّ بوحي فكأنه سمعه منه ﷺ، ولفظ الموقوف في أحد طرقه، قال عبد اللّه: الربا اثنان وسبعون حوباً أي بضم المهملة وبفتحها إثماً، أصغرها حوباً كمن أتى أمه في الإسلام، ودرهم من الربا أشد من بضع وثلاثين زنية قال: **«ويأذن الله للبر والفاجر بالقيام يوم القيامة إلا آكل الربا»** فإنهُ لا يقوم إلاَّ كما يقوم الذي يتخبطه الشَّيطان من المس، وأحمد بإسناد جيد عن كعب الأحبار قال: لأن أزني ثلاثاً وثلاثين زنية أحب إلي من أن آكل درهم ربا يعلم الله أني أكلته رِبا.

وأحمد بسند صحيح والطَّبراني أنه ﷺ قال: **«درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية»**، وابن أبي الدُّنيا والبيهقي خطبنا رسول الله ﷺ فذكر أمر الرِّبا وعظم شأنه، وقال: إن الدرهم يصيبه الرجل من الرِّبا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين

زنية يزنيها الرجل، وإن أربى الرِّبا عرض الرجل المسلم والطَّبراني في الصغير والأوسط من أعان ظالماً بباطل ليدحض به حقا، فقد بريء منّ ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ، ومن أكل درهماً من ربا فهو مثل ثلاث وثلاثين زنية، من نبت لحمه من سحت فالنَّار أولى به، والبيهقي إنَّ الرِّبا نيف وسبعون باباً أهونهن باباً مثل من أتى أمه في الإسلام، ودرهم من ربا أشد من خمس وثلاثين زنية، الحديث الطَّبراني في الأوسط من رواية عمر وابن راشد، وقد وثق الرِّبا اثنان وسبعون باباً أدناها مثل إتيان الرجل أمه وأربى الرِّبا، استطالة الرجل في عرض أخيه وابن ماجه والبيهقي عن أبي معشر وقد وثق عن أبي سعيد المقبري.

عن أبي هريرة رضي الله عنهُ قال رسول الله ﷺ: **«الرِّبا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه»**؛ والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أنْ تشتري الثَّمرة حتى تعظم، وقال إذا ظهر الزِّنا والرِّبا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله، وأبو يعلى بإسناد جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ذكر حديثاً عن النبي ﷺ قال فيه: **«ما ظهر في قوم الزِّنا والرِّبا إلاَّ أحلوا بأنفسهم عذاب الله»** وأحمد بإسناد فيه نظر ما من قوم يظهر فيهم الرِّبا إلاَّ أخذوا بالسَّنة وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلاَّ أخذوا بالرعب، والسَّنة العام المقحط نزل فيه غيث أم لا.

وأحمد في حديث طويل وابن ماجة مختصراً والأصبهاني، رأيت ليلة أسري بي لما انتهينا إلى السَّماء السَّابعة، فنظرت فوقي، فإذا أنا برعد وبروق وعواصف قال: فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء أكلة الرِّبا، والأصبهاني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لما عرج بي إلى السَّماء نظرت في سماء الدُّنيا فإذا رجال بطونهم كأمثال البيوت العظام قد مالت بطونهم، وهم منضدون على سابلة آل فرعون موقوفون على النَّار كل غداة وعشي، يقولون ربنا لا تقم السَّاعة أبداً»**.

قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء أكله الرِّبا من أمتك لا يقومون إلاَّ كما يقوم الذي يتخبطه الشَّيطان من ألمس قال الأصبهاني قوله: منضدون أي مطروحون أي طرح بعضهم على بعض، والسابلة المارة أي يطؤهم آل فرعون الذين يعرضون على النَّار كل غداة وعشي، والطَّبراني بسند صحيح بين يدي السَّاعة، ويظهر الزِّنا والرِّبا والخمر، والطَّبراني لا بأس به عن القاسم بن عبد اللّه الوراق قال: رأيت عبد اللّه بن أبي أوفى رضي الله عنهُ في سوق الصّيارفة، فقال يا معشر الصَّيارفة أبشروا. قالوا: أبشرك الله بالجنة تبشرنا

يا أبا محمد قال: قال رسول الله ﷺ للصَّيارفة: «أبشروا بالنَّار» والطَّبراني إياك والذنوب التي لا تغتفر الغلول، فمن غل شيئاً يأتي به يوم القيامة، وأكل الرِّبا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط، ثمَّ قرأ ﷺ ﴿الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلاَّ كما يقوم الذي يتخبطه الشَّيطان من المس﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٥] والأصبهاني يأتي آكل الرِّبا يوم القيامة مخبلاً أي مجنوناً يجر شقيه.

ثمَّ قرأ ﴿لا يقومون إلاَّ كما يقوم الذي يتخبطه الشَّيطان من المس﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٥]، وابن ماجة والحاكم وصححه أكثر أحد من الرِّبا، إلاَّ كان عاقبة أمره إلى قلة، والحاكم وصححه أيضاً الرِّبا وإن كثر فإنَّ عاقبته إلى قل وأبو داود وابن ماجة كلاهما.

عن الحسن عن أبي هريرة واختلف في سماعه منهُ والجمهور على عدمه ليأتين على النَّاس زمان لا يبقى منهم أحد إلاَّ آكل الرِّبا، فمن لم يأكله أصابه من غباره، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والذي نفسي بيده ليبيتن أُناس من أُمتي على شر وبطر ولهو ولعب، فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم، واتخاذهم القينات وشربهم الخمر وبأكلهم الرِّبا ولبسهم الحرير، ومختصراً والبيهقي واللفظ لَهُ ليبيت قوم من الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب، فيصبحون قد مسخوا قردة وخنازير وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح النَّاس فيقولون: خسف اللَّيلة بيت فلان وخسف الليلة بدار فلان ولترسلن عليهم حجارة من السَّماء.

كما أرسلت على قوم لوط على قبائل منها، وعلى دور بشربهم الخمر ولبسهم الحرير واتخاذهم القينات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم، وخصلة نسيها رواية القينات جمع قينة وهي المغنية.

الباب السبعون

في حقوق العبد

هي أنْ تسلِّمَ عليه إذا لقيتهُ وتجيبه إذا دعاك وتشمته إذا عطس وتعوده إذا مرض وتشد جنازته إذا مات وتبر قسمه إذا أقسم عليك وتنصح له إذا استنصحك وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب لَهُ ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك ورد جميع ذلك في أخبار وآثار.

وقد روى أنس رضي الله عنهُ عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: **«أربع من حق المسلمين عليك أن تعين محسنهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمدبرهم، وأن تحب تائبهم»**، وقال ابن عباس رضي الله عنهما. في معنى قوله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] قال: يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم، فإذا نظر الطالح إلى الصَّالح من أمة محمد ﷺ قال: اللهم بارك لَهُ فيما قسمت لَهُ من الخير وثبته عليه وأنفعنا به، وإذا نظر الصَّالح إلى الطَّالح قال: اللهم أهده وتب عليه واغفر لَهُ عثرته، ومنها أن يُحبّ للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، قال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: **«مثل المؤمنين في توددهم وتراحمهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى لَهُ سائره بالحمى والسَّهر»**.

وروى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»**، ومنها أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول. قال ﷺ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**، وقال ﷺ: في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل: **«فإن لم تقدر فدع النَّاس من الشَّر، فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك»**، وقال: أيضاً **«أفضل المسلمين من سلم المسلم من لسانه ويده»**، قالوا: فمن المؤمن؟ قال: **«من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم»** قالوا: فمن المهاجر؟ قال: **«من هجر السُّوء واجتنبه»** وقال رجل: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: **«أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك»**.

وقال مجاهد: يسلط على أهل النَّار الجرب، فيحتكون حتى يبدوا عظم أحدهم من جلده، فينادى يا فلان هل يؤذيك هذا؟ فيقول: نعم. فيقول: هذا بما كنت تؤذي المؤمنين، وقال ﷺ: **«لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطَّريق كانت تؤذي المسلمين»**.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله علمني شيئاً أنتفع به. قال: **«أعزل الأذى عن طريق المسلمين»**، قال ﷺ: **«من زحزح عن طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم كتب الله لَهُ به حسنة، ومن كتب الله لَهُ حسنة أوجب لَهُ بها الجنة»** وقال ﷺ: **«لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه»**، وقال ﷺ: **«لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً»**.

وقال ﷺ: **«إن الله يكره أذى المؤمنين»**، وقال الربيع بن خيثم: النَّاس رجلان مؤمن فلا تؤذه وجاهل فلا تجاهله، ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه إن الله لا يحب كل مختال فخور، وقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر**

أحد على أحد»؛ ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٩]، وعن ابن أبي أوفى كان رسول الله ﷺ يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر، أي يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته، ومنها أن لا يسمع بلاغات النَّاس بعضهم على بعض، ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض قال ﷺ: **«لا يدخل الجنة فتان»**.

وقال الخليل بن أحمد: من نم لك نم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك، ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه. قال أبو أيوب الأنصاري: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسَّلام»**، وقد قال ﷺ: **«من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة»**.

قال عكرمة: قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب: بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك في الدارين، قالت عائشة رضي الله عنها: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلاَّ أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عفا رجل عن مظلمة إلاَّ زاده الله بها عزاً، وقال ﷺ: **«ما نقص مال صدقة وما زاد الله رجلاً بعفو، إلاَّ عز وما من أحد تواضع لله إلاَّ رفعه الله»**.

الباب الحادي والسبعون

في ذمِ اتباع الهوى وفي بيان الزهد

قال الله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] الآية. قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان، والمعنى هو مطواع لهوى النَّفس يتبع ما تدعوه إليه، ولا يعمل بكتاب الله فكأنه يعبد هواه. وقال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وقال تعالى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ [سورة ص: الآية ٢٦]، ولذلك، استعاذ ﷺ منه بقوله: **«اللهم إني أعوذ بك من هوى مطاع وشح متبع»** وقال: **«ثلاث مهلكات، هو مطاع وشح متبع، وإعجاب المرء بنفسه، وذلك لأن كل معصية سببها هوى النَّفس فهو يقود إلى النَّار أعاذنا الله منه»**.

قال بعض العارفين: إذ بدهك أمران لا تدري في أيهما الصَّواب، فانظر أيهما أقرب

إلى هواك فخالفه وفي هذا المعنى قال الشافعي رضي الله عنه.

إذا جـال أمـرك فـي معنيـين ... ولم تدر حيث الخطأ والصواب

فخـالـف هـواك فـإن الهـوى ... يقـود النفـوس إلـى مـا يعـاب

وقال العباس: إذا اشتبه عليك رأيان فدع أحبهما إليك، وخذ أثقلهما عليك وأصله أن الأمر الخفيف يسهل عليك موقعه ويقرب موضعه، وتخف مؤونته وتأتي معونته فيشره المرء إليه، وتحرص النَّفس عليه، والأمر الثقيل يصعب موقعه ويبعد موضعه وتبطيء معونته، فتكسل النَّفس عنه وتكره التَّعب به.

وروي عن عمر رضي الله عنه أنَّهُ قال: اردعوا هذه الأنفس فإنها طليعة تنزع بك إلى شر غاية إن هذا الحق ثقيل مريء، وأن الباطل خفيف وبي ترك الخطيئة أيسر من معالجة التوبة، وربَّ نظرة زرعت شهوة، ولذة ساعة أورثت حزناً طويلاً، وقال لقمان لابنه: يا بني أول ما أحذرك من نفسك، فإن لكل نفس هوى وشهوة، فإن أعطيتها شهوتها تمادت وطلبت سواها، فإن الشَّهوة كامنة في القلب كمون النَّار في الحجر، إن قدح أورى وإن ترك توارى. قال بعضهم:

إذا مـا أجبـت النفـس فـي كـل دعـوة ... دعتـك إلـى الأمـر القبيـح المحـرم

وقال آخر:

إذا أنـت لـم تعـص الهـوى قـادك الهـوى ... إلـى كـل مـا فيـه عليـك مقـال

وقال غيره:

واعلـم بـأنـك لـن تسـود لـن تـرى ... طـرق الـرشـاد إذا اتبعـت هـواك

وقال آخر:

إذا شئـت إتيـان المحـامـد كلهـا ... ونيـل الـذي تـرجـوه مـن رحمـة الـرب

فخـالـف هـوى النفـس المسيئـة إنـه ... لأغـذى وأردى مـن هـوى الحـب

همـا سببـا حتـف الهـوى غيـر أن فـي ... هوى الحب مهما عف بعدا عن الذنب

وحل المعامي في هوى النفس فاعتمد ... خـلاف الـذي تهـواه إن كنـت ذا لـب

وقال آخر:

إنـارة العقـل مكسـوف بطـوع هـوى ... وعقـل عـاصـي الهـوى يـزداد تنـويـرا

وقال الفضل بن العباس:

لقد ترفع الأيام من كان جاهلاً ... ويردى الهوى ذا الرأي وهو لبيب
وقد تحمد الناس الفتى وهو مخطىء ... ويعذل في الإحسان وهو مصيب

وقال ﷺ: «**خلق الله العقل، وقال لَهُ: أقبل فأقبل وقال له: أدبر فقال: وعزتي وجلالي لا ركبتك إلاَّ في أحب الخلق إلي وخلق الحمق، فقال له: أقبل فأقبل، وقال لَهُ: أدبر فأدبر. فقال: وعزتي وجلالي لا ركبتك إلاَّ في أبغض الخلق إلي**» رواه الترمذي ولله در من قال:

وقد أصاب رأيه عين الصواب ... من استشار عقله في كل باب
وقد رأى أن الهوى مهما يحب ... يدعو إلى سوء العواقب والعقاب

وأنشد آخر:

إذا شئت أن تحظى وأن تبلغ المنى ... فلا تسعد النفس المطيعة للهوى
وخالف بها عن مقتضى شهواتها ... وإياك أن تحفل بمن ضل أو غوى
ودعها وما تدعو إليه فإنها ... لأمارة بالسوء من هم أو مدى
لعلك أن تنجو من النار أنها ... لقاطفة الأمعاء نزاعة الشوى

ومن منثورهم الهوى مركب ذميم يسير بك في ظلمات الفتن، ومرتع وخيم يقعدك في مواطن المحن، فلا تحملنك شهوة النفس على ركوب المذمات، والقعود في مواطن الخطيئات قيل لبعضهم: لو تزوجت؟ قال: لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها وأنشد:

تجرد من الدُّنيا فإنك إنما ... سقطت إلى الدُّنيا وأنت مجرد

الدُّنيا نوم الآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام من نظر بعين الهوى حار، ومن حكم على الهوى جار، ومن أطال النَّظر لم يدرك الغاية وليس لناظر نهاية. أوصى بعض الحكماء رجلاً فقال: آمرك بمجاهدة هواك فإن الهوى مفتاح السَّيئات وخصيم الحسنات، وكل أهوائك لك عدو وأهواها هوى يمثل لك الإثم في صورة التقوى، ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلاَّ بحزم لا يشوبه وهن، وصدق لا يطمع فيه تكذيب، ومضاء لا يقاربه التثبط، وصبر لا يغتاله جزع ونية لا يتقسمها التضييع، اللهم اجعل عقولنا غالبة على هوانا، ولا تذقنا ضراً ولا هواناً، ولا تشغلنا بدنيانا عن أخرانا، وتجعلنا ذاكرين شاكرين لنعمتك تجاه نبيك محمد سيدنا ومولانا ﷺ والحمد لله على ما أولانا.

وقال ﷺ: «خير دينكم الورع». وقال سيد العمل: الورع وقال: كن ورعاً تكن أعبد النَّاس، وكن قنعاً تكن أشكر النَّاس، وقال ﷺ: **«من لم يكن لَهُ ورع يصده عن معصية الله، إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من علمه»**. قال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاث مقامات، فزهد فرض وهو الكف عن المحارم، وزهد سلامة وهو ترك الشُّبهات وزهد فضل وهو الزهد في الحلال، وهذا تفسير حسن قال ابن المبارك: الزهد إخفاء الزهد إذا هرب الزاهد من النَّاس فاطلبه، وإذا طلب النَّاس فاهرب منه وما أحسن قول القائل:

إن وجـــدت فـــلا تظـــن غيـــره ... إن التـــورع عنـــد هـــذا الـــدرهـــم

فـــإذا قـــدرت عليـــه ثـــمَّ تـــركتـــه ... فـــاعلـــم بـــأن تقـــاك تقـــوى المسلـــم

ليس الزاهد من زهد في الدُّنيا، وقد أعرضت عنه، وإنما الزاهد من أقبلت عليه فزوى عنها وجهه وآثر الفرار منها كما قال أبو تمام:

إذا المـرء لـم يـزهـد وقـد صيغـت لـه ... بعصفـرهـا الـدنيـا فليـس بـزاهـد

وقال بعض الحكماء: ما لنا لا نزهد في الدُّنيا، وعمرها أمد وخيرها نكد وصفوها كدر وأمانها غرر، إن أقبلت تشجي وإن أقبت تردى قال:

تبـــاً لـــدنيـــا لا بقـــاء لهـــا ... كـأنمـا هـي فـي تصـريفهـا حلـم

صفـاؤهـا كـدر سـراؤهـا ضـرر ... أمـانهـا غـرر أنـوارهـا ظلـم

شبـابهـا هـرم راحـاتهـا سقـم ... لـذاتهـا نـدم ووجـدانهـا عـدم

لا يستفيـق مـن الأنكـاد صـاحبهـا ... لو كان يملك ما قد ضمنت إرم

فخـل عنهـا ولا تـركـن لـزهـرتهـا ... فـإنهـا نعـم فـي طيهـا نقـم

واعمـل لـدار نعيـم لا نفـاذ لهـا ... ولا يخـاف بهـا مـوت ولا هـرم

ومن حكم يحيى بن معاذ: ليكن نظرك إلى الدُّنيا اعتباراً ورفضك لها اختياراً، وسعيك فيها اضطراراً وطلبك الآخرة ابتداراً.

الباب الثاني والسبعون

في صفة الجنة ومراتب أهلها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها وهي النَّار تقابلها دار أُخرى فتأمل نعيمها وسرورها، فإنَّ من بعد من إحداهما استقر لا محالة في الأخرى فاستأثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم، واستنثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصِّراط المستقيم، فبذلك تنال المَلك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة، وفي وجوههم نضرة النَّعيم، ويسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر، في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض، فيها بسط من العبقري الأخضر، متكئين على الأرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان، كأنهن الياقوت والمرجان لم يطئهن إنس قبلهم ولا جان يمشين في درجات الجنان، إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار، متوجات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس، مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطَّرف عين.

ثمَّ يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون، في مقام أمين في جنات وعيون، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم.

وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون، وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون فهم فيها يتنعمون، ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً وماء، وغير آسن أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان، وترابها مسك أذفر ونباتها زعفران، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور، ويؤتون بأكواب أي أكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان، كوب فيه

من الرحيق المختوم ممزوج به السَّلسبيل العذب، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشَّراب من ورائه برقته وحمرته، لم يصنعه أدمي فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشَّمس في إشراقها، ولكن من أين للشَّمس مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه، فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها، ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها؟ ويهنأ بعيش دونها، والله لو لم يكن فيها إلاَّ بسلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش، وسائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجر الدُّنيا بسببها، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون، وفي أنواع السُّرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون، وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنَّظر من الله ما لا ينظرون معهُ إلى سائر نعيم الجنان، ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون ومن زوالها آمنون.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**يناد منادياً أهل الجنة أنْ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وأن لكن أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وأن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً**»، فذلك قوله عز وجل: ﴿ونُودوا أن تلكم الجنة أو ورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٣] ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة، فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ من قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤٦] إلى آخر سورة الرَّحمٰن واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور، وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار، فتأمل الآن تفصيلها بعد أن أطلعت على جملتها وتأمل أولاً (عدد الجنان).

قال رسول الله ﷺ: في قولِهِ تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣] قال: جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما، وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاَّ رداء الكبرياء على وجه في جنة عدن، ثمَّ انظروا إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطَّاعات، كما أن أبواب النَّار بحسب أصول المعاصي.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها**»، وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصَّلاة دعي من باب الصَّلاة،

ومن كان من أهل الصِّيام دعي من باب الصِّيام، ومن كان من أهل الصَّدقة دعي من باب الصَّدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعِيَ مِن باب الجهاد.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي، فهل يدعي أحد منها كلها؟ قال: نعم. وأرجو أن تكون منهم وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه، أنه ذكر النَّار فعظم أمرها ذكر إلاَّ أحفظه، ثم قال: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها، وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى وبأس، ثمَّ عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلا تتغير أشعارهم بعدها أبداً، ولا تشعث رؤوسهم كأنما دهنوا بالدهان ثمَّ انتهوا إلى الجنة.

فقال لهم خزنتها ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣] ثمَّ تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدُّنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له: أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا. قال: فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين. فيقول: قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعي به في الدُّنيا فتقول أنت: رأيته. فيقول: وهو بأثري فيستخلفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزلة نظر إلى أساس بنائها، فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون، ثمَّ يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا هو مثل البرق، ولولا أن الله تعالى أقدره لألم بأن يذهب بصره، ثم فطأطأ رأسه، فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، ثمَّ اتكأ يقول الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ثمَّ ينادي مناد تحيون فلا تموتون أبداً، وتقيمون فلا تظعنون أبداً، وتصحون فلا تمرضون أبداً.

وقال رسول الله ﷺ: «**أتي يوم القيامة باب الجنة فاستفتح. فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**» ثمَّ تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، وكما أن بين النَّاس في الطَّاعات الظَّاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً، فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات، فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى، فقد أمر الله بالمسابقة والمنافسة فيها، فقال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾

[سورة الحديد: الآية ٢١] وقال تعالى: ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٦] والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم، أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك أو ضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة، وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدُّنيا بحذافيرها.

فقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم، كما تتراءون الكوكب الغائر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء: لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى. والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»، وقال: أيضاً «**إن أهل الدرجات العلا ليراهم من تحتهم، كما ترون النَّجم الطَّالع في أفق من آفاق السَّماء**»، وأن أبا بكر وعمر منهم وأنعماً.

وقال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «**ألا أحدثكم بغرف الجنة**»؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمنا قال: «**إن في الجنة غرفاً من أصناف الجواهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، وفيها من النعيم واللذات والسُّرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**». قال: قلت يا رسول الله: ولمن هذه الغرف؟ قال: «**لمن أفشى السَّلام وأطعم الطَّعام وأدام الصِّيام وصلى بالليل والنَّاس نيام**». قال: قلنا يا رسول الله: ومن يطيق ذلك؟ قال: «**أمتي تطيق ذلك. وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه فقد أفشى السَّلام، ومن أطعم أهله وعياله من الطَّعام حتى يشبعهم، فقد أطعم الطَّعام ومن صام شهر رمضان، ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصِّيام، ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في جماعة فقد صلى بالليل والنَّاس نيام**»، يعني اليهود والنَّصارى والمجوس وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٢] قال: «**قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دار من ياقوت أحمر، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر في كل بيت سرير، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش زوجة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لوناً من الطَّعام في كل بيت سبعون وصيفة، ويعطى المؤمن في كل غداة يعني من القوة ما يأتي على ذلك أجمع**».

الباب الثالث والسبعون

في الصَّبر والرِّضا والقناعة

أما فضل الرضا من الآيات فقوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٩] وقد قال تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٦٠] ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى، وقال تعالى: ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٢] ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن، كما رفع ذكره فوق الصَّلاة حيث قال: إن الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر، فكما أن مشاهدة المذكور في الصَّلاة أكبر من الصَّلاة، فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة، بل هو غاية مطلب سكان الجنان.

وفي الحديث أن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول: سلوني. فيقولون: رضاك. فسؤالهم الرِّضا بعد النَّظر نهاية التفضيل، وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته، وأما رضوان الله تعالى عن العبد، فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد، ولا تجوز أنْ يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن إدراكه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه، وعلى الجملة فلا رتبة فوق النَّظر إليه، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النَّظر، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النَّظر، فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا لم يسأل إلاَّ دوامه وعلموا أن الرِّضا هو سبب دوام رفع الحجاب. وقال الله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ [سورة ق: الآية ٣٥] قال بعض المفسرين فيه: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها، فذلك قوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [سورة السجدة: الآية ١٧]، والثَّانية السَّلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلاً، وهو قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ [سورة يس: الآية ٥٨] والثَّالثة يقول الله تعالى أني عنكم راضٍ فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٢] أي من النعيم الذي هم فيه، فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد.

وأما فضله من الأخبار فقد روي أن النبي ﷺ: «**سأل طائفة من أصحابه ما أنتم؟**

فقالوا مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: الصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال: مؤمنون ورب الكعبة».

وفي خبر آخر أنه قال: حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، وفي الخبر طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافاً به، وقال ﷺ: «**من رضي من الله تعالى بالقليل من الرزق رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل**»، وقال تعالى: إذا أحبَّ الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه.

وقال أيضاً: إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً. فتقول لهم: هل جزتم الصِّراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً. فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً. فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ فتقول: نشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدُّنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله. فيقولون: وما هما؟ فيقولون؛ كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا. فتقول: الملائكة يحق لكم هذا.

وقال ﷺ: «**يا معشر الفقراء أعطوا الله الرِّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلاَّ فلا**»، وفي أخبار موسى عليه السَّلام أن بني إسرائيل قالوا لَهُ: سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا؟ فقال موسى عليه السَّلام: إلهي قد سمعت ما قالوا فقال: يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم، وأما فضل (الصَّبر) فقد ذكر في القرآن في نيف وتسعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصَّبر وجعلها ثمرة له، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم. فقال تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٧] فالهدى والرحمة والصَّلوات مجموعة للصَّابرين، واستقصاء جميع الآيات في مقام الصَّبر يطول.

وأما الأخبار فقد قال ﷺ: «**الصَّبر نصف الإيمان**» وقال ﷺ: «**من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصَّبر، ومن أعطي حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النَّهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدُّنيا بعدي، فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السَّماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه**»، ثمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿ما عندكم

ينفذ وما عند الله باقٍ وليجزي الذين صبروا أجرهم﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] الآية.

وروى جابر أنَّهُ سئل ﷺ عن الإيمان فقال: «**الصَّبر والسَّماحة**» وقال أيضاً: «**الصَّبر كنز من كنوز الجنة**»، وسئل مرة ما الإيمان؟ فقال: «**الصَّبر**». وهذا يشبه قوله ﷺ: «**الحج عرفة معناه معظم الحج عرفة**» وقال أيضاً ﷺ: «**أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النَّفوس**» وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السَّلام تخلق بأخلاقي وإن أخلاقي أني أنا الصَّبور.

وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: «**أمؤمنون أنتم**»؟ فسكتوا. فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: «**وما علامة إيمانكم**»؟ قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء. فقال ﷺ: «**مؤمنون ورب الكعبة**» وقال ﷺ: «**في الصَّبر على ما تكره خير كثير**». وقال المسيح عليه السَّلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلاَّ بصبركم على ما تكرهون. وقال رسول الله ﷺ: «**لو كان الصَّبر رجلاً لكان كريماً، والله يحب الصَّابرين**»، والأخبار في هذا لا تحصى وقال ﷺ: «**عز من قنع وذل من طمع**» وقال ﷺ: «**القناعة كنز لا يفنى**». وتقدم الكلام على القناعة مراراً.

الباب الرابع والسبعون

في فضلِ التَّوكل

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿إنَّ الله يحب المتوكلين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩] وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحب مضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب، ومن الأخبار قوله ﷺ: فيما رواه ابن مسعود «**رأيت الأمم في الموسم، فرأيت أمتي قد ملؤوا السَّهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم. فقيل لي: أرضيت؟ قلت نعم. قيل: ومع هؤلاء سبعون ألف يدخلون الجنة بغير حساب**» قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون**». فقام عكاشة وقال: يا رسول الله أُدع الله أن يجعلني منهم. فقال: «**اللهم اجعله منهم**». فقال آخر: يا رسول الله أُدع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «**سبقك بها عكاشة**». وقال ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطَّير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» وقال ﷺ: «**من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنه، ورزقه من حيث لا**

يحتسب، ومن انقطع إلى الدُّنيا وكله الله إليها» وقال ﷺ: **«من سره أن يكون أغنى النَّاس، فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه»** وروي عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة. قال: **«قوموا إلى الصَّلاة. ويقول: بهذا أمرني ربي عز وجل ﴿وأمر أهلك بالصَّلاة واصطبر عليها﴾** [سورة طه: الآية ١٣٢]**»** الآية وقال ﷺ: **«لم يتوكل من استرقى واكتوى»**.

وروي أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السَّلام: وقد رمي إلى النَّار بالمنجنيق ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي فأنزل الله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [سورة النجم: الآية ٣٧] وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السَّلام يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السَّموات والأرض إلاَّ جعلت لَهُ مخرجاً.

وقال سعيد بن الجبير: لدغتني عقرب فأقسمت على أمي لنسترقين، فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٨] إلى آخرها فقال: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى وقيل: لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته، وقال بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل، فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدُّنيا إلاَّ ما قد كتب الله لك، وقال يحيـى بن معاذ: في وجود الرزق للعبد من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال إبراهيم بن أدهم: سألت بعض الرهبان من أين يطعمني؟ وقال هرم بن حيان لأويس القرني. أين تأمرني أن أكون؟ فأومأ إلى الشَّام قال هرم: كيف المعيشة؟ قال أويس: أفٍّ لهذه القلوب قد خالطها الشَّك فما تنفعها الموعظة، وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كل خير سبيلاً، نسأل الله تعالى حسن الأدب.

الباب الخامس والسبعون

في فضل المسجد

قال الله عز وجل: ﴿إنَّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ [سورة التوبة: الآية ١٨]، من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاه بنى الله لَهُ قصراً في الجنة وقال ﷺ: **«من ألف المسجد ألفه الله تعالى»** وقال ﷺ: **«إذا دخلَ أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس»**، وقال ﷺ: **«لا صلاة لجار المسجد إلاَّ في المسجد»** وقال ﷺ: **«الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي يصلي فيه، تقول اللهم صلي عليه اللهم ارحمه اللهم أغفر لَهُ ما لم يحدث أو يخرج من المسجد»**. وقال ﷺ: **«يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً حلقاً ذكرهم الدُّنيا وحب الدُّنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة»**.

وقال ﷺ: **«قال الله عز وجل في بعض الكتب: أن بيوتي في أرض المساجد وأن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثمَّ زارني في بيتي، فحق على المزور أنْ يكرمَ زائره»**، وقال ﷺ: **«إذا رأيتم الرَّجل يعتاد المسجد فاشهدوا لَهُ بالإيمان»**، وقال: سعيد بن المسيب من جلس في المسجد فإنما يجالس ربَّهُ، فما حقه أن يقول: إلاَّ خيراً.

ويُروى في الأثر أو الخبر الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش. وقال النخعي: كانوا يرون أن المشي في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة. وقال أنس بن مالك: من أسرج في المسجد سراجاً، لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون لَهُ ما دام في ذلك المسجد ضوء. وقال علي كرم الله وجهه: إذا مات العبد يبكي عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السَّماء، ثم قرأ ﴿فما بكت عليهم السَّماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ [سورة الدخان: الآية ٢٩] وقال ابن عباس: تبكي عليه الأرض أربعين صباحاً. وقال عطاء الخراساني: ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلاَّ شهدت لَهُ يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت وقال أنس بن مالك: ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر، إلاَّ افتخرت على ما حولها، من البقاع واستبشر بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين، وما من عبد يقوم يصلي إلاَّ تزخرفت لَهُ الأرض، ويقال: ما من منزل نزل فيه قوم إلاَّ صبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلعنهم.

الباب السادس والسبعون

في الرياضة وفضل أهل الكرامة

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصَّرَهُ بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، ويرى أحد القذى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق.

الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النَّفس مطلع على خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه ويتبع إشاراته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجه، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده.

الثَّاني: أن يطلبَ صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وعيوبه الباطنة والظَّاهرة ينبهه عليها فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين، كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إلى عيوبي، وكان يسأل سليمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه؟ فاستعفى، فألحّ عليه فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين حلة بالنَّهار وحلة بالليل، قال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا. فقال: أما هذان فقد كفيتهما، وكان يسأل حذيفة ويقول لَهُ: أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، فهل ترى علي شيئاً من آثار النِّفاق؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه، فكل من كان أوفر عقلاً وأعلا منصباً، كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه، إلاَّ أن هذا أيضاً قد عز فقل في الأصدقاء، من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب، فلا تخلو في أصدقائك عن حسود، أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك.

ولهذا كان داود الطَّائي قد اعتزل النَّاس فقيلَ لَهُ: لم لا تخالط النَّاس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوامٍ تخفي عني عيوبي؟ فكانت شهوة ذوي الدين أن ينتبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم،

وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا بعيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان، فأن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربنا، لتقلدنا منهُ وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها على البدن، ويدوم ألمها يوماً فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب، أخشى أن تدوم بعد الموت أبداً أو آلافاً من السنين.

ثمَّ أنَّا لا نفرح بمن ينبهنا عليها، ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة النَّاصح بمثل مقالته. فنقول لَهُ: وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت، وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب، وأصل كل ذلك ضعف الإيمان، فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله.

الطَّريق الثَّالث: أنْ يستفيد بمعرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوىء، ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلاَّ أن الطَّبع مجبول على تكذيب العدو، وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه، فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم.

الطَّريق الرَّابع: أنْ يخالطَ النَّاسُ فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطَّباع متقاربة في إتباع الهوى، فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله، أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب.

قيل لعيسى عليه السَّلام: من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد. رأيتُ جهل الجاهل شيئاً فاجتنبته، وهذا كله حيال من وجد شيخاً عارفاً زكياً بصيراً بعيوب النَّفس مشفقاً ناصحاً في الدين، فارغاً من تهذيب نفسه مشتغلاً بتهذيب عباد الله تعالى ناصحاً لها فمن وجدَ ذلك فقد وجدَ الطَّبيب فليلازمه، فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده.

واعلم أن ما ذكرناه إنْ تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين، فأنْ عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك

التصديق والإيمان على سبيل التلقي، والتقليد لمن يستحق بتقليد، فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه. قال تعالى: ﴿يرفعُ الله الذي آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١] فمن صدق بأن مخالفة الشَّهوات، والطَّريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره، فهو من الذين آمنوا، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشَّهوات، فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى، والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسَّنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر. قال الله تعالى: ﴿ونهى النَّفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [سورة النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١] وقال تعالى: ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ [سورة الحجرات: الآية ٣] قيل: نزع منها محبة الشَّهوات.

وقال ﷺ: **«المؤمن من بين خمس شدائد، مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه»**، فبين أنَّ النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السَّلام، يا داود حذر وأنذر أصحابك كل الشَّهوات، فأن القلوب المتعلقة بشهوات الدُّنيا عقولها عني محجوبة. وقال عيسى عليه السَّلام: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره.

وقال نبينا ﷺ لقوم: **«قدموا من الجهاد مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»**. قيل يا رسول الله: وما الجهاد الأكبر؟ قال: **«جهاد النفس»**.

وقال ﷺ: **«المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل»**، وقال ﷺ: **«كف أذاك عن نفسك، ولا تتبع هواها في معصية الله، إذ تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضاً إلاَّ أن يغفر الله تعالى ويستر»**. وقال سفيان الثَّوري: ما عالجت شيئاً أشد علي من نفسي مرة لي ومرة علي، وكان أبو عباس الموصلي يقول لنفسه، يا نفس لا في الدُّنيا مع أبناء الملوك تنعمين، ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين، كأني بك بين الجنة والنَّار تحسبين، يا نفس ألا تستحين.

وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك. وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام والغمض من المنام والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولد من قلة الطَّعام موت الشَّهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادة، ومن قلة الكلام السَّلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، وليس على العبد شيء أشد من الحلم

عند الجفاء والصبر والأذى، وإذا تحركت من النَّفس إرادة الشَّهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة وفضول الكلام، جردت عليها سيوف قلة الطَّعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول، وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظّلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام، وتصفيها من ظلمة شهواتها، فتنجو من غوائل آفاتها فتصير عند ذلك نظيفة، ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطَّاعات كالفرس الفارة في الميدان، وكالملك المتنزه في البستان.

وقال أيضاً: أعداء الإنسان ثلاثة، دنياه وشيطانه ونفسه، فاحترس من الدُّنيا بالزهد فيها، ومن الشَّيطان بمخالفته، ومن النَّفس بترك الشَّهوات وقال بعض الحكماء: من استولت عليه النَّفس صار أسيراً في حب شهواتها، محصوراً في سجن هواها مقهوراً مغلولاً زمامه في يدها، تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد. وقال جعفر بن حميد: أجمعت العلماء والحكماء على أن النَّعيم لا يدرك إلا بترك النَّعيم وقال أبو يحيى الوراق: من أرضى الجوارح بالشَّهوات، فقد غرس في قلبه شجر النَّدامات. وقال وهيب بن الورد: ما زاد الخبز فهو شهوة، وقال أيضاً: من أحب شهوات الدُّنيا فليتهيأ للذل.

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السَّلام بعد أن ملك خزائن الأرض: وقعدت لَهُ على رابية الطَّريق في يوم موكبه، وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته، سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم لَهُ، إنَّ الحرص والشَّهوة صير الملوك عبيداً، وذلك جزاء المفسدين، وأنَّ الصَّبر والتقوى صيرت العبيد ملوكاً.

فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [سورة يوسف: الآية ٩٠] وقال الجنيد: أرقت ليلة قمت إلى وردي، فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقدر فجلست فلم أطق الجلوس، فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطَّريق.

فلما أحسَّ بي قال: يا أبا القاسم إلي السَّاعة فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ فقال: بلى. سألت الله عز وجل أن يحرِّك لي قلبك. فقلت: قد فعل. فما حاجتك؟ قال: فمتى يصير داء النَّفس دواها؟ فقلت: إذا خالفت النَّفس هواها، فأقبل على نفسه فقال: اسمعي، فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ها قد سمعتيه ثمَّ انصرف وما عرفته. وقال يزيد الرقاشي: إليك عني الماء البارد في الدُّنيا، لعلي لا أحرمه

في الآخرة، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصَّمت. قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال علي رضي الله عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشَّهوات في الدُّنيا.

الباب السابع والسبعون

في الإيمان والنّـفاق

اعلم أن كمال الإيمان الذي هو التصديق بوحدانية الله تعالى، وبما جاءتْ به الرسل صلوات الله عليهم بزيادة الأعمال قال الله تعالى: ﴿إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصَّادقون﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٥] وقال الله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٧] فشرط عشرين وصفاً كالوفاء بالعهد والصَّبر على الشَّدائد.

ثمَّ قال تعالى: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٧] وقد قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١] وقال تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠] الآية وقد قال تعالى: ﴿هم درجات عند الله﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٣] وقال ﷺ: **«الإيمان عريان ولباسه التقوى»**، الحديث.

وقال ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون باباً، أدناها إماطة الأذى عن الطريق»** فهذا ما بذل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال، وإما ارتباطه بالبراءة عن النَّفاق والشَّرك الخفي فقوله ﷺ: **«أربع من كن فيه، فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن، من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر»**، وفي بعض الروايات. وإذا عاهد غدر.

وفي حديث أبي سعيد الخدري: القلوب أربعة، قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد، فأي المادتين غلب عليه حكم لَهُ بها، وفي لفظ آخر غلبت عليه ذهبت به وقال ﷺ **«أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»**. وفي الحديث: الشِّرك أخفى من أمتي من دبيب النَّمل على الصّفار. وقال حذيفة رضي الله

عنه: كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقاً إلى أن يموت، وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات.

وقال بعض العلماء: أقرب النَّاس من النِّفاق من يرى أنه بريء من النِّفاق وقال حذيفة: المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي ﷺ، فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه، وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله، وهو خفي وأبعد النَّاس منه من يتخوفه، وأقربهم منه من يرى أنه أبرىء منه، فقد قيل للحسن البصري: يقولون: إنه لا نفاق اليوم فقال: يا أخي لو هلك المنافقين لاستوحشتم في الطَّريق.

وقال هو أو غيره: لو نبتت للمنافقين أذناب، ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا، وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلاً يتعرض للحجاج فقال: أرأيت لو كان رجلاً حاضراً يسمع، أكنت تتكلم فيه؟ فقال: لا. فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله.

وقال ﷺ: «من كان ذا لسانين في الدُّنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة»، وقال أيضاً ﷺ: شر النَّاس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه، وقيل: للحسن إن قوماً يقولون إنا لا نخاف النِّفاق. فقال: والله لأن أكون اعلم أني بريء من النِّفاق أحب إلي من تلاع الأرض ذهباً، وقال الحسن: إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: إني أخاف أن أكون منافقاً.

فقال: لو كنت منافقاً ما خفت النِّفاق، أن المنافق قد أمن من النِّفاق. وقال ابن أبي ملكية: أدركت ثلاثين ومائة وفي رواية خمسين، ومائة من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخافون النفاق.

وروي أن رسول الله ﷺ كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك، إذا طلع ليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء، وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السّجود. فقالوا: يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه فقال ﷺ: «أرى على وجهه سفعة من الشَّيطان فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم».

فقال النبي ﷺ: «أنشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك»؟ فقال: اللهم نعم. فقال ﷺ: «في دعائه اللهم إني أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم»؟ فقيل له: أتخاف يا رسول الله؟ فقال: «وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرَّحمن يقلبها كيف يشاء»، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما

لم يكونوا يحتسبون﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] قيل في التفسير: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات. وقال سري السقطي: لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار، عليها من جميع الطُّيور، فخاطبه كل طير منها بلغة. فقال السَّلام عليك يا ولي الله: فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً في يديها.

فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النِّفاق والشرك الخفي، وإنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه، وأنه هل ذكر في المنافقين، وقال أبو سليمان الداراني: سمعت من بعض الأمراء شيئاً، فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر بقتلي، ولم أخف من الموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي فكففت، وهذا من النِّفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله النِّفاق نفاقان أحدهما يخرج من الدين ويلحق بالكافر ويسلك في زمرة المخلدين في النَّار، الثاني يقضي بصاحبه إلى النَّار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين.

الباب الثامن والسبعون

في النَّهي عن الغيبة والنَّميمة

أما الغيبة فقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى: ﴿لا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢] وقال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**» والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدَّم.

وقال أبو برزة: قال ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً، وكونوا عباد الله إخواناً**» وعن جابر وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر لَهُ حتى يغفر لَهُ صاحبه**».

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**مررت ليلة أسري بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافرهم فقلت: يا جبريل من هؤلاء**»؟ قال هؤلاء الذين يغتابون النَّاس ويقعون في أعراضهم. وقال سليمان بن جابر أتيت النبي ﷺ فقلت: علمني خيراً أنتفع به فقال: «لا

تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقى وأن تلقى أخاك ببشر حسن وإن أدبر فلا تغتبه» وقال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العوائق في بيوتهن. فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم فأن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السَّلام، من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النَّار وقال أنس: أمر رسول الله ﷺ النَّاس بصوم يوم. فقال: «لا يفطرن أحداً حتى آذن لَهُ» فصام النَّاس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء ليقول: يا رسول الله ظللت صائماً فأذن لي لأفطر، فيأذن لَهُ والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله فتاتان من أهلي ظلتا صائمتين، وإنهما يستحيان أن يأتياك فأذن لهما أن يفطرا، فأعرض عنه ﷺ ثمَّ عاوده فأعرض عنهُ، ثمَّ عاوده فقال: «إنهما لم يصوما، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحوم النَّاس؟ اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا» فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره. فقال: «والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النَّار».

وفي رواية إنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك قال: يا رسول الله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا فقال ﷺ: «ائتوني بهما» فجاءتا فدعا رسول الله ﷺ بقدح فقال: «لإحداهما قيء فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح، وقال: للأخرى قيء فقاءت كذلك. فقال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحداهما إلى الآخرى فجعلتا تأكلان لحوم النَّاس».

وقال أنس: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الرِّبا وعظم شأنه فقال: «إن الدرهم يصيبه الرجل من الرِّبا، أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وأربى الرِّبا عرض الرجل المسلم».

وأما النَّميمة: فهي خصلة ذميمة. قال الله تعالى: ﴿همّاز مشاء بنميم﴾ [سورة القلم: الآية ١١] ثمَّ قال: ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ [سورة القلم: الآية ١٣]. قال عبد اللّه بن المبارك: الزنيم ولد الزِّنا الذي لا يكتم الحديث، وأشار به أن كل من لم يكتم الحديث، ومشى بالنَّميمة دل على أنه ولد زنا استنباطاً من قوله عز وجل: ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ [سورة القلم: الآية ١٣]. والزنيم هو الدعي وقال تعالى: ﴿ويل لكل همزةٌ لمزة﴾ [سورة الهمزة: الآية ١] قيل: الهمزة النَّمام وقال تعالى: ﴿حمالة الحطب﴾ [سورة المسد: الآية ٤] قيل: إنها كانت نمامة حمالة

للحديث وقال تعالى: ﴿فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ [سورة التحريم: الآية ١٠] قيل: كانت امرأة لوط تخبر بالضّيفان، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام وفي**». حديث آخر لا يدخل الجنة قتات والقتات هو النّمام وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وأن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنّميمة المعوقون بين الإخوان الملتمسون للبراء العثرات**» وقال ﷺ: «**ألا أخبركم بشراركم**»؟ قالوا: بلى. قال: «**المشاؤون بالنّميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرء العيب**». وقال أبو ذر: وقال رسول الله ﷺ: «**من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شأنه الله بها في النّار يوم القيامة**» وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «**أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء، ليشينه بها في الدُّنيا كان حقاً على الله أن يشينه بها يوم القيامة في النّار**» وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل، فليتبوأ مقعده من النّار**» ويقال: إن ثلث عذاب القبر من النّميمة، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ: «**إن الله لما خلق الجنة قال لها: تكلمي**».

فقالت: سعد من دخلني فقال: الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من النّاس، لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديون ولا شرطي ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثمَّ لم يف به.

وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السَّلام مرات، فما سقوا فأوحى الله تعالى إليه إني لا أستجيب لك ولمن معك، وفيك نمام وقد أصر على النميمة. فقال موسى: يا رب من هو دلني عليه حتى أخرجه من بيننا قال: يا موسى أنهاك عن النّميمة وأكون نماماً فتابوا جميعاً فسقوا ويقال: اتبع رجل حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات، فلما قدم عليه قال: إني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السَّماء وما أثقل منها، وعن الأرض وما أوسع منها، وعن الصَّخر وما أقسى منه، وعن النّار وما أحر منها، وعن الزمهرير ما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه، وعن اليتيم وما أذل منه، فقال الحكيم له: البهتان على البريء أثقل من السّموات، والحق أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر والحسد أحر من النّار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم وما أحسن قول الشاعر:

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه ... على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل ولا يدري به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقصه ... والويل للود منه كيف ينفيه

وقول الآخر:

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا ... تأمن غوائل ذي وجهين كياد

الباب التاسع والسبعون

في بيان عداوة الشَّيطان

قال ﷺ: **«في القلب لمتان لمة[1] من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ولمة من العدو وإيعاد بالشَّر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشَّيطان الرجيم»** ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿الشَّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٨] الآية.

وقال الحسن: إنما هما همان يجولان في القلب، هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبداً وقف عند همه، فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده، وقال جابر بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال: إنَّما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص، فإن كان فيه شيء عالجوه، وإلا مضوا وتركوه، يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشَّيطان ولذلك قال الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد اللَّه، ولذلك سلط الله عليه الشَّيطان وقال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣] وهو إشارة إلى أن من الهوى إلٰهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد اللَّه ولذلك قال عمرو بن العاص للنبي ﷺ: يا رسول الله حال الشَّيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال: **«ذلك شيطان يقال له خرب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً»**. قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني.

(١) قوم لمة: بفتح اللام وتشديد الميم أي مس كما في القاموس.

وفي الخبر أن للوضوء شيطاناً يقال لَهُ الولهان، فاستعيذوا بالله منه ولا يمحو وسوسة الشَّيطان من القلب إلاَّ ذكر ما سوى ما يوسوس به، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به يجوز أيضاً أن يكون لَهُ مجالاً للشيطان، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشَّيطان منهُ مجال، ولا يعالج الشَّيء بضده وضد جميع وساوس الشَّيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة، وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وذلك لا يقدر عليه إلاَّ المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى، وإنما الشَّيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة قال الله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشَّيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١].

وقال مجاهد: في معنى قول الله تعالى: ﴿من شر الوسواس الخناس﴾ [سورة الناس: الآية ٤] قال: هو منبسط على القلب فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه، فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشَّيطان، كالتطارد بين النُّور والظَّلام وبين الليل والنهار لتضادهما قال الله تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشَّيطان فأنساهم ذكر الله﴾ [سورة المجادلة: الآية ١٩].

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشَّيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإن هو ذكر الله تعالى خنس، وإن نسي الله تعالى التقم قلبه**». وقال ابن وضاح في حديث ذكره: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب، مسخ الشَّيطان وجهه بيده وقال: بأبي وجه من لا يفلح، وكما أن الشَّهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه، فسلطة الشَّيطان أيضاً سارية في لحمه ودمه، ومحيط بالقلب من جوانبه ولذلك قال ﷺ: «**إن الشَّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع، وذلك لأن الجوع يكسر الشَّهوة، ومجرى الشَّيطان الشَّهوات**»، ولأجل اكتناف الشَّهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى: أخباراً عن إبليس: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثمَّ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ [سورة الأعراف: الآيتان ١٦، ١٧] وقال ﷺ: «**أن الشَّيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد لَهُ بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتترك دينك ودين آبائك؟ فعصاه وأسلم. ثمَّ قعد بطريق الهجرة. فقال: أتهاجر أتدع أرضك وسماءك فعصاه. وهاجر ثمَّ قعد له بطريق الجهاد فقال: اتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل وتنكح نساءك ويقسم مالك؟ فعصاه وجاهد**». وقال رسول الله ﷺ: «**فمن فعل ذلك فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة**».

الباب الثمانون

في بيان المحبة ومحاسبة النَّفس

قال سفيان: المحبة اتباع رسول الله ﷺ، وقال غيره: داوم الذكر، وقال غيره: إيثار المحبوب، وقال بعضهم: كراهية البقاء في الدُّنيا، وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة، فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها، وقال بعضهم: المحبة معنى من المحبوب قاهر القلوب عن إدراكه، وتمتع الألسن عن عبارته وقال الجنيد: حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة، وقال: كل محبة تكون بعوض، فإذا زال العوض زالت المحبة.

وقال ذو النون: قل لمن أظهر حب الله أحذر أنْ تُذَل لغير الله، وقيل للشبلي: رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف: إن تكلم هلك المحب إن سكت هلك وأنشد الشبلي رحمه الله:

يا أيها السيد الكريم ... حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني ... أنت بما مر بي عليم

ولغيره:

عجبت لمن يقول ذكرت ألفي ... وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً ... فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأساً بعد كأس ... فما نفذ الشراب وما رويت
فليت خياله نصب لعيني ... فإن قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوماً: من يدلنا على حبيبنا؟ فقالت خادمة لها: حبيبنا معنا ولكن الدُّنيا قطعتنا عنه. وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى: أوحى إلى عيسى عليه السَّلام إني إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدُّنيا الآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي وقيل: تكلم سمنون يوماً في المحبة، فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض، حتى سال الدم منه فمات وقال إبراهيم بن أدهم: إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك، وفرغتني للتفكر في عظمتك.

وقال السَّري رحمه الله: من أحب الله عاش، ومن مال إلى الدُّنيا طاش والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوبه فتاش.

وأما محاسبة النَّفس فقد أمر الله بها بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾[سورة الحشر: الآية ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال.

ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا، وفي الخبر أنه ﷺ جاءه رجل، فقال يا رسول الله: أوصني. فقال: «**أمستوص أنت**» فقال: نعم. قال: «**إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانته عنه**»، وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات، ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنين لعلكم تفلحون﴾[سورة النور: الآية ٣١] والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم، وقد قال النبي ﷺ: «**إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة**»، وقال الله تعالى: ﴿إنَّ الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[سورة الأعراف: الآية ٢٠١] وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل، ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟.

وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين، حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل، وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها، أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها: عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر، ثم قال لها: كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال، فقال: لا أحد أعز علي من عمر، فانظر كيف بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها.

وحديث أبي طلحة حين شغله الطَّائر في صلاته، فتدبر ذلك فجعل حائصه صدقة لله تعالى ندماً، ورجاء للعوض مما فاته في حديث ابن سلام، أنه حمل حزمة من حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في بيتك وغلمانك ما يكفونك فقال: أردت أن أجرب نفسي، هل تنكره؟ وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدُّنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، ثم فسر المحاسبة فقال: إنَّ المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول الله: إنك لتعجبني، وإنك لمن حاجتي، ولكن هيهات حيل بيني وبينك، وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا

أردت بهذا؟ والله أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله.

وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه، حتى دخل حائطاً فسمعته يقول: وبيني وبينه جدار، وهو الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك، وقال الحسن: في قوله تعالى: ﴿ولا أقسم بالنَّفس اللوامة﴾[سورة القيامة: الآية ٢] قال لا يلقى المؤمن إلاَّ يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي، ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبه كذا؛ ثمَّ ذمها. ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً، وهذا من معاتبة النفس وقال ميمون بن مهران: التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح. وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها.

ثم مثلت نفسي في النَّار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وغلالها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدُّنيا، فاعمل صالحاً قلت: فأنت في الأمنية فاعملي.

وقال مالك بن دينار: سمعت الحجاج يخطب، وهو يقول: رحم الله امرأ حاسب نفسه، قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرأً نظر في مكياله، رحم الله امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني، وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع اصبعه فيه حتى يحس بالنَّار، ثم يقول لنفسه: يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

الباب الحادي والثمانون

في بيان تلبيس الحق بالباطل

قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار: «**يأتي على النَّاس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال، كما تخلق الثياب على الأبدان**»، أمرهم كله يكون طعماً لا خوف معه إن أحسن أحدهم قال: يتقبل مني، وإن أساء قال: يغفر لي فأخبر أنهم يضعون الطَّمع موضع الخوف، لجعلهم بتخويفات القرآن، وما فيه وبمثله أخبر عن النَّصارى إذ قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٦٩] ومعناه أنهم ورثوا الكتاب، أي هم علماء يأخذون عرض هذا الأدنى، أي شهواتهم من الدُّنيا حراماً كان أو حلالاً.

وقد قال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤٦] ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدي﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٤] والقرآن من أوله تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر، إلاَّ ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه.

وترى النَّاس يهذونه، وهذا يخرجون الحروف من مخارجها، ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها، وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب، لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص، إلاَّ أن معاصيهم أكثر وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم مع أن ما في كفة السيئات أكثر.

وهذه غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدق به هو من أموال المسلمين، وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام، يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال، وما هو إلاَّ كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان، وفي الكفة الأخرى ألفاً، وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه.

وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذي يستغفر الله بلسانه، أو يسبح الله في اليوم

مائة مرة، ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم، ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النَّهار من غير حصر وعدد، يكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره، الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة وقد كتبه الكرام الكاتبون، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال: ﴿لما يلفظ من قول إلاَّ لديه رقيب عتيد﴾[سورة ق: الآية ١٨].

فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات، ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين، الذين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان، وذلك محض الغرور، ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه، لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته، وما نطق به في فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخة، فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ، ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه، ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها.

فقد دفعنا إلى أمر أن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين، وأن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن، وإنَّا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران، فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى، ويتقي ولا يغتر به اتكالاً على أباطيل المنى وتعاليل الشَّيطان الهوى والله أعلم.

الباب الثاني والثمانون

في فضل صلاة الجماعة

قال ﷺ: «**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبعة وعشرين درجة**».

وروى أبو هريرة أنه ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات، فقال: «**لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالنَّاس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فأحرق عليهم بيوتهم**»، وفي رواية أخرى ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فآمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم الحطب، ولو علم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مرماتين لشهدها يعني صلاة العشاء.

وقال عثمان رضي الله عنه: مرفوعاً من شهد العشاء، فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصُّبح فكأنما قام ليلة، وقال ﷺ: «**من صلى صلاة في جماعة، فقد ملأ نحره عبادة**». وقال سعيد بن المسيب: ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة، إلاَّ وأنا في المسجد. وقال محمد بن واسع: ما أشتهي من الدُّنيا إلا ثلاثة، أخاً أن تعوجت قومني، وقوتاً من الرزق عفواً بغير تبعة، وصلاة في جماعة يرفع عني سهوها ويكتب لي فضلها.

ورُوي أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوماً مرة، فلما انصرف قال: ما زال الشيطان بي آنفاً، حتى أريت أن لي فضلاً على غيري لا أؤم أبداً. وقال الحسن: لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء. وقال النخعي: مثل الذي يؤم الناس بغير علم، مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدري زيادته من نقصانه. وقال حاتم الأصم: فاتتني الصَّلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين أهون عند النَّاس من مصيبة الدُّنيا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سمع المنادي فلم يجب، لم يرد خيراً ولم يرد به خير. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصاً مذاباً خير له من أن يسمع النِّداء ثم لا يجيب.

وروي أن ميسون بن مهران أتى إلى المسجد فقيل له: إنَّ النَّاس قد انصرفوا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون لفضل هذه الصلاة أحب إليّ من ولاة العراق. وقال ﷺ: «**من صلى أربعين يوماً في جماعة لا تفوته فيها تكبيرة الإحرام، كتب الله له براءتين براءة من النفاق، وبراءة من النار**». ويقال: إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدري، فتقول لهم الملائكة: ما كانت أعمالكم؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطَّهارة لا يشغلنا غيرها، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار، فيقولون: بعد السؤال كنا نتوضأ قبل الوقت، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون: كنا نسمع الأذان في المسجد.

وروي أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام، إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعاً إذا فاتتهم الجماعة.

الباب الثالث والثمانون

في فضل صلاة الليل

أما من الآيات فقوله تعالى: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي اللَّيل﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] الآية وقوله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً﴾ [سورة المزمل: الآية ٦].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦] وقوله تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء اللَّيل ساجداً وقائماً﴾ [سورة الزمر: الآية ٩] الآية وقوله عز وجل: ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٤] وقوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥] قيل: هي قيام اللَّيل يستعان بالصَّبر عليه على مجاهدة النفس.

ومن الأخبار قوله ﷺ: «**يعقد الشيطان على قافية أحدكم، إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فأرقد، فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النَّفس، وإلا أصبح خبيث كسلان**»، وفي الخبر أنه ذكر عنده رجل ينام كل اللَّيل حتى يصبح.

فقال ذاك الرجل بال الشيطان في أنفه، وفي الخبر إن للشيطان سعوطاً ولعوقاً وذروراً، فإذا أسعط العبد ساء خلقه، وإذا لعقه ذرب لسانه بالشر، وإذا ذره نام اللَّيل حتى يصبح.

وقال ﷺ: «**ركعتان يركعهما العبد في جوف اللّيل، خير له من الدُّنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم**»، وفي الصَّحيح عن جابر أن النبي ﷺ قال: «**إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم، يسأل الله تعالى خيراً إلاَّ أعطاه إياه، وفي رواية يسأل الله خيراً من الدُّنيا والآخرة وذلك في كل ليلة**».

وقال المغيرة بن شعبة: قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه فقيل له: أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»، ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة، فإن الشكر سبب المزيد قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٧].

وقال ﷺ: «**يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حياً وميتاً ومقبوراً ومبعوثاً، قُمْ من الليل فصل، وأنت تريد رضا ربك يا أبا هريرة، صلي في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السَّماء كنور الكواكب، والنَّجم عند أهل الدُّنيا**».

وقال ﷺ: «**عليكم بقيام اللَّيل فإنه دأب الصَّالحين قبلكم، فإن قيام اللَّيل قربة إلى الله عز وجل، وتكفير للذنوب ومطردة للداء عن الجسد، ومنهاة عن الإثم**» وقال ﷺ: «**ما من امرىء تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم، إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه**».

وقال ﷺ: «**لأبي ذر لو أردت سفراً أعددت له عدة**» قال: نعم. قال: «**فكيف سفر طريق القيامة؟ ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم؟**» قال: بلى بأبي أنت وأمي. قال: «**صم يوماً شديد الحر ليوم النشور، وصل ركعتين في ظلمة اللَّيل لوحشة القبور، وحج حجة لعظائم الأمور، وتصدق بصدقة على مسكين، أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها**».

وروي أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل، إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون، قام يصلي ويقرأ القرآن، ويقول يا رب النَّار أجرني منها، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**إذا كان ذلك فأذنوني**» فأتاه فاستمع فلما أصبح قال: «**يا فلان هلا سألت الله الجنة؟**» فقال: يا رسول الله إني لست هناك، ولا يبلغ عملي ذاك فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزل جبريل عليه السلام وقال: أخبر فلاناً أن الله قد أجاره النَّار وأدخله الجنة.

ويروى أن جبريل عليه السَّلام قال للنبي ﷺ: نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي باللَّيل. فأخبره النبي ﷺ بذلك، فكان يداوم بعده على قيام اللَّيل. قال نافع: كان يصلي باللَّيل ثم يقول: يا نافع أسحرنا فأقول: لا فيقوم لصلاته ثم يقول: يا نافع اسحرنا. فيقول: نعم. فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر، وقال علي بن أبي طالب: شبع يحيى بن زكريا عليهما السَّلام ليلة من خبز شعير، فنام عن ورده حتى أصبح، فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى أوجدت داراً خيراً لك من داري أم وجدت جواراً خيراً لك من جواري فوعزتي وجلالي يا يحيى، لو اطلعت إلى الفردوس إطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقاً، ولو اطلعت إلى جهنم إطلاعة لذاب شحمك، ولبكيت الصديد بعد الدموع، ولبست الجلد بعد المسوح وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق.

فقال: «سينهاه ما يعمل» وقال ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من اللَّيل يصلي، ثم أيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء» وقال ﷺ: «رحم الله امرأة قامت من اللَّيل فصلت، ثم أيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء» وقال ﷺ: «من استيقظ من اللَّيل، وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

وقال ﷺ: «أفضل الصَّلاة بعد المكتوبة قيام اللَّيل» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «من نام عن حزبه، أو عن شيء منه باللَّيل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر، كتب له كأنما قرأه من اللَّيل» قيل: كان الإمام البخاري رضي الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

اغتنم في الفراغ فضل الركوع ... فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح رأيت من غير سقم ... خرجت نفسه الصحيحة فلتة

الباب الرابع والثمانون

في عقوبة علماء الدُّنيا

ونعني بعلماء الدُّنيا علماء السُّوء، الذين قصدهم من العلم التنعم بالدُّنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها قال ﷺ: «إن أشد النَّاس عذاباً يوم القيامة، عالم لم ينفعه الله بعلمه»، وعنه ﷺ أنه قال: «لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً» وقال ﷺ: «علمان، علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه، وعلم في القلب فذلك العلم النَّافع».

وقال ﷺ: «يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق» وقال ﷺ: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه النَّاس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار».

وقال ﷺ: «من كتم علماً عنده ألجمه الله بلجام من نار» وقال ﷺ: «لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال» فقيل: وما ذلك؟ فقال: «من الأئمة المضلين»، وقال ﷺ: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً».

وقال عيسى عليه السلام: إلى متى تصفون الطَّريق للمدلجين، وأنتم مقيمون مع

المتحيرين، فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم، فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد، وأنه بالخوض في العلم قد حرم السَّلامة إن لم يدرك السعادة.

وقال عمر رضي الله عنه: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم قالوا: وكيف يكون منافقاً عليماً؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب والعمل، وقال الحسن رحمه الله: لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء، وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: أريد أن أتعلم وأخاف أن أضيعه فقال: كفى بترك العلم إضاعة له وقيل لإبراهيم بن عيينة: إن الناس أطول ندماً؟ قال: إما في عاجل الدُّنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره وإما عند الموت فعالم مفرط.

وقال الخليل بن حمد الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فارفضوه وقال سفيان الثوري رحمه الله: يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل وقال ابن المبارك: لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

وقال الفضيل بن عياش رحمه الله: إني لأرحم ثلاثة عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالماً تلعب به الدُّنيا. وقال الحسن: عقوبة الدُّنيا موت القلب، وموت القلب طلب الدُّنيا بعمل الآخرة وأنشدوا:

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنياه سواه فهو من دين أعجب

وقال ﷺ: «**إن العالم ليعذب عذاباً يطيف به أهل النار استعظاماً لشدة عذابه**» أراد به العالم الفاجر وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتية، وأنهي عن الشر وآتيه وإنما يضاعف عذاب ألعن في معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾** [سورة النساء: الآية ١٤٥] **لأنهم جحدوا بعد العلم، وجعل اليهود شراً من النَّصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً، ولا قالوا إنه ثالث ثلاثة إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذا قال الله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾** [سورة البقرة: الآية ١٤٦]» وقال

تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٩].

وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء: ﴿واتل عليهن نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منا فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٥] حتى قال: فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتي كتاب الله تعالى، فأخلد إلى الشهوات فشبه بالكلب، أي سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات. وقال عيسى عليه السَّلام: مثل علماء السُّوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع.

الباب الخامس والثمانون

في فضل حسن الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم: الآية ٤] وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن، وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٩] ثم قال ﷺ: «**هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك**» وقال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وقال ﷺ: «**أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق**». وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين ؟ قال: «**حسن الخلق**» فأتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «**حسن الخلق**». ثم أتاه من قبل شماله فقال ما الدين؟ فقال: «**حسن الخلق**»، ثم أتاه من ورائه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: «**أما تفقه هو أن لا تغضب**»، وقيل يا رسول الله: ما الشؤم؟ قال: «**سوء الخلق**» وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني. فقال: «**اتق حيث كنت**» قال: زدني. قال: «**اتبع السيئة بالحسنة تمحها**». قال: زدني. قال: «**خالق الناس بخلق حسن**».

وسئل ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «**خلق حسن**». وقال ﷺ: «**ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار**» وقال الفضل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم اللَّيل، وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال: «**لا خير فيها هي من أهل النار**».

وقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أول ما يوضع في الميزان حسن**

الخلق والسخاء»، ولما خلق الله الإيمان قال: اللّهم قوني فقواه بحسن الخلق، ولما خلق الله الكفر قال الله: اللّهم قوني فقواه بالبخل وسوء الخلق وقال ﷺ: **«إن الله استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلاّ السخاء، وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما»**.

وقال ﷺ: **«حسن الخلق خلق الله الأعظم»** وقيل يا رسول الله: أي المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: **«أحسنهم خلقاً»**. وقال ﷺ: **«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق»** وقال أيضاً ﷺ: **«سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل»**، وعن جرير بن عبد اللّه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنك امرؤ قد حسن خلقك فحسن الله خلقك»**.

وعن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ أحسن النّاس وجهاً وأحسنهم خلقاً، وعن أبي سعيد البدري قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: **«اللّهم كما حسنت خلقي حسن خلقي»** وعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الدعاء فيقول: **«اللّهم إني أسألك الصّحة والعافية وحسن الخلق»**، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: **«كرم المؤمن دينه وحسبه ومروءته عقله»** وعن أسامة بن شريك قال: شهدت الأعاريب يسألون النبي ﷺ يقولون: ما خير ما أعطي العبد؟ قال: **«خلق حسن»**، وقال ﷺ: **«إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً»**.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث من لم يكن فيه أي واحدة منهن، فلا تعتدوا بشيء من عمله، تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف به السفيه، أو خلق يعيش به الناس»**، وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة اللّهم أهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت، واصرف عني سيئها، ولا يصرف عني سيئها إلا أنت وقيل: فيم التجمل؟ قال: **«في لطف الكلام وإظهار البشر والابتسام، فمن لقي الناس بالإحسان وعاملهم بالأخلاق الحسان، فهو الذي يخف عليهم جانبه ويحمد إخاؤه»** كما قال:

إذا حـويـت خصـال الخيـر أجمعهـا ... فضـلاً وعـاملـت كـل النـاس بـالحسـن
لـم تعـدم الخير مـن ذي العرش تحرزه ... والشكـر مـن خلقـه فـي السـر والعلـن

الباب السادس والثمانون

في الضحك والبكاء واللباس

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أفمن هذا الحديث﴾ [سورة النجم: الآية ٥٩] أي القرآن تعجبون منه تكذيباً، وتضحكون منه استهزاء مع كونه من عند الله تعالى، ولا تبكون خوفاً وانزجاراً لما فيه من الوعيد، وأنتم ساهون غافلون عما يطلب منكم قال: لما نزلت هذه الآية فما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يبتسم.

وفي لفظ فما رؤي النبي ﷺ ضاحكاً ولا مبتسماً حتى ذهب من الدُّنيا، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم من المسجد، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون، فوقف وسلم عليهم ثم قال: «**أكثروا ذكر هازم اللذات**»، ثم خرج بعد ذلك مرة أخرى، فإذا قوم يضحكون فقال: «**أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**».

ولما أراد الخضر أن يفارق موسى عليهما السلام قال له: عظني. قال له: يا موسى إياك واللجاجة ولا تمشي بغير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير الخطائين بخطاياهم، وابك على خطيئتك وقال ﷺ: «**كثرة الضحك تميت القلوب**» وقال ﷺ: «**من ضحك لشبابه بكى لهرمه، ومن ضحك لغناه بكى لفقره، ومن ضحك لحياته بكى لموته**» وقال ﷺ: «**اقرؤوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا**» وعن الحسن في قوله: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٢] أي في الدُّنيا، ﴿وليبكوا كثيراً﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٢] في الآخرة ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٢].

وقال أيضاً: «**يا عجباً من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور من ورائه الموت**» ومر رضي الله عنه بشاب يضحك فقال له: «**يا بني هل جزت على الصراط؟**» قال: لا. قال: «**هل تبين لك أنك تصير إلى الجنة؟**» قال: لا. قال: «**ففيم الضحك؟**» فما رؤي الشاب ضاحكاً بعد ذلك؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي، ومدح الله تعالى أقواماً بالبكاء فقال تعالى: ﴿ويخرون للأذقان يبكون﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٩].

وعن الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها﴾ [سورة الكهف: الآية ٤٩] قال: الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال ﷺ: «**كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثاً عين بكت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين سهرت في سبيل الله تعالى**»، ويقال ثلاثة أشياء تقسي القلب، الضحك من غير عجب، والأكل من غير جوع، والكلام في غير حاجة.

وكان رسول الله ﷺ يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك، وكان يعجبه الثياب الخضر، وكان أكثر لباسه البياض ويقول: «**ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم**»، وكان له ﷺ قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق، ولقد كان له كساء أسود فوقه. فقالت له أم سلمة: بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود؟ فقال: «**كسوته**» فقالت: ما رأيت شيئاً قط كان أحسن من بياضك على سواده.

وكان ﷺ إذا لبس ثوباً لبسه من قبل ميامنه، ويقول: «**الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ويجمل به في الناس**»، وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره، وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً، ثم يقول: «**ما من مسلم يكسو مسلماً من سمل ثيابه لا يكسوه إلاَّ لله، إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حياً وميتاً**» وكانت له ﷺ عباءة تفرش له حيثما تنقل تثني طاقين تحته، وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره.

الباب السابع والثمانون

في فضلِ القرآن وفضل العلم والعلماء

قال ﷺ: «**من قرأ القرآن ثمَّ رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر من عظمة الله تعالى**» وقال ﷺ: «**ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن**» وقال ﷺ: «**أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن**» وقال ﷺ: «**خيركم من تعلم العلم وعلمه**».

قال ﷺ: «**إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد**» فقيل: يا رسول الله: وما جلاؤها؟ فقال: «**تلاوة القرآن وذكر الموت**». وقال الفضيل بن عياض حامل القرآن حامل راية الإسلام: فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن وقال أيضاً: من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح، ثمَّ مات من نومه

ختم لَهُ بطابع الشُّهداء ومن قرأها حين يمشي، ثم مات من ليلته ختم لَهُ بطابع الشُّهداء.

وأما فضل العلم والعلماء فالأحاديث الواردة في ذلك كثيرة قال ﷺ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده»** وقال ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة»** وقال ﷺ: **«أفضل النَّاس المؤمن العالم الذي إذا احتيج إليه نفع، وإن استغني عنه أغنى نفسه»**.

وقال ﷺ: **«أقرب النَّاس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد»** أما أهل العلم فدلوا النَّاس على ما جاء به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل وقال ﷺ: **«لموت قبيلة أيسر من موت عالم»** وقال ﷺ: **«يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشُّهداء»** وقال ﷺ: **«لا يشبع عالم من علم حتى يكون منتهاه الجنة»**. وقال ﷺ: **«هلاك أمتي في شيئين ترك العلم وجمع المال»**. وقال ﷺ: **«كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامسة أي مبغضاً فتهلك»**. وقال ﷺ: **«آفة العلم الخيلاء»**، ومن أمثال الحكماء من طلب العلم والرياسة فقد عدم التوفيق والسِّياسة.

قال تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] وقال الشَّافعي رضي الله عنه: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه جل مقداره ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم الغريب رق طبعه، ومن لم يعز نفسه لم ينفعه علمه. وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أكثر مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه وفتق مراتق ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما يعلم وإفادة لما تعلم.

وقال ﷺ: **«إذا رد الله عبداً حظر عليه العلم»** وقال ﷺ: **«لا فقر أشد من الجهل»**.

الباب الثامن والثمانون

في فضلِ الصَّلاة والزكاة

اعلم أن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مباني الإسلام، وأردف بذكرها الصَّلاة التي هي أعلى الأعلام فقال تعالى: ﴿وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزكاة﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣] وقال ﷺ: «**بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصَّلاة وإيتاء الزكاة**» الحديث، وشدة الوعيد على المقصرين فيها فقال تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ [سورة الماعون: الآيتان ٤،٥] وتقدم الكلام على ذلك مستوفى وقال تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٤] ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج الزكاة.

فائدة: يستحب أن يطلب لصدقته أتقياء الفقراء المعرضين عن الدُّنيا المتجردين لتجارة الآخرة فإن ذلك يربوبه المال قال ﷺ: «**لا تأكل إلاَّ طعام تقي ولا يأكل طعامك إلاَّ تقي**، وذلك لأن التقي يستعين به على التقوى فتكون شريكاً به في طاعتك بإعانتك إياه»؛ وكان بعض العلماء يؤثر بالصَّدقة فقراء الصُّوفية دون غيرهم فقيل لَهُ: لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل. فقال: لا. هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه، فإذا طرقتهم فاقة تشتت همة أحدهم، فلئن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحبُّ إلي من أن أعطي ألفاً ممن همته الدُّنيا، فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال: هذا ولي من أولياء الله تعالى.

وقال: ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا، ثمَّ حكي أن هذا الرجل اختل حاله، وهمَّ بترك الحانوت، فبعث إليه الجنيد مالاً، وقال: اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت، فإن التجارة لا تضر مثلك، وكان هذا الرجل بقالاً لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعونه، وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم. فقيل له: لو عممت. فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء.

فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم، ولم يقبل على التعليم فتفريغهم للعلم أفضل، وأن يخص ذوي العاهات لا سيما ذوي الأرحام والأقارب فتكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم ما لا يحصى من الأجر، كما مر في بابه وأن يخرج الصَّدقة

سراً ليسلم من شؤم الرِّياء، ومن إذلال المعطي في الملأ قال ﷺ: «صدقة السّر تطفىء غضب الرب» وذكر في حديث السَّبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلاَّ ظله، رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أعطت يمينه، نعم إن كان في إظهار الصَّدقة خير كان يقتدي به غيره فلا بأس إن سلم من الرياء وتجنب الامتنان كما قال تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٤] فآفة المعروف المن بل يؤثر كتمانه ويستعمل نسيانه، كما يجب على من صنع لَهُ معروف نشره عليه شكره، كما في الحديث لا يشكر الله من لا يشكر النَّاس وما أحسن قول القائل:

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها كفور أو شكور

ففي شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور

الباب التاسع والثمانون

في برِ الوالدين وحقوق الأولاد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم، فأخص الأرحام وأمسها الولادة فيتضاعف تأكد الحق فيها، وقد قال ﷺ: «لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه» وقال ﷺ: «بر الوالدين أفضل من الصَّلاة والصَّدقة والصَّوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله»، وقد قال ﷺ: «من أصبح مرضياً لأبويه أصبح لَهُ بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن أمسى فمثل ذلك، وإن كان واحد فواحد، وإن ظلما وإن ظلما، ومن أصبح مسخطاً لأبويه أصبح لَهُ بابان مفتوحان إلى النَّار، ومن أمسى فمثل ذلك، وإن كان واحداً فواحد، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما».

وقال ﷺ: «إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم» وقال ﷺ: «بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثمَّ أدناك فأدناك». ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السَّلام: يا موسى إنه من بر والديه وعقني كتبته باراً ومن برني وعق والديه كتبته عاقاً.

وقيل: لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السَّلام لم يقم لَهُ، فأوحى الله إليه أتتعاظم أن تقوم لأبيك، وعزتي وجلالي لا أخرجت من صلبك نبياً وقال ﷺ: «ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه أجرها، ويكون لَهُ مثل أجورهما من غير

أن ينقص من أجورهما شيء». وقال مالك بن ربيعة: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله هل بقي علي من بر أبوي شيء أبرهما بعد وفاتهما؟ قال: «**نعم الصَّلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلاَّ بهما**»، وقال ﷺ: «**من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي الأب**» وقال ﷺ: «**بر الوالدة على الولد ضعفان**» وقال ﷺ: «**دعوة الوالدة أسرع إجابة**» قيل: يا رسول الله ولم ذاك؟ قال: «**هي أرحم من الأب، ودعوة الرحم لا تسقط**»، وسأله رجل فقال يا رسول الله من أبر؟ فقال: «**بر والديك**». فقال: ليس لي والدان فقال: «**بر ولدك، كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق**»، وقال ﷺ: «**رحم الله والداً أعان ولده على بره، أي لم يحمله على العقوق بسوء عمله**»، وقال ﷺ: «**ساووا بين أولادكم في العطية**».

وقد قيل: ولدك ريحانتك تشمها سبعاً، وخادمك سبعاً، ثمَّ هو عدوك أو شريكك. وقال أنس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «**الغلام يعق عن اليوم السَّابع ويسعى ويماط عنه الأذى، فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه فإذا بلغ ثلاث عشر سنة ضرب على الصَّلاة، فإذا بلغ ست عشر سنة زوجه أبوه ثمَّ أخذ بيده، وقال قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك في الدُّنيا وعذابك في الآخرة**».

وقال ﷺ: «**من حق الولد على الوالد أن يُحسِن أدبه ويُحِسنْ اسمه**» وقال ﷺ: «**كل غلام رهين أو رهينة بعقيقة تذبح عنه يوم السَّابع ويحلق رأسه**» وقال قتادة: إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها، ثمَّ توضع على نافوخ الصَّبي حتى يسيل منه مثل الخيط، ثمَّ يغسل رأسه ويحلق بعد، وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده، فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم. قال: أنت أفسدته ويستحب الرفق بالولد رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ، وهو يقبل ولده الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال ﷺ: «**إن من لا يرحم لا يرحم**».

وقالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ يوماً: «**اغسلي وجه أسامة فجعلت أغسله وأنا أنفة فضرب يدي، ثمَّ أخذه فغسل وجهه ثمَّ قبله ثمَّ قال: قد أحسن بنا إذ لم تكن لَهُ جارية**» وتعثر الحسن والنبي ﷺ على منبره فنزل فحمله، وقرأ قوله تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [سورة التغابن: الآية ١٥].

وقال عبد اللَّه بن شداد: بينما رسول الله ﷺ يصلي بالنَّاس، إذ جاءه الحسين فركب

عنقه وهو ساجد فأطال السجود بالنَّاس، حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السَّجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر فقال: «**أن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته**». وفي ذلك فوائد إحداها القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجداً، وفيه الرفق بالولد والبر وتعليم لأمته.

وقال ﷺ: «**ريحُ الولد من ريح الجَنَّة**». وقال يزيد بن معاوية: أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس، فلما وصل إليه قال لَهُ: يا أبا بحر. ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة فإن طلبوا فأعطهم وإن غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً فيملوا حياتك، ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك فقال معاوية: أنت يا أحنف لقد دخلت علي وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد، فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد، وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقاسمه إياها على الشَّطر.

الباب التسعون

في حقوق الجوار والإحسان للمساكين

اعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق، الجار المسلم ما يستحقه كل مطعم وزيادة إذ قال النبي ﷺ: «**الجيران ثلاثة جار له حق واحد، وجار لَهُ حقان، وجار لَهُ ثلاثة حقوق، الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم، وأما الذي لَهُ حقان فالجار المسلم لَهُ حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي لَهُ حق واحد فالجار المشرك**»، فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار وقد قال ﷺ: «**أحسن مجاورة من جاورك تكُن مُسلماً**».

وقال النبي ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» وقال النبي عليه السَّلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**» وقال ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه**»، وقال عليه السَّلام: «**أول خصمين يوم القيامة جاران**»، وقال عليه السَّلام: «**إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته**».

ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال لَهُ: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق علي فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه وقيل لرسول الله ﷺ: إنَّ فلانة تصوم النَّهار وتقوم اللّيل وتؤذي جيرانها فقال ﷺ: **«هي في النَّار»**.

وجاء رجل إليه ﷺ يشكو جاره فقال لَهُ النبي عليه السَّلام: **«اصبر ثم قال لَهُ: في الثالثة والرابعة اطرح متاعك في الطريق»** قال: فجعل النَّاس يمرون به ويقولون: ما لك؟ فيقول: آذاه جاره قال: فجعل يقول: لعنه الله فجاءه جاره فقال لَهُ: رد متاعك فوالله لا أعود.

وروى الزهري أن رجلاً أتى النبي عليه الصَّلاة والسَّلام فجعل يشكو جاره، فأمر النبي ﷺ أن ينادي على باب المسجد، إلاَّ أن أربعين داراً جار قال الزهري: أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأومأ إلى أربع جهات وقال عليه السَّلام: **«اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها، ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله، وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله، ويمن الفرس ذله وحسن خلقه وشؤمه صعوبته وسوء خلقه»**.

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى أيضاً، فإنَّ الجار إذا كف أذاه فليس في ذلك قضاء حق، ولا يكفي احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف، وإذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة فيقول: يا رب سل هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني.

وبلغ ابن المقفع أنَّ جاراً لَهُ يبيع داره في دين ركبه وكان يجلس في ظل داره فقال: ما قمت إذا تحرمه ظل داره إنْ باعها معدماً فدفع إليه ثمن الدار، وقال: لا تبيعها وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره، فقيل له: لو اقتنيت هراً قال: أخشى أنَّ الفأر يسمع صوت الهر فيهرب إلى دار الجيران، فأكون قد أحببت لهم ما كرهت لنفسي.

وجملة حق الجار أنَّ يبدأهُ بالسَّلام ولا يطيل معه الكلام ولا يكثر عليه السؤال ويعوده في المرض ويعزيه في المصُيبة ويقوم معه في العزاء ويهنئهُ في الفرح ويظهر الشَّركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ولا يُضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا يصب الماء في منزله، ولا يطرح التراب في فنائه ولا يضيق طريقه في الدار، ولا يتبعه بالنَّظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف لَهُ من

عوراته وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلام ويغض بصره عن حرمته ولا يديم النَّظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه هذا إلى جملة الحقوق التي لعامة المسلمين.

وقد قال ﷺ: **«أتدرونَ ما حق الجار؟ إنْ استعان بك اعنته وإنْ استنصرك نصرتهُ وإنْ استقرضك أقرضتهُ، وإنْ افتقر عدت عليه، وإنْ مرض عدته وإنْ مات تبعت جنازته، وإنْ أصابهُ خير هنأتهُ، وإنْ أصابته مُصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلاّ بإذنه، ولا تؤذه وإذا اشتريت فاكهة، فاهد له فإن لم تفعل، فادخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلاّ أن تغرف له منها»**.

ثم قال: **«أتدرون ما حق الجار، والذي نفسي بيده لا يبلغُ حق الجار إلاّ من رحمهُ الله»**. هكذا رواه عمرو بنُ شعيب عن أبيه وجده عن النبي ﷺ، قال مجاهد: كنت عند عبد اللّه بن عُمر وغلام له يسلخ شاة، فقال: يا غلام إذا سلخت الشاة، فابدأ بجارنا اليهودي حتى قال ذلك مراراً، فقال له: كم تقول في هذا؟ فقال إنَّ رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنهُ سيورثه.

وقال هشام: كان الحسن لا يرى بأساً أنْ تُطعم الجار اليهودي، والنّصراني من أضحيتك، وقال أبو ذر رضي الله عنه: أوصاني خليلي عليه السلام.

وقال: **«إذا طبخت قدراً، فأكثر ماءها، ثم انظر بعض أهل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها»**.

الباب الحادي والتسعون

في عقوبة شارب الخمر

قد أنزل الله في الخمر ثلاث آيات الأولى قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للنّاس﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٩] الآية.

فكان في المسلمين شارب وتارك إلى أن شرب رجل فدخل في الصلاة فهجر فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [سورة النساء: الآية ٤٣] الآية فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضي الله عنه فأخذ

بلحى بعير وشج بها رأس عبد الرحمٰن بن عوف ثم قعد ينوح على قتلى بدر فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر ردائه فرفع شيئاً كان في يده فضربه به فقال أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فأنزل الله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ [سورة المائدة: الآية ٩١] الآية.

فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا ومن الأخبار المتفقة على تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة مدُمن خمر»** وقوله ﷺ: **«أوّل ما نهاني ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال»**، وقوله ﷺ: **«ما من قوم اجتمعوا على مسكر في الدُّنيا إلاَّ جمعهم الله في النَّار»**، فيقبل بعضهم على بعض يتلاومون يقول أحدهم للآخر: يا فلان لا جزاك الله عني خيراً، فأنت الذي أوردتني هذا المورد فيقول لَهُ الآخر: مثل ذلك وعنه ﷺ أنه قال: **«منْ شربَ الخمرَ في الدُّنيا سقاهُ الله من سم الأساود شربة يتساقط منها لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها، فإذا شربها يتساقط لحمه وجلده يتأذى به أهل النَّار»**، إلاَّ أن شاربها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها شركاء في إثمها، لا يقبل الله منهم صلاة ولا صوماً، ولا حجاً حتى يتوبوا، فإن ماتوا قبل التوبة كان حقاً على الله أن يسقيهم بكل جرعة شربوها في الدُّنيا من صديد جهنم، إلاَّ وإنَّ كل مسكر حرام وكل خمر حرام.

ذكر ابن أبي الدُّنيا أنه مر بسكران، وهو يبول في يده ويغسل به يده كهيئة المتوضىء، وهو يقول: الحمد الله الذي جعل الإسلام نوراً والماء طهوراً. وعن العباس بن مرداس أنه قيل لَهُ في الجاهلية: لمَ لا تشرب الخمر فإنها تزيد في حرارتك؟ فقال: ما أنا بأخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم.

وروى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«اجتنبوا أم الخبائث فإنه كان رجل ممن كان قبلكم، يتعبد ويعتزل النَّاس، فتعلقت به امرأة فأرسلت إليه خادماً إنا ندعوك لشهادة فدخل فطفقت، كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة، وعندها غلام وباطية فيها خمر فقالت: إنا لم ندعك لشهادة، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام وتقع علي، أو تشرب كأساً من الخمر فإن أبيت صحت بك وفضحتك، فلما رأى أنه لا بد لَهُ من ذلك قال: اسقيني كأساً من الخمر فسقته فقال: زيديني فلم يزل حتى وقع عليها، وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع إيمان**

وإدمان الخمر في صدر رجل أبداً ليوشكن أحدهما يخرج صاحبه».

وروى أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن آدم لما أهبط إلى الأرض قالت الملائكة أي رب»: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ٣] قالوا: «ربنا نحنُ أطوع لك من بني آدم».

قال الله تعالى لملائكته: هلموا ملكين من الملائكة فننظر كيف يعملان قالوا: ربنا هاروت وماروت قال: فاهبطوا إلى الأرض فتمثلت لهم الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاآها فسألا نفسها فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الأشراك قالا: والله لا نشرك بالله أبداً فذهبت عنهما، ثمَّ رجعت إليهما ومعها صبي تحمله. فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالا: لا والله لا نقتله أبداً فذهبت، ثمَّ رجعت بقدح خمر تحمله. فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تشربا هذه الخمرة فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصَّبي، فلما أفاقت قالت المرأة والله ما تركتما من شيء أبيتما علي إلاَّ فعلتما حين سكرتما فخيرا عند ذلك بين عذاب الدُّنيا، وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدُّنيا.

وروي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: اشتكت بنت لي فنبذت لها في كوز فدخل علي رسول الله ﷺ، وهو يغلي قال: «ما هذا يا أم سَلمة»؟ فذكرت لَهُ إني أداوي به ابنتي فقال ﷺ: «إنَّ الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها» وروي أن الله تعالى لما حرم الخمر سلب منها المنافع.

الباب الثاني والتسعون

في معراجِ النَّبي ﷺ

روى البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة، أن نبي ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينَما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ فقد قال: وسمعته يقول: فشق ما بين هذه إلى ما بين هذه». فقلت: للجارود وهو إلى جنبي ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبي، ثمَّ أتيت بطشت من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي ثمَّ حشي ثم أعيد، ثمَّ أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال

لَهُ: الجارود، وهو البراق يا أبا حمزة قال أنس: نعم يضع خطوة عند أقصى طرفه فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السَّماء الدُّنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح.

فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد علي السَّلام، ثمَّ قال مرحباً بالابن الصَّالح والنبي الصَّالح، ثم صعد بي حتى أتى السَّماء الثَّانية فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح لنا.

فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا، ثمَّ قالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السَّماء الثَّالثة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح.

فلما خلصت إذا يوسف قال: هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد، ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح والنبي الصَّالح، ثمَّ صعد بي إلى السَّماء الرابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل: قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح.

فلما خلصت إذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد، ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح والنبي الصَّالح، ثمَّ صعد بي حتى أتى السَّماء الخامسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون فسلم عليه فسلّمت عليه فرد، ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح والنبي الصَّالح، ثمَّ صعد بي حتى أتى السَّماء السَّادسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد، ثمَّ قال مرحباً بالأخ الصَّالح والنبي الصَّالح فلما تجاوزت بكى قيل لَهُ: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن

غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثمَّ صعد بي إلى السَّماء السَّابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السَّلام فقال: مرحباً بالابن الصَّالح والنبي الصَّالح، ثمَّ رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هاجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فهما النيل والفرات، ثمَّ رفع ربي إلى البيت المعمور، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثمَّ أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فاخترت اللبن فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك، ثمَّ فرضت علي الصَّلوات خمسين صلاة كل يوم قال: فرجعت فمررت على موسى قال: بما أمرت؟

قال: فقلت: بخمسين صلاة كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت النَّاس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضعت عني عشرا، فرجعت إلى موسى قال: مثله، فرجعت فوضعت عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت النَّاس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت منه، ولكن أرضى واسلم قال: فلما جاوزت ناداني مناد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي.

الباب الثالث والتسعون

في فضائل الجمعة

اعلم أن هذا يوم عظيم عظَّم الله به الإسلام وخصص به المسلمين قال الله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩] فحرم الاشتغال بأمور الدُّنيا، وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة وقال ﷺ: **«إن الله عز وجل فرض عليكم الجمعة في يومي هذا في مقامي هذا»** وقال ﷺ: **«من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه»**.

وفي لفظ آخر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره، واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة فقال: في النَّار فلم يزل يتردد إليه شهراً يسأله عن ذلك وهو يقول: في النَّار وفي الخبر أن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه، وهدانا الله لَهُ وأخره لهذه الأمة، وجعله عيداً لهم فهم أولى النَّاس به سبقاً، وأهل الكتابين لهم تبع، وفي حديث عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: **«أتاني جبريل عليه السَّلام في كفه مرآة بيضاء وقال: هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك. قلت: فما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير قسم لَهُ أعطاه الله سبحانه إياه، ومن ليس له قسم ذخر لَهُ ما هو أعظم منه، أو تعوذ من شر هو مكتوب عليه إلاَّ أعاذه الله عز وجل من أعظم منه، وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد قلت: ولم؟ قال: إن ربك عز وجل اتخذه في الجنة لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم»**، وقال ﷺ: **«خير يوم طلعت عليه الشَّمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السَّلام، وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات، وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم المزيد، كذلك تسميه الملائكة في السَّماء وهو يوم النَّظر إلى الله تعالى في الجنة»**.

وفي الخبر أن الله عز وجل يخرج في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النَّار، وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام»**. وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: **«أن الجحيم تسعر في كل يوم قبل الزوال، عند استواء الشَّمس في كبد**

السَّماء، فلا تصلوا في هذه السَّاعة إلاَّ يوم الجمعة فإنه صلاة كله وأن جهنم لا تسعر فيه».

وقال كعب: أن الله عز وجل فضل مكة ومن الشُّهور رمضان ومن الأيام الجمعة من الليالي ليلة القدر. ويقال: إن الطَّير والهوام يلقى بعضها بعضاً في يوم الجمعة فتقول سلام سلام يوم صالح. وقال ﷺ: «**من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله لَه أجر شهيد ووقي فتنة القبر**».

الباب الرابع والتسعون

في حق الزوجة على الزوج

حقوق الزوجات على الأزواج كثيرة منها حسن الخلق معهن، واحتمال الأذى منهن ترحماً عليهن لقصور عقلهن قال الله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ [سورة النساء: الآية ١٩] وقال في تعظيم حقهن: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ [سورة النساء: الآية ٢١] وقال: والصاحب بالجنب قيل: هي المرأة وآخر ما وصى به رسول الله ﷺ: «**ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه، وخفي كلامه جعل يقول الصلاة والصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون الله الله في النِّساء، فإنهن عوان في أيديكم يعني أسراء أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**» وقال ﷺ: «**من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فوعون**».

واعلم أنه ليس من حسن الخلق معها كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى اللَّيل، وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال: أتراجعيني يا لكعاء؟ فقالت: إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك. فقال عمر: خابت حفصة وخسرت إن راجعته ثم قال لحفصة: لا تغتري بابنة ابن أبي قحافة فإنها حب رسول الله ﷺ، وخوفها من المراجعة.

وروي أنه دفعت أحداهن في صدر رسول الله ﷺ فزجرتها أمها فقال ﷺ: «**ذعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك**» وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكماً واستشهده فقال رسول الله ﷺ: «**تكلمين أو أتكلم**» فقالت: بل تكلم أنت،

ولا تقل إلاَّ حقاً فلطمها أبو بكر حتى دمى فوها وقال يا عدوة نفسها: أو يقول غير الحق فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره فقال لَهُ النبي ﷺ: «**لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا**» وقالت لَهُ مرة في كلام غضبت عنده: أنت الذي تزعم أنك رسول الله فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً.

—— وكان يقول لها: إني لأعرف غضبك من رضاك قالت: وكيف تعرفه؟ قال: إذا رضيت قلت لا وإله محمد، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم قالت: صدقت. إنما أهجر اسمك ويقال: إن أول حب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها، وكان يقول لنسائه لا تؤذينني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها.

وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أرحم النَّاس بالنساء والصبيان، ومنها أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النَّساء، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق، حتى روي أنه ﷺ كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوماً وسبقها في بعض الأيام فقال ﷺ: هذه بتلك.

وفي الخبر أنه كان ﷺ من أفكه النَّاس مع نسائه وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت أصوات أُناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء فقال لي رسول الله ﷺ: أتحبين أن تري لعبهم؟ قالت: نعم. فأرسل إليهم فجاءوا، وقام رسول الله ﷺ بين البابين فوضع كفه على الباب، ومد يده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وانظر، وجعل رسول الله ﷺ يقول «**حسبك**» وأقول: اسكت مرتين ثلاثاً ثم قال: «**يا عائشة حسبك**» فقلت: نعم فأشار إليهم فانصرفوا فقال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله**».

وقال ﷺ: «**خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي**». وقال عمر رضي الله: عنه مع خشونته ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصَّبي، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً وقال لقمان رحمه الله: ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي وإذا كان في القوم وجد رجلاً.

وفي تفسير الخبر المروي إنَّ الله يبغض الجعظري الجواظ قيل: هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه، وهو أحد ما قيل: في معنى قوله تعالى عتل قيل: العتل هو الفظ

اللسان الغليظ القلب على أهله وقال ﷺ لجابر: «**هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك**» ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت: والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج سكيتا إذا خرج آكلا ما وجد غير مسائل عما فقد، ومنها أن لا ينبسط في الدعاية وحسن الخلق والموافقة، وباتباع هواها إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية هيبته عندها بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر والتعص.

قال الحسن: والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلاّ كبه الله في النّار وقال عمر رضي الله عنه: خالفوا النِّساء فإنَّ في خلافهن البركة وقد قيل: شاوروهن وخالفوهن وقد قال ﷺ: «**تعس عبد الزوجة**» وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها، وقد تعس فإن الله ملكه المرأة فملكها نفسه فقد عكس الأمر، وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال: ﴿ولآمرهن فليغيرن خلق الله﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٥] إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً.

وقد سمى الله الرجال قوامين على النِّساء وسمى الزوج سيداً فقال تعالى: ﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ [سورة النساء: الآية ١١٨] فإذا انقلب السيد مسخراً، فقد بدل نعمة الله كفراً ونفس المرأة على مثال نفسك إن أرسلت عنانها قليلاً جمحت بك طويلاً، وإن أرخيت عذارها فتراً جذبتك ذراعاً، وإن كبحتها وشددت يدك عليها في محل الشدة ملكتها. قال الشّافعي رضي الله عنه: ثلاثاً إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك المرأة والخادم والنبطي أراد به أن محضت الإكرام، ولم تمزج غلظك بلينك وفظاظتك برفقك.

الباب الخامس والتسعون

في حق الزوج على الزوجة

والقول الشافي فيه أنَّ النكاح نوع رق فهي رقيقة له، فعليها طاعة الزوج مطلقاً في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة قال ﷺ: «**أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة**» وكان رجل قد خرج إلى سفر، وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل، وكان أبوها في السفل فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ تستأذن في النزول إلى أبيها فقال ﷺ: «**أطيعي زوجك**.

فمات فاستأمرته فقال: **أطيعي زوجك فدفن أبوها فأرسل**» رسول الله ﷺ إليها يخبرها إن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها وقال ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها فأضاف طاعة الزوج إلى مباني الإسلام**».

وذكر رسول الله ﷺ النِّساء فقال حاملات والدات مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة وقال ﷺ: «**أطلعت في النَّار فإذا أكثر أهلها النِّساء**» فقلن: لم يا رسول الله؟ قال: «**يكثرن اللعن ويكفرن العشير يعني الزوج المعاشر**»، وفي خبر آخر أطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النِّساء فقلت: أين النِّساء؟ قال: شغلهن الأحمران الذهب والزعفران يعني الحلي ومصبغات الثياب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أتت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إني فتاة أخطب فأكره التزويج، فما حق الزوج على المرأة قال: «**لو كان من فوقه إلى قدمه صديد فلحسته ما أدت شكره**» قالت: أفلا أتزوج؟ قال: «**بلى تزوجي فإنه خير**».

وقال ابن عباس: أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج؟ قال: «**إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه، ومن حقه أن لا تعطي شيئاً من بيته إلاَّ بإذنه فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر لهُ، ومن حقه أن لا تصوم تطوعاً إلاَّ بإذنه فإن جاعت وعطشت لم يتقبل منها، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب**».

وقال ﷺ: «**لو أمرت أحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**» وقال ﷺ: «**أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت في قعن بيتها، وإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في صحن دارها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها والمخدع بيت في بيت وذلك للتستر**» ولذلك قال ﷺ: «**المرأة عور فإذا خرجت استشرفها الشَّيطان**». وقال أيضاً: « **للمرأة عشرة عورات، فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة فإذا ماتت ستر القبر العشر عورات، فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة وأهمها أمران إحداهما الصيانة والستر، والأخرى ترك المطالبة بما وراء الحاجة، والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً**»، وهكذا كانت عادة النِّساء في السلف كان الرجل إذا خرج من منزله تقول لهُ امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النَّار.

وهم رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره فقالوا لزوجته. لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقه؟ فقالت: زوجي منذ عرفته عرفته أكالاً أو ما عرفته رزاقاً، ولي رب رزاق يذهب الأكال ويبقى الرزاق، وخطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري، فكره ذلك لما كان فيه من البعادة، وقال لها والله ما لي همة في النِّساء لشغلي بحالي فقالت: إني لأشغل بحالي منك وما لي شهوة، ولكن ورثت مالاً جزيلاً من زوجي، فأردت أن تنفقه على إخوانك، وأعرف بك الصَّالحين فيكون لي طريقاً إلى الله عز وجل فقال: حتى أستأذن أستاذي فرجع إلى أبي سليمان الداراني قال: وكان ينهاني عن التزويج، ويقول: ما تزوج أحد من أصحابنا إلاَّ تغير، فلما سمع كلامها قال: تزوج بها فإنها ولية الله هذا كلام الصديقين قال فتزوجتها فكان في منزلنا كن من جص ففني من غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل فضلاً عمن غسل بالأسنان قال: وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات وتطيبني، وتقول: اذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك، وكانت رابعة هذه تشبه في أهل الشَّام برابعة العدوية بالبصيرة. ومن الواجبات عليها أن لا تفرط في ماله بل تحفظه عليه قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل لها أن تطعم من بيته إلاَّ بإذنه إلاَّ الرطب من الطعام الذي يخاف فساده، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن أطعمت بغير إذنه كان لَهُ الأجر وعليها الوزر»**.

ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة وآداب العشرة مع الزوج، كما روي أن اسماء بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها عند التزويج، إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لا تعرفينه، وقرين لن تألفينه فكوني لَهُ أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً لا تلحفي به فيقلاك ولا تباعدي عنه فينساك، وإذا دنا منك فاقربي منه وإن نأى فابعدي عنه واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمن منك إلاَّ طيباً ولا يسمع إلاَّ حسناً ولا ينظر إلاَّ جميلاً وقال رجل لزوجته:

خذي العفو مني تستديمي مودتي	ولا تنطقي في سورتي حين اغضب
ولا تنقريني نقرك الدف مرة	فإنك لا تدريني كيف أغيب
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى	ويأباك قلبي والقلوب تقلب
فأني رأيت الحب في القلب والأذى	إذا اجتمعنا لم يلبث الحب يذهب

الباب السادس والتسعون

في فضلِ الجهاد

قال تعالى: ﴿إنَّما المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٥] وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلاَّ أن أسقي الحاج.

وقال آخر: لا أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلاَّ أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر: الجهاد أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [سورة التوبة: الآية ١٩] وعن عبد اللّه بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أفضل وأحب إلى الله عز وجل عملناه. فأنزل الله تعالى: ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ [سورة الصف: الآيات ١، ٤] إلى آخر فقرأ علينا رسول الله ﷺ.

وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد. قال: **«لا أجده»**. ثمَّ قال: **«هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر»**؟ فقال: ومن يستطيع ذلك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فقال: لو اعتزلت النَّاس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً»** ألا تحبون أنْ يغفر، الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا

في سبيل الله تعالى من قاتل في سبيل الله تعالى فوق ناقة وجبت له الجنة، فإذا كان الصحابي الجليل لم يأذن لَهُ بالعزلة مع اجتهاده في الطَّاعات، وتعاطيه من الطيبات بل أرشده ﷺ إلى الجهاد فكيف يليق بنا تركه مع قلة طاعتنا وكثرة سيئاتنا، وتعاطينا ما جهل حله من الأقوات وفساد العزائم والنيات.

وقال رسول الله ﷺ: «**إنْ مثل المجاهد في سبيل الله والله اعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصَّائم القائم الخاضع الراكع الساجد**» وقال رسول الله ﷺ: «**من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت لَهُ الجنة**»، فعجب لها أبو سعيد الخدري فقال: أعدها علي يا رسول الله فأعادها عليه، ثمَّ قال: «**وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة ما بين كل درجة كما بين السماء والأرض**» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**».

الباب السابع والتسعون

في مكرِ الشَّيطان

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أينام الشيطان؟ فتبسم وقال: لو نام لاسترحنا فإذا لا خلاص للمؤمن منه؟ نعم لَهُ سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته. قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره**». وقال ابن مسعود: شيطان المؤمن مهزول. وقال قيس بن الحجاج: قال لي شيطاني: دخلت فيك وأنا مثل الجزور، وأنا الآن مثل العصفور قلت: ولم ذاك؟ قال: تذيبني بذكر الله تعالى فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة، أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة، وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها، لأن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد، وقد التبس ذلك الباب بهذه الأبواب الكثيرة، فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة، فلا يكاد يعلم الطريق إلاَّ بعين بصيرة، وطلوع شمس مشرقة والعين البصيرة ههٰنا هي القلب المصفى بالتقوى، والشَّمس المشرقة هي العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ فيما يهتدي به إلى غوامض طرقه وإلاَّ فطرقه كثيرة وغامضة.

قال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً وقال: «**هذا سبيل الله، ثمَّ خط خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله، ثمَّ قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثمَّ تلا: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] وقد ذكرنا مثالاً للطريق الغامض من طرقه، وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة، فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الذي لا يخفى أن يضطر الآدمي إلى سلوكه.

وذلك كما روي عن النبي ﷺ أنه كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشَّيطان إلى جارية فخنقها، وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها، فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشَّيطان فزين لَهُ مقاربتها، ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه فوسوس إليه، وقال: الآن تفتضح يأتيك أهلها فأقتلها فإن سألوك فقل ماتت، فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم، وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثمَّ قتلها ودفنها فأتاه أهلها فسألوه عنها. فقال: ماتت فأخذوه ليقتلوه بها، فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي خنقتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج وأخلصك منهم قال: بماذا؟ قال: اسجد لي سجدتين فسجد لَهُ سجدتين فقال لَهُ الشيطان: إني بريء منك فهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك﴾ [سورة الحشر: الآية ١٦].

وروي أن إبليس سأل الإمام الشافعي رضي الله عنه، ما قولك فيمن خلقني كما أختار واستعملني فيما أختار، وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النَّار أعدل في ذلك أم جار؟ فنظر في كلامه ثمَّ قال: يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون فاضمحل إلى أن صار لا شيء، ثمَّ قال: والله يا شافعي لقد أخرجت بمسألتي هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية إلى ديوان الزندقة.

وروي أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم عليهما السَّلام فقال له: قل لا إله إلا الله. فقال: كلمة حق ولا أقولها بقولك: أي لأن لَهُ تلبيسات في الخير كما أن له تلبيسات في الشر تتناهى، وبها يهلك العباد والزهاد والأغنياء وأصناف الخلق إلاَّ من حفظه الله اللهم احفظنا من مكايده حتى نلقاك مهتدين.

الباب الثامن والتسعون

في بيان السَّماع

حكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظاً يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه، وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء: إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته، وقال القاضي أبو الطيب: استماعه من المرأة التي ليست بمحرم لَهُ لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال، سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب، وسواء كانت حرة أو مملوكة، وقد قال الشافعي رضي الله عنه: صاحب الجارية إذا جمع النَّاس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته.

وقال: حكي عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول: وضعته الزنادقة ليتشغلوا به عن القرآن، وقال الشافعي رحمه الله: ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي، ولا أحب اللعب بالشطرنج وأكره كل ما يلعب به النَّاس، لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة.

وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء، إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان لَهُ ردها وهو مذهب سائر أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد وحده وأما أبو حنيفة رضي الله عنه، فإنه كان يكره ذلك، ويجعل سماع الغناء من الذنوب وكذلك سائر أهل الكوفة سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم، فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري، ونقل أبو طالب المالكي إباحة السماع عن جماعة فقال: سمع من الصحابة عبد اللّه بن جعفر وعبد اللّه بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم.

وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان قال: ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السَّماع أفضل أيام السنة، وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوارٍ يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية، قال: وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما.

قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون؟ فقال: وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني؟ فقد كان عبد اللّٰه بن جعفر الطيار يسمع وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع.

وروي عن يَحيْـى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلاَّ قلة حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء، ورأيت في بعض الكتب هذا محكياً بعينه عن الحارث المحاسبي، وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاوبه وجده في الدين وتشميره قال: وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلاَّ أن يكون فيها سماع، وحكى غير واحد أنه قال: اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر بن داود وابن مجاهد في نظرائهم فحضر سماع، فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع.

فقال ابن داود: حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع، وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي. فقال أبو القاسم ابن بنت منيع: أما جدي أحمد ابن بنت منيع، فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة فقال مجاهد لابن داود: عني أنت من أبيك، وقال لابن بنت منيع: دعني أنت من جدك. أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام؟ فقال ابن داود: لا. قال: فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده قال: لا. فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود مدّ منْهُ المقصور أيحرم عليه؟ قال: أنا لم أقوى لشيطان واحد فكيف أقوى لشيطانين؟ قال: وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع، وصنف فيه كتاباً ورد فيه على منكريه، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكريه.

وحكي عن بعض الشيوخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السَّلام فقلت لَهُ: ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلاَّ أقدام العلماء.

وحكي عن ممشاد الدينوري أنه قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت يا رسول الله: هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: «**ما أنكر منه شيئاً**». وقال: «**ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن**».

وحُكي عن طاهر بن بلال الهَمَذاني الورَّاق، وكان من أهل العلم أنه قال: كنت

معتكفاً في جامع جدة على البحر فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانب منه قولاً ويستمعون: فأنكرت ذلك بقلبي وقلت: في بيت من بيوت الله يقولون الشعر قال: فرأيت النبي ﷺ تلك الليلة وهو جالس في تلك النَّاحية، وإلى جانبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإذا أبو بكر يقول: شيئاً من القول، والنبي ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك، فقلت في نفسي: ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون، وهذا رسول الله ﷺ يستمع وأبو بكر يقول فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال: «**هذا حق بحق**» أو قال: «**حق من حق أنا أشك فيه**» وقال الجنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع، عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلاَّ عن فاقه، وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلاَّ في مقامات الصديقين وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً.

وعن ابن جريح أنه كان يرخص في السماع فقيل له: أيؤتى به يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات لأنه شبه باللغو وقال الله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٥] هذا ما نقل من الأقاويل، ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى تعارت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيراً أو مائلاً إلى بعض الأقاويل بالتشهي، وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقة ذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة.

الباب التاسع والتسعون

في النَّهي عن البدعة واتباع الهوى

قال ﷺ: «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النَّار**» وقال ﷺ: «**من أحدث في أمر ديننا هذا ما ليس منه فهو رد**» وقال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي**» فعلم من هذه الأحاديث أن كل ما خالف الكتاب، والسنة وإجماع الأئمة فهو بدعة مردودة وقال ﷺ: «**من سن سنة حسنة كان لَهُ أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل به إلى يوم القيامة**».

وقال قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] الآية اعلموا أن السبيل سبيل واحد جماعة الهدى، ومصيره الجنة، وأنَّ

إبليس استبدع سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها إلى النار، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثمَّ قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**» ثمَّ خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثمَّ قال: «**هذه سبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ هذه الآية.

وعن ابن عباس هذه السبل الضلالات وقال ابن عطية: هذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل، وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام، وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد وقال ﷺ: «**من رغب عن سنتي فليس مني**».

وقال ﷺ: «**ما من أمة ابتدعت بعد نبيها في دينها بدعة إلاَّ أضاعت مثلها من السنة**» وقال ﷺ: «**ما تحت ظل السماء من إله يعبد أعظم عند الله من هوى يتبع**» وقال ﷺ: «**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى إياكم والمحدثات فإن كل محدثة ضلالة**» وقال ﷺ: «**إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته**».

وقال ﷺ: «**لا يقبل الله لصاحب بدعة صوماً ولا حجاً ولا عمرة ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلاً يخرج ومن الإسلام، كما تخرج الشعرة من العجين، لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك، لكل عمرة شرة ولكل شرة فترة، فمن كانت شرته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت شرته إلى غير ذلك فقد هلك أني أخاف على أمتي من ثلاث، من زلة عالم وهوى متبع وحكم جائر**». رواه الترمذي وحسنه في مواضع، وصححه في أخرى والشرة بكسر الشين وفتح الراء (مشددة النشاط والهمة).

فصل في النهي عن آلة اللهو

روى البخاري أنه ﷺ قال: «**من قال لصاحبه تعالى أقامرك فليتصدق**». وروى مسلم وأبو داود وابن ماجة من لعب بنرد أو نردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه.

وروى أحمد وغيره أنه ﷺ قال: «**مثل الذي يلعب بالنرد، ثمَّ يقوم ليصلي مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير، ثمَّ يقوم فيصلي (أي فلا تقبل لَهُ صلاة)**» كما صرحت به رواية

أخرى، وأخرج البيهقي عن يحيى بن كثير قال: مر رسول الله ﷺ على قوم يلعبون النرد فقال: «قلوب لاهية وأيد عاملة وألسنة لاغية».

وأخرج الدّيلمي أنه ﷺ قال: **«إذا مررتم بهؤلاء الذين يلعبون بهذه الأزلام والشطرنج والنرد، وما كان من هذه أي ما شبه ذلك من كل لهو محرم، فلا تسلموا عليهم وإن سلموا عليكم فلا تردوا عليهم»**.

وقال ﷺ: **«ثلاث من الميسر القمار والضرب بالكعاب والصفير بالحمام»** ومر علي رضي الله عنه بقوم يلعبون الشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفأ خير لَهُ من أن يمسها، ثمَّ قال: والله لغير هذا خلقتم، وقال أيضاً رضي الله عنه: صاحب الشطرنج أكثر النَّاس كذباً يقول أحدهم: قتلت وما قتل ومات وما مات.

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لا يلعب بالشطرنج إلاَّ خاطىء واعلم أنت الملاهي، إما حرام كعود وطنبور ومعزفة وطبل ومزمار، وما ألهى بصوت مطرب إذا انفرد أو مكروه، وهو ما يزيد به الغناء طرباً ولم يطرب منفرداً كالصنج والقصب فيكره مع الغناء لا وحده أو مباح، وهو ما خرج عن آلة الطرب إلى إنذار كالبوق وطبل الحرب أو المجمعة وإعلان كالدف في النكاح.

الباب المتمم للمائة

في فضائل رجب

رجب مشتق من الترجيب وهو التعظيم ويقال له الأصب لأن الرحمة تصب فيه على التائبين، وتفيض أنوار القبول على العاملين ولا يقال الاصم لأنه لم يسمع فيه حس قتال، وقيل رجب: اسم نهر في الجنة ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل وأبرد من الثلج لا يشرب منه إلا من صام شهر رجب قال عليه السَّلام: رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان شهر أمتي وقال أهل الإشارة: رجب ثلاثة أحرف راء وجيم وباء فالراء رحمة الله، والجيم جرم العبد وجنايته، والباء بر الله تعالى كأن الله تعالى يقول: اجعل جرم عبدي بين رحمتي وبري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **«من صام السَّابع والعشرين من رجب**

كتب له صيام ستين شهراً، وهو أول يوم نزل فيه جبريل على النبي ﷺ بالرسالة وفيه أسري به ﷺ وقال ﷺ: **«إلا أن رجباً شهر الله الأصم، فمن صام من رجب يوماً إيماناً واحتساباً استوجب رضوان الله الأكبر»** قيل: زين الله الشهور بأربعة ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب فذلك قوله تعالى: ﴿منها أربعة حرم﴾[سورة التوبة: الآية ٣٦] فالأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد وهو شهر رجب. وحكي أن امرأة في بيت المقدس كانت تقرأ كل يوم من رجب، قل هو الله أحد اثنتي عشرة ألف مرة، وكانت تلبس الصوف في شهر رجب فمرضت، وأوصت ابنها أن يدفن معها صوفها، فلما ماتت كفنها في ثياب مرتفعة فرآها في منامه تقول له: أنا عنك غير راضية لأنك لم تعمل بوصيتي، فانتبه فزع وأخذ صوفها ليدفنه معها، فنبش قبرها فلم يجدها فيه فتحير فسمع نداء: أما علمت أن من أطاعنا في رجب لا نتركه فرداً وحيداً، وروي إذا كان ثلث الليل من أول جمعة من رجب لا يبقى ملك إلاّ ويستغفر لصوام رجب.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من صام ثلاثة أيام من شهر حرام كتب له ثواب عبادة تسعمائة سنة»**.

قال أنس رضي الله عنه: صمت أذناي إن لم أكن سمعته من رسول الله ﷺ لطيفة الأشهر الحرام أربعة، وخيار الملائكة أربعة، وأفضل الكتب المنزلة أربعة وأعضاء الوضوء أربعة، وأفضل التسبيح أربعة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وعماد الحساب أربعة آحاد وعشرات ومئات وألوف، والأوقات أربعة الساعة واليوم والشهر والسنة، وفصول السنة أربعة ربيع وصيف وخريف وشتاء والطبائع أربعة حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، وسلطان البدن أربعة صفراء وسوداء ودم وبلغم، والخلفاء الراشدون أربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين.

روى الدَّيلمي عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يسح الله الخير في أربع ليال ، سحا ليلة الأضحى، وليلة الفطر، وليلة النصف من شعبان، وأول ليلة من رجب»**.

وروى الدَّيلمي أيضاً بسنده عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: **«خمس ليال لا ترد فيها دعوة، أول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة الجمعة وليلتا العيدين»**.

الباب الحادي بعد المائة

في فضل شعبان المبارك

سمي شعبان لأنه يتشعب منه خير كثير مشتق من الشعب بكسر الشين، وهو طريق الجبل فهو طريق الخير، وروي عن أبي إمامة الباهلي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**إذا دخل شعبان فطهروا أنفسكم وأحسنوا نيتكم فيه**»، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم وكان أكثر صيامه في شعبان.

وفي النسائي من حديث أسامة رضي الله عنه قلت: يا رسول الله لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان قال: «**ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال لرب العالمين فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم**»، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ يسلم استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً من شعبان.

وفي رواية كان يصوم شعبان كله ولمسلم كان يصوم شعبان إلا قليلاً فهذه الرواية مفسرة للأولى فالمراد كله أغلبه قيل: إن للملائكة في السماء ليلتي عيد، كما أن للمسلمين في الأرض يومي عيد، فعيد الملائكة ليلة البراءة، وهي ليلة النصف من شعبان وليلة القدر، وعيد المؤمنين يوم الفطر ويوم الأضحى، فلهذا سميت ليلة نصف شعبان ليلة عيد الملائكة، وذكر السبكي في تفسيره أنها تكفر ذنوب السنة، وليلة الجمعة تكفر ذنوب الأسبوع، وليلة القدر تكفر ذنوب العمر، أي إحياء هذه الليالي سبب لتكفير الذنوب، وتسمى ليلة التكفير أيضاً لذلك، وليلة الحياة لما روى المنذري مرفوعاً من أحيا ليلة العيد وليلة نصف شعبان لم يمت قلبه يوم تموت القلوب وتسمى ليلة الشفاعة.

لما روي أنه ﷺ سأل الله تعالى ليلة الثالث عشر الشفاعة في أمته فأعطاه الثلث، وسأله ليلة الرابع عشر فأعطاه الثلثين، وسأله ليلة الخامس عشر فأعطاه الجميع، إلا من شرد على الله شراد البعير، يعني من فر من الله وتباعد عنه بالإصرار على المعصية وتسمى ليلة المغفرة أيضاً.

كما روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان إلى عباده، فيغفر لأهل الأرض إلا رجلين مشرك أو مشاحن، وتسمى ليلة العتق**» لما روى ابن إسحاق عن أنس بن مالك قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى منزل عائشة رضي الله عنها في حاجة فقلت لها: أسرعي فإني تركت النبي ﷺ يحدثهم عن ليلة النصف من شعبان. فقالت: يا أنس اجلس حتى أحدثك بحديث ليلة النصف من شعبان، تلك الليلة كانت ليلتي من رسول الله ﷺ، فجاء ودخل معي في لحافي فانتبهت من الليل فلم أجده فقلت: لعله ذهب إلى جاريته القبطية، فخرجت فمررت في المسجد فوقعت رجلي عليه، وهو يقول: «**سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي، وهذه يدي وما جنيت بها على نفسي، يا عظيماً يرجى لكل عظيم أغفر الذنب العظيم، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره**» ثم رفع رأسه فقال: «**اللّهم ارزقني قلباً تقياً نقياً كما من الشرك برياً لا كافراً ولا شقياً**» ثم عاد ساجداً فسمعته يقول: «**أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك، وبك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت أثنيت على نفسك أقول كما قال أخي داود: أعفر وجهي في التراب لسيدي، وحق لوجه سيدي أن يغفر**»، ثم رفع رأسه فقلت: بأبي أنت وأمي أنت في واد وأنا في واد فقال يا حميراء: أما تعلمين أن هذه الليلة ليلة النصف من شعبان، أن لله عز وجل في هذه الليلة عتقاء من النار بعدد شعر غنم بني كلب، إلا ستة نفر لا مدمن خمر ولا عاق لوالديه ولا مصر على زنا ولا مساوم ولا مضرب ولا قتات.

وفي رواية مصور بدل مضرب، وتسمى ليلة القسمة والتقدير لما روى عطاء بن يسار، إذا كانت ليلة النصف من شعبان نسخ لملك الموت كل من يموت من شعبان إلى شعبان، وإن العبد ليغرس الغرس وينكح الأزواج ويبني البنيان، وأن اسمه قد نسخ في الموتى وما ينتظر به ملك الموت إلا أن يؤمر به فيقبضه.

الباب الثاني بعد المائة

في فضل رمضان المعظم

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[سورة البقرة: الآية ١٨٣] عن سعيد بن جبير رضي الله عنه كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة، كما كان في ابتداء الإسلام قال جماعة من أهل العلم: كان واجباً على النَّصارى فربما كان يقع في الحر الشديد والبرد الشديد، وكان يشق عليهم في أسفارهم وبعض معايشهم، فاجتمع رأي كبرائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل السنة بين الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا.

ثم إن ملكاً لهم اشتكى فجعل الله عليه أن برىء من وجعه، أن يزيد في صومهم أسبوعاً فبرىء فزاد فيه أسبوعاً، فلما مات ذلك وتولهم ملك آخر فقال: أتموه خمسين يوماً، ثم أصابهم موتان وهو موت البهائم فقال: زيدوا صيامكم فزادوا عشراً قبل وعشر بعد. وقيل: ما من أمة إلا وفرض عليهم صيام رمضان إلا أنهم ضلوا عنه قال البغوي والصحيح: أن رمضان اسم للشهر من الرمضاء، وهي الحجارة المحماة لأنهم كانوا يصومون في الحر الشديد، لأن العرب لما أرادت أن تضع أسماء الشهور وافق أن الشهر المذكور كان في شدة الحر، وقيل: سمي بذلك لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها، وفرض في السنة الثانية من الهجرة، وهو معلوم من الدين بالضرورة يكفر جاحد وجوبه وورد في فضله أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: **«إذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب الجنان كلها، فلم يغلق منها باب في الشهر كله، وأمر الله تعالى منادياً ينادي يا طالب الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر»، ثم يقول: «هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤاله؟ هل من تائب فيتاب عليه؟ فلم يزل كذلك إلى انفجار الصبح، ولله كل ليلة عند الفطر ألف ألف عتيق من النار قد استوجبوا العذاب»**.

وعن سليمان الفارسي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: **«أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم فيه ليلة القدر خير من ألف شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر والصبر**

ثوابه الجنة وهو شهر المواساة، وهو شهر يزاد في رزق المؤمن، من فطر فيه صائماً كان له عتق رقبة ومغفرة لذنوبه» قلنا يا رسول الله: ليس كلنا يجد ما يفطر به الصَّائم قال: **«يعطي الله هذا الثواب من يفطر صائماً على مذقة لبن وشربة ماء أو تمرة، ومن أشبع صائماً كان لَهُ مغفرة لذنوبه، وسقاه ربه من حوضي شربة لا يظمأ بعدها أبداً، وكان لَهُ مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، وهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النَّار، ومن خفف عن مملوكه فيه أعتقه الله من النَّار، فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غنى لكم عنهما»**:

أما الخصلتان اللتان لا غنى لكم عنهما تسألون ربكم الجنة وتتعوذون به من النَّار، ومنها قوله ﷺ: **«من صام رمضان إيماناً احتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»**، وقوله ﷺ: **«كل عمل ابن آدم لَهُ إلاَّ الصَّوم فإنه لي وأنا أجزي به، وناهيك بعبادة أضافها الباري تبارك وتعالى لنفسه»**، ومنها قوله ﷺ: **«أعطيت أمتي خمس خصال في شهر رمضان لم تعطهن أمة قبلها خلوف، فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا، وتصفد فيه مردة الشياطين»**. ويزين الله تعالى كل يوم الجنة، ويقول: يوشك عبادي الصالحون أنْ يكف عنهم السوء والأذى ويغفر لهم في آخر ليلة منه. قيل يا رسول الله: أهي ليلة القدر؟ قال: لا. ولكن العامل يوفى أجره إذا أقضى عمله».

الباب الثالث بعد المائة

في فضل ليلة القدر

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى ذلك لأمته. فقال: **«يا ربّ جعلت أمُتي أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالاً»** فأعطاه الله تعالى ليلة القدر خير من ألف شهر، مدة حمل الإسرائيلي السلاح في سبيل الله لَهُ ولأمته إلى يوم القيامة، فهي من خصائص هذه الأمة. ويقال: اسم ذلك الرجل شمعون غزا العدو ألف شهر لم يجف لبد فرسه، وقهر الكفار لما أعطى من القوة والجسارة، فضاقت قلوبهم منه فبعثوا رسولاً إلى امرأته وضمنوا لها طشتا من ذهب مملوءاً ذهباً،

إن هي قيدته حتى يحبسوه في بيت لهم ويستريحوا منه.

فلما نام بالليل أوثقته بحبل من ليف لما انتبه حرك أعضائه فقطع الحبل قطعاً وسألها. لم صنعت ذلك؟ فقالت: أجرب قوتك.

فلما أخبرت الكفار بعثوا لها سلسلة ففعلت مثل ما فعلت فقطعها: فجاء إبليس إلى الكفار، وأرشدهم أن تسأل المرأة زوجها أي شيء لا تقوى فكه وقطعه فأرسلوا إليها فقال: ذوائبي. وكان لَهُ ثمانية ذوائب طويلة تجر على الأرض.

فلما نام قيدت رجليه بأربعة ويديه بأربعة فجاء الكفار، وأخذوه وذهبوا به إلى بيت مذبحهم مقدار أربعمائة ذراع علوه، ومع اتساعه لَهُ عمود واحداً، فقطعوا أذنيه وشفتيه وكانوا كلهم مجتمعين لديه، فسأل الله تعالى أن يقويه على فك وثاقه وعلى أن يحرك العمود، ويهدمه عليهم مع نجاته منهم، فقواه الله فتحرك فانفك وثاقه وحرك العمود فوقع عليهم السقف فأهلكهم الله جميعاً ونجا منهم.

فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الخبر قالوا: يا رسول الله هل ندرك نحن ثوابه؟ فقال: «لا أدري». ثم سأل ربه فأعطاه كما تقدم ليلة القدر، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل عليه السَّلام في كوكبه من الملائكة يصلون ويسلمون على كل قائم أو قاعد يذكر الله تعالى»**.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: الملائكة تنزل ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى، فتفتح أبواب السَّماء للتنزل كما ورد فتسطع الأنوار، ويحصل تجل عظيم وينكشف فيها الملكوت، والنَّاس في ذلك متفاوتون، فمنهم من يكشف لَهُ عن ملكوت السَّموات والأرض، فتكشف لَهُ الحجب عن السَّموات فيشاهد فيها الملائكة على صورها، ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد وذاكر وشاكر ومسبح مهلل ومنهم من يكشف لَهُ عن الجنة بما فيها من دروها وقصورها وحورها وأنهارها وأشجارها وأثمارها، ويشاهد عرش الرحمٰن وهو فوقها، ويشاهد منازل الأنبياء والأولياء والشهداء والصديقين ويهيم في هذا الملكوت، ويتنزه في ذلك الرحموت ويشاهد جهنم، ويشاهد دركاتها ومنازل الكفار إلى غير ذلك.

ومنهم من تنكشف حجبه عن جمال الله فلا يشهد إلا إياه، وعن عمر عنه عليه الصَّلاة والسَّلام، من أحيا ليلة سبع وعشرين من رمضان إلى الصَّبح فهو أحب إلي من قيام

ليالي شهر رمضان كلها فقالت فاطمة: يا أبت ما تصنع الضعفاء من الرجال والنِّساء ممن لا يقدرون على القيام. قال: لا يضعون الوسائد فيتكئون عليها، ويقعدون ساعة من ساعات تلك الليلة، ويدعون الله عز وجل إلا كان ذلك أحب إلي من قيام أمتي جميعاً شهر رمضان.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من أحيا ليلة القدر وصلى فيها ركعتين واستغفر، غفر الله لَهُ وخاض في حرمة الله، ومسحه جبريل بجناحه، ومن مسحه جبريل بجناحه دخل الجنة»**.

الباب الرابع بعد المائة

في فضل العيد

سمي هذا اليوم الذي هو أول شوال، واليوم الذي هو العاشر من ذي الحجة عيداً لأن المؤمنين عادوا فيهما من طاعة الله تعالى التي هي أداء فريضتي صيام رمضان، والحج إلى طاعة رسوله ﷺ التي هي صيام ست من شوال، والتأهب لزيارته ﷺ ولتكرار ذلك كل عام، ولكثرة عوائد الله تعالى فيه بالإحسان، ولعود السرور ويعوده، وأول عيد صلاة رسول الله ﷺ عيد الفطر في السَّنة الثَّانية من الهجرة ولم يتركها فهي سنة مؤكدة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه زينوا أعيادكم بالتكبير وقال ﷺ: **«من قال سبحان الله وبحمده يوم العيد ثلثمائة مرة، وأهداها لأموات المسلمين دخل في كل قبر ألف نور، ويجعل الله تعالى في قبره إذا مات ألف نور»**، وعن وهب بن منبه رضي الله عنه، أن إبليس يرن في كل عيد فتجتمع إليه الأبالسة فيقولون: يا سيدنا مم غضبك؟ فيقول: الله تعالى قد غفر لأمة محمد ﷺ في هذا اليوم فعليكم أن تشغلوهم باللذات والشَّهوات.

وعن وهب أيضاً أن الله تعالى خلق الجنة يوم عيد الفطر، وغرس شجرة طوبى قوم عيد الفطر، واصطفى جبريل للوحي يوم عيد الفطر، وتاب على سحرة فرعون يوم عيد الفطر. وقال النبي ﷺ: **«من قام ليلة العيد محتسباً لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»**.

حكي أن عمراً رأى ولداً لَهُ يوم عيد وعليه قميص خلق فبكى، فقال: إنما ينكسر قلب من عدمه الله رضاه أو عُق أمه وأباه، وإني لأرجو أن يكون الله راضياً عني برضاك

وضمه إليه، ودعا له رضي الله عنهما وما أحسن قول القائل:

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه ... قلت خلعه ساق عبده الجرعا
فقر وصبر ثوبان بينهما ... قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
العيد لي مأتماً إن غبت يا أملي والـ ... ـعيدان كنت لي مرأى ومستمعا

وروي إذا كان غداة عيد الفطر، بعث الله الملائكة فيهبطون إلى الأرض ويقومون على أفواه السكك، فينادون بصوت يسمعه جميع خلق الله إلا الجن يقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يعطي العطاء الجزيل، ويغفر الذنب العظيم فإذا برزوا إلى مصلاهم قال الله للملائكة: ما جزاء الأجير إذا عمل؟ فيقولون: جزاؤه أن يوفى أجره فيقول الله سبحانه وتعالى: أشهدكم إني قد جعلت ثوابهم رضائي ومغفرتي.

الباب الخامس بعد المائة

في فضل عشر ذي الحجة

وروى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «**ما من أيام فيها أحب إلى الله من هذه الأيام يعني أيام العشر**». قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله تعالى؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله إلاّ رجل خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء**»؛ وعن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أيام أحب إلى الله وأفضل من أيام العشر**». قيل: ولا مثلهن في سبيل الله، قال: «**ولا مثلهن في سبيل الله إلاّ رجل عقر جواده وعقر وجهه في سبيل الله**».

وعن عائشة رضي الله عنها أن شاباً كان صاحب سماع، وكان إذا هل هلال ذي الحجة أصبح صائماً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه فقال: «**ما يحملك على صيام هذه الأيام**»؟ قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إنها أيام المشاعر، وأيام الحج عسى الله أن يشركني في دعائهم، قال: «**فإن لك بكل يوم تصومه عدل مائة رقبة ومائة بدنة ومائة فرس يحمل عليها في سبيل الله**».

فإذا كان يوم التروية فلك فيها عدل ألف بدنة، وألف فرس يحمل عليها في سبيل الله، فإذا كان يوم عرفة فلك فيها عدل ألفي رقبة وألفي بدنة، وألفي فرس تحمل عليها في

سبيل الله تعالى، وقال ﷺ: «**يعدل صوم يوم عرفة بسنتين، ويعدل صوم عاشوراء بصوم سنة**».

وقال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤١] الآية أنها العشر الأول من ذي الحجة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن الله اختار من الأيام أربعة، ومن الشهور أربعة، ومن النساء أربعة، وأربعة يسبقون إلى الجنة وأربعة اشتاقت إليهم الجنة، وأما الأيام فأولها يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى شيئاً من أمر الدُّنيا والآخرة إلاَّ أعطاه الله إياه.

وثانيها يوم عرفة فإذا كان يوم عرفة يباهي الله تعالى ملائكته فيقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبادي جاؤوا شعثا غبرا قد انفقوا الأموال، واتعبوا الأبدان اشهدوا إني غفرت لهم.

وثالثها: يوم النَّحر فإذا كان يوم النَّحر، وقرب العبد قربانه فأول قطرة قطرت من القربان تكون كفارة لكل ذنب عمله العبد.

ورابعها يوم الفطر فإذا صاموا شهر رمضان، وخرجوا إلى عيدهم يقول الله: تبارك وتعالى لملائكته، إن كل عامل يطلب أجره أشهدكم أني قد غفرت لهم وينادي المنادي يا أمة محمد ارجعوا فقد بدلت سيئاتهم حسنات.

وأما الشَّهور فرجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وأما النساء فمريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد سابقة نساء العالمين إلى الأيمان بالله ورسوله وآسية بنت مزحم امراة فرعون، وفاطمة بنت محمد سيدة نساء الجنة.

وأما السابقون فلكل قوم سابق فسيدنا محمد ﷺ سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وصهيب سابق الروم وبلال سابق الحبشة.

وأما الأربعة الذين اشتاقت لهم الجنة فعلي بن أبي طالب وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود، وعنه ﷺ: «**من صام يوم التروية أعطاه الله ثواب صبر أيوب عليه السَّلام على بلائه، ومن صام يوم عرفة أعطاه الله ثواباً مثل ثواب عيسى عليه السَّلام**».

وعن النبي ﷺ: «**إذا كان يوم عرفة نشر الله رحمته، فليس من يوم أكثر عتقاً منه ومن سأل الله يوم عرفة حاجة من حوائج الدُّنيا والآخرة قضاها لَهُ، وصوم عرفة يكفر سنة ماضية**

وسنة مستقبلة» والحكمة في ذلك والله أعلم أنه بين عيدين، وهما يوما سرور المؤمنين، ولا سرور أعظم من غفران ذنوبهم، ويوم عاشوراء بعد العيدين فهو كفارة سنة واحدة، ولأنه لموسى عليه السَّلام يوم عرفة لنبينا ﷺ وكرامته تتضاعف على غيره ﷺ.

الباب السادس بعد المائة

في فضل عاشوراء

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن ذلك فقالوا: إن هذا اليوم أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على قوم فرعون، فنحن نصومه تعظيماً لَهُ فقال النبي ﷺ: **«نحن أولى بموسى منكم فأمر بصومه»**.

وقد ورد في فضل يوم عاشوراء آثار كثيرة منها أنه تيب على آدم فيه، وكان خلقه فيه وفيه أدخل الجنة، وفيه خلق العرش والكرسي والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، وولد إبراهيم الخليل فيه وكانت نجاته من النار فيه وكذلك نجاة موسى ومن معه، وأغرق فرعون ومن معه فيه، وفيه ولد عيسى وفيه رفع إلى السَّماء، وفيه رفع إدريس مكاناً علياً، وفيه استوت سفينة نوح على الجودي، وأعطى فيه سليمان الملك العظيم، وأخرج يونس من بطن الحوت، ورد بصر يعقوب عليه، وأخرج يوسف من الجب، وكشف ضر أيوب، وأول مطر نزل من السَّماء إلى الأرض في يوم عاشوراء، وكان صومه معروفاً بين الأمم حتى قيل: بأنه فرض قبل رمضان ثمَّ نسخ به وصامه ﷺ قبل الهجرة.

ولما دخل المدينة أكد. حتى قال ﷺ: في آخر عمره الشريف: **«إن عشت إلى قابل لأصومن التاسع والعاشر»** فانتقل إلى الرفيق الأعلى من عامه، ولم يصم غير العاشر لكنه رغب فيه، وفي صوم التاسع والحادي عشر بقوله ﷺ: **«صوموا يوماً وبعده يوماً وخالفوا سنة اليهود»**. أي حيث أفردوه بالصَّوم.

وروى البيهقي في شعب الإيمان من وسع على عياله وأهله في يوم عاشوراء وسع الله عليه في سائر سنته، وفي رواية منكرة للطبراني الصَّدقة فيه بدرهم بسبعمائة ألف درهم، وأما حديث من اكتحل يومه لم يرمد ذلك العام، ومن اغتسل فيه لم يمرض فموضوع، وقد صرح الحاكم بأن الاكتحال يومه بدعة، وقال ابن القيم: حديث الاكتحال

وطبخ الحبوب والأدهان والتطيب يوم عاشوراء من وضع الكذابين.

واعلم أن ما أصيب به الحسين رضي الله عنه يوم عاشوراء، إنما هو الشهادة الدالة على مزيد رفعته ودرجته عند الله، والحاقه بدرجات أهل بيته الطَّاهرين، فمن ذكر ذلك اليوم مصابه فلا ينبغي أن يشتغل إلاَّ بالاسترجاع امتثالاً للأمر، وإحراز لِمَا رَكبّه تعالى عليه بقوله: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك المهتدون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٧] وإياه ثمَّ إياه أن يشتغل ببدع الرافضة، ونحوهم من الندب والنواحة والحزن، إذ ليس ذلك من أخلاق المؤمنين، وإلاَّ لكان يوم وفاة جده ﷺ أولى بذلك وأحرى وحسبنا الله تعالى وحده ونعم الوكيل.

الباب السابع بعد المائة

في فضلِ ضيافة الفقراء

قال ﷺ: **«لا تكلفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله»** وقال ﷺ: **«لا خير فيمن لا يضيف»**، ومر رسول الله ﷺ برجل لَهُ إبل وبقر كثيرة فلم يضيفه، ومر بامرأة لها شويهات، فذبحت لَهُ فقال ﷺ: **«انظروا إليهما إنما هذه الأخلاق بيد الله، فمن شاء أن يمنحه خلقاً حسناً فعل»**.

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: أنه نزل به ﷺ ضيف فقال: **«قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف، فأسلفني شيئاً من الدقيق إلى رجب»**. فقال اليهودي: والله ما أسلفه إلاَّ برهن، فأخبرته فقال: **«والله إني لأمين في السَّماء أمين في الأرض، ولو أسلفني لأديته فاذهب بدرعي وأرهنه عنده»**.

وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه، إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغذى معه، وكان يكنى أبا الضيفان ولصدق نيته دامت ضيافته في مشهده إلى يومنا هذا، فلا تنقضي ليلة إلاَّ ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة، وقال قوام الموضع: إنه لم يخل عنه ضيف، وسئل رسول الله ﷺ ما الإيمان؟ فقال: **«إطعام الطعام وبذل السلام»**. وقال ﷺ: **«في الكفارات والدرجات إطعام الطعام، والصَّلاة بالليل والنَّاس نيام»**. وسئل عن الحج المبرور فقال: **«إطعام الطعام وطيب الكلام»**.

وقال أنس رضي الله عنه: كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة والأخبار

الواردة في فضل الضيافة والإطعام لا تحصى، وما أحسن قول القائل:

لـــم لا أحـــب الضيـــف أو ارتـــاح مـــن طـــرب إليـــه
والضيـــف يـــأكـــل رزقـــه عنـــدي ويشكـــرنـــي عليـــه

ومن كلام الحكماء لا تتم الضيافة إلاّ بطلاقة الوجه، وحسن الحديث ولطف اللقاء.

وقال آخر:

أُضـاحـك ضيفـي قبـل إنـزال رحلـه ويخصـب عنـدي والمحـل جـديـب
وما الخصب للأضياف في كثرة القرى ولكنمـا وجـه الكـريـم خصيـب

فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق قال ﷺ: «**أكل طعام الأبرار في دعائه لبعض من دعا لَهُ**». وقال ﷺ: «**لا تأكل إلاَّ طعام تقي ولا يأكل طعامك إلاَّ تقي**»، ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص قال ﷺ: «**شر الطَّعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء**»، وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته، فإن إهمالهم إيحاش وقطع الرحم، وكذلك يراعى الترتيب في أصدقاءه.ومعارفه، فإن في تخصيص البعض إيحاشا لقلوب الباقين، وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الأخوان، والتسنن بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطَّعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، وينبغي أن لا يدعوا إلاَّ أنه لا يشق عليه الإجابة، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب، وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته.

قال سفيان: من دعا أحد إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة، فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان لأنه حمله على الأكل مع كراهة، ولو علم ذلك لما كان يأكله وإطعام التقي إعانة على الطَّاعة، وإطعام الفاسق تقوية على الفسق.

وقال رجل خياط لابن المبارك: أنا أخيط ثياب السَّلاطين، فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة؟ قال: لا. إنما أعوان الظلمة من بيع منك الخيط والإبرة، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم، وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة. قيل: بوجوبها في بعض المواضع قال ﷺ: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع لقبلت**» وللإجابة خمسة آداب مذكور في إحياء علوم الدين وغيره.

الباب الثامن بعد المائة

في الكلام على الجنازة والقبر

اعلم أن الجنائز عبرة للبصيرة، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولاً عليها، فإنه محمولاً على القرب وكأن قد ولعله في غد أو بعد غد.

ويروى أن أبا هريرة رضي الله عنه أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا فإنا على الأثر، وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة، قال: اغدوا فإنا رائحون موعظة بليغة، وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل لَهُ، وقال أسيد بن حضير: ما شهدت جنازة فحدثتني نفس بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه، ولما مات أخ مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي، ويقول: والله لا تقر عيني حتى اعلم إلى ماذا صرت إليه، ولا اعلم ما دمت حياً. وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع.

وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعاً باكياً فهكذا خوفهم من الموت، والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلاَّ وأكثرهم يضحكون، ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه، ولا يتفكر واحد منهم إلى ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها، لا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين أيدينا، فصرنا نلهو نغفل ونشتغل بما لا يعنينا، فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة، فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت، نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت، فقال: لو ترحمون على أنفسكم لكان خيراً لكم، أنه نجا من ثلاثة

وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن. وقال أبو عمرو بن العلاء: جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعراً، فاطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول:

تروعنا الجنائز مقبلات ... ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب ... فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع، كما ذكرت آدابه وسننه في فن الفقه، ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة لا تدري حقيقتها.

ولذلك روي عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه، وكان مسرفاً على نفسه، فتجافى كثير من النَّاس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها، فلما دلي في قبره وقف على قبره، وقال: يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود، وإن قالوا مذنب وذو خطايا، فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا.

ويحكى أن رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته، إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى، فما صلى عليه أحد فحملتها إلى الصحراء للدفن، فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة، ثمَّ قصد أن يصلي عليها فانتشر الخبر في البلد، بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه، وتعجب النَّاس من صلاة الزاهد عليه فقال: قيل لي في المنام: انزل إلى موضع كذا ترى جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفور لَهُ، فزاد تعجب النَّاس فاستدعى الزاهد امرأته، وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته؟ قالت: كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر. فقال: انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير؟ قالت: نعم ثلاثة أشياء كان إذا أفاق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح في جماعة، ثمَّ يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق، والثَّاني أنه كان أبداً لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده، وكان شديد التفقد لهم والثَّالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام اللّيل فيبكي، ويقول: يا رب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث يعني نفسه، فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره.

قال الضَّحاك: قال رجل: يا رسول الله من أزهد النَّاس؟ قال: «**من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعد غداً من أيامه وعد نفسه من أهل القبور**». وقيل: لعلي كرم الله وجهه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ قال: إني أجدهم خير جيران إني أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة.

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسئل عن ذلك، وقيل لَهُ: تذكر الجنة والنَّار فلا تبكي، وتبكي إذا وقفت على قبر فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعد أشد**» وقيل: إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين. فقيل لَهُ: هذا شيء لم تكن تصنعه فقال: ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما.

وقال مجاهد: أول ما يكلم ابن آدم حفرته، فتقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي. وقال لي أبو ذر: ألا أخبركم بيوم فقري يوم أوضع في قبري.

الباب التاسع بعد المائة

في التخويف من عذاب جهنم

أخرج البخاري كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**ربنا آتنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النَّار**» وأبو يعلى أنه ﷺ: خطب فقال: «**لا تنسوا العظيمتين الجنة والنَّار**»، ثمَّ بكى حتى جرى أو بلت دموعه جانبي لحيته، ثمَّ قال: «**والذي نفسي بيده لو تعلمون ما اعلم من أمر الآخرة لمشيتم على الصعيد ولحثيتم على رؤوسكم التراب**».

والطَّبراني في الأوسط جاء جبريل إلى النبي ﷺ في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقال إليه رسول الله ﷺ فقال: «**يا جبريل: ما لي أراك متغير اللون**»؟ فقال: ما جئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافخ النَّار فقال رسول الله ﷺ: «**يا جبريل صف لي النَّار وانعت لي جهنم**»؟ فقال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم، فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت. ثمَّ أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثمَّ أمر فأوقد ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يطفأ لهبها، والذي بعثك بالحق نبياً لو أن قدر

ثقب إبرة فتح من جهنم، لمات من في الأرض كلهم جميعاً من حره، والذي بعثك بالحق نبياً لو أن خازناً من خزنة جهنم برز إلى أهل الدُّنيا، لمات من في الأرض كلهم جميعاً من قبح وجهه، ومن نتن ريحه، والذي بعثك بالحق نبياً لو أن حلقة من جلق سلسلة أهل النَّار التي نعت الله في كتابه، وضعت على جبال الدُّنيا لا رفضت وما تقارب حتى تنتهي إلى الأرض السفلى.

فقال رسول الله ﷺ: «**حسبي يا جبريل لا ينصدع قلبي فأموت**» قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال: «**تبكي يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذي أنت به**»؟ فقال: وما لي لا أبكي وأنا أحق بالبكاء، لعلي أكون في علم الله على غير الحال التي أنا عليها، وما أدري لعلي أبتلي بما ابتلي به إبليس، فقد كان من الملائكة، وما أدري لعلي أبتلي بما ابتلي به هاروت وماروت.

قال: فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبريل فما زالا يبكيان حتى نوديا أن يا جبريل ويا محمد إن الله تعالى قد أمنكما أن تعصياه، فارتفع جبريل وخرج رسول الله ﷺ، فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال: «**تضحكون ووراءكم جهنم فلو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما استمتعتم الطَّعام والشراب ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل**» فنودي يا محمد لا تقنط عبادي إنما بعثتك مبشراً ولم أبعثك معسراً.

فقال ﷺ: «**سددوا وقاربوا**» وروي أنه ﷺ قال لجبريل: «**ما لي أرى ميكائيل ضاحكاً قط**»؟ فقال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النَّار، وابن ماجة والحاكم وصححه أنا ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم، ولولا أنها أُطفئت بالماء مرتين لما انتفعتم بها، وأنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها، والبيهقي أن عمر رضي الله عنه قرأ ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ [سورة النساء: الآية ٥٦] قال يا كعب: أخبرني بتفسيرها فإن صدقت صدقتك، وإن كذبت رددت عليك؟ فقال: إن جلد ابن آدم يحرق ويجدد في ساعة أو في يوم ستة آلاف مرة قال: صدقت.

والبيهقي أن الحسن البصري قال في الآية: تأكلهم النَّار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا، ومسلم يؤتي بأنعم أهل الدُّنيا من أهل النَّار فيصبغ في النَّار صبغة، ثمَّ يقال لَهُ يا ابن آدم: هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله رب، ويؤتى بأشد النَّاس بؤساً في الدُّنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة

في الجنة، فيقال لَهُ يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل بك شدة قط؟ فيقول: لا. والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط.

وروى ابن ماجة يرسل البكاء على أهل النَّار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثمَّ يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت إليها السفن لجرت، وأبو يعلى يا أيها النَّاس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النَّار يبكون في النَّار حتى تسيل دموعهم في خدودهم، كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فيسيل يعني الدم فتقرح العيون.

الباب العاشر بعد المائة

في الميزان والصَّراط

أخرج أبو داود عن الحسن عن عائشة أنها بكت فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك» قالت: ذكرت النَّار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحداً عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره، وعند الصَّراط إذا وضع بين ظهراني جهنم حتى يعلم أيجوز أم لا**».

والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة قال: «**أنا فاعل إن شاء الله تعالى**» قلت: فأين أطلبك؟ قال: «**أول ما تطلبني على الصَّراط**». قلت فإن لم ألقك على الصَّراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**». قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبنيَ عند الحوض، فأني لم أخطىء هذه الثَّلاثة مواطن**».

وروى الحاكم يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزنت أو وضعت فيه السَّموات والأرض لوضعت فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ويوضع الصَّراط مثل حدّ الموسى فتقول الملائكة: من يجرؤ على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: يوضع الصَّراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف منزّلة عليه كلاليب من نار يختطف بها فممسك يهوي فيها ومصروع، ومنهم من يمر كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثمَّ كالريح فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم

كجرس الفرس، ثمَّ كسعي الرجل، ثمَّ كرمي الرجل، ثمَّ كمشي الرجل، ثمَّ يكون آخرهم إنساناً رجل قد لوحته النَّار ولقي فيها شراً، ثمَّ يدخله الله الجنة بفضله وكرمه ورحمته فيقال لَهُ: تمن وسل فيقول: أي رب أتهزأ مني، وأنت رب العزة؟ فيقال لَهُ: تمن وسل حتى إذا انقطعت به الأماني قال لك: ما سألت ومثله معه.

وروى مسلم عن أم مبشر الأنصارية رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: عند حفصة رضي الله عنها **«لا يدخل النَّار إن شاء الله تعالى أحد من أصحاب الشَّجرة الذين بايعوا تحتها»** قالت: بلى يا رسول الله فانتهرها فقالت: حفصة رضي الله عنها، وإن منكم إلاَّ واردها فقال النبي ﷺ: **«قد قال الله تعالى: ﴿ثمَّ ننجي الذين اتقوا ونذر الظَّالمين فيها جثياً﴾»** [سورة مريم: الآية ٧٢].

وروى أحمد أن جماعة اختلفوا في الورود فقال بعضهم: لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فسأل بعضهم جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه فقال: تردونها جميعاً، ثمَّ أهوى بأصبيعه إلى أذنيه وقال: صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلاَّ دخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى أن للنَّار أو قال لجهنم ضجيجاً من بردهم ﴿ثمَّ ننجي الذين اتقوا ونذر الظَّالمين فيها جثياً﴾ [سورة مريم: الآية ٧٢].

وروى الحاكم يرد النَّاس النَّار، ثمَّ يصدون عنها بأعمالهم أو لهم كلمح البرق، ثم كلمح الريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشد الرجل ثم كمشيه.

الباب الحادي عشر بعد المائة

في وفاة النبي ﷺ

قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها، حين دنى الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثمَّ قال: **«مرحباً بكم حياكم الله آواكم نصركم الله أوصيكم بتقوى الله، وأوصي بكم الله إني لكم نذير مبين أن لا تعلوا على الله في بلاده وعباده، وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى فاقرؤوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السَّلام ورحمة الله»**.

ورُوي أنه ﷺ قال لجبريل عليه السَّلام: عند موته: «من لأمتي بعدي» فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشره بأنه أسرع النَّاس خروجاً من الأرض إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته فقال: **«الآن قرت عيني»**.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبعة قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج بالنَّاس واستغفر لأهل أحد، ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال: **«أما بعد يا معشر المهاجرين فأنكم تزيدون، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم، وأن الأنصار عيبتي التي أويت إليها فاكرموا كريمهم يعني محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم»** ثمَّ قال: **«إن عبداً خير بين الدُّنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه»**.

فقال النبي ﷺ: **«على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الأبواب والشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فإني لا اعلم أمراً أفضل عندي في الصَّحبة من أبي بكر»**. قالت عائشة رضي الله عنها: فقبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل علي أخي عبد الرحمٰن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك فقلت لَهُ: آخذه لك؟ فأومأ برأسه أي نعم فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه. فقلت: ألينه لك؟ فأومأ برأسه أي نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده، ويقول: لا إلٰه إلا الله أول الموت لسكرات، ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى: فقلت: إذا والله لا يختارنا.

وروى سعيد بن عباس بن عبد اللَّه عن أبيه قال: لما رأت الأنصار أن رسول الله ﷺ يزداد ثقلاً طافوا بالمسجد، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، ثمَّ دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك، ثمَّ دخل عليه علي رضي الله عنه، فأعلمه بمثله فمد يده وقال: **«ها»** فتناولوه فقال: **«ما تقولون»**؟ قالوا: نخشى أن تموت، وتصايحت نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئاً على علي، والفضل العباس أمامه ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثاب النَّاس إليه فحمد الله وأثنى عليه.

وقال: **«أيها النَّاس أنه بلغني أنكم تخافون علي الموت كأنه استنكاراً منكم للموت، وما تنكرون من موت نبيكم، ألم أنع إليكم وتنعي إليكم أنفسكم هل خلد نبي قبلي. فيمن**

بعث فأخلد فيكم؟ إلاَّ أني لاحق بربي وأنكم لاحقون به، وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاَّ الذين آمنوا﴾ [سورة العصر: الآيات ١، ٣] إلى آخرها، وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلكم، وأن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثِّمار، ألم يوسعوا عليكم في الديار، ألم يؤثروكم على أنفسكم وبهم الخصاصة، إلاَّ فمن ولي أن يحكم بين رجلين، فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا، وأن موعدكم الحوض حوضي أعرض مما بين بصري والشَّام وصنعاء، واليمن، يصب فيه ميزاب الكوثر ماءه أشد بياضاً من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشَّهد، من شرب منه لم يظمأ أبداً حصباؤه، واللؤلؤ وبطحاءه المسك، من حرمه في الموقف غداً حرم الخير كله إلاَّ فمن أحب أن يرد علي غداً فليكفف لسانه ويده مما ينبغي».

فقال العباس: يا نبي الله أوص بقريش. فقال: «إنما أوصي بهذا الأمر قريشاً والنَّاس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم، فاستوصوا آل قريش بالنَّاس خيراً يا أيها النَّاس أن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم، فإذا بر النَّاس بروهم وإذا فجر النَّاس عقوهم». قال الله تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظَّالمين بعضاً مما كانوا يكسبون﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٩].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «سل يا أبا بكر». فقال يا رسول الله: دنا الأجل فقال: «قد دنا الأجل وتدلى» فقال: لينهك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري عن منقلبنا، فقال: «إلى الله وإلى سدرة المنتهى: ثمَّ إلى الجنة المأوى والفردوس الأعلى، والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا». فقال: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: «رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى» قال: ففيم نكفنك؟ قال: «في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي بياض مصر» فقال: كيف الصَّلاة عليك منا وبكينا؟ ثمَّ قال: «مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سرير في بيتي هذا على شفير قبري، ثمَّ أخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي الله عز وجل ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] ثم يأذن للملائكة في الصلاة علي فأول من يدخل علي من خلق الله ويصلي علي جبريل ثم ميكائيل ثم

إسرافيل ثم ملك الموت مع جنوده كثيرة، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين، ثم أنتم فادخلوا علي أفواجاً فصلوا علي أفواجاً زمرة زمرة وسلموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان» قال: فمن يدخلك القبر؟ قال: «زمر من أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع الملائكة كثيرة لا ترونهم، وهم يرونكم، قوموا فأدوا عني إلى من بعدي» وقالت عائشة رضي الله عنها: فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النَّهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنِّساء، فبينما، نحن على ذلك فلم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك إذ قال رسول الله ﷺ: «أخرجن عني هذا الملك يستأذن علي» فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس، وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلاً، ثمَّ دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة: أُدخلن فقلت: ما هذا بحس جبريل عليه السَّلام فقال رسول الله ﷺ: «أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني» فقال: إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلاَّ بإذن فإن لم تأذن لي أرجع، وإن أذنت لي دخلت، وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني. فماذا أمرك؟ فقلت: أكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السَّلام فهذه ساعة جبريل قالت عائشة رضي الله عنها: فاستقبلنا بأمر لم يكن لَهُ عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما تحير إليه شيئاً، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر، وهيبة ملأت أجوافنا قالت: وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال: إن الله عز وجل يقرأ عليك السَّلام ويقول: كيف تجد منك؟ وهو اعلم بالذي تجد، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً، وأن يتم كرامتك وشرفك علي، وأن تكون سنة في أمتك فقال: أجدني وجعاً. فقال: أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال يا جبريل: إن ملك الموت استأذن علي وأخبره الخبر فقال جبريل: يا محمد إن ربك إليك مشتاق، ألم يعلمك الذي يريد بك لا والله استأذن ملك الموت على أحد قط، ولا يستأذن عليه أبداً إلاَّ أن ربك متم شرفك، وهو إليك مشتاق فلا تبرح إذاً حتى يجيء وأذن للنِّساء فقال يا فاطمة: ادني، فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها، وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثمَّ قال: ادني مني رأسك فأكبت عليه، فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام، فكان الذي رأيناه منها عجباً، فسألناها بعد ذلك فقالت: أخبرني وقال: إني ميت اليوم فبكيت، ثمَّ قال إني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهل، وأن يجعلك معي فضحكت، وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت: وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن لَهُ فقال الملك: ما تأمرنا يا محمد؟ قال: ألحقني بربي الآن

فقال: بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق، ولم يتردد عن أحد تردده عنك، ولم ينهي عن الدخول على أحد إلاّ بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج.

قالت: وجاء جبريل فقال: السَّلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبداً طوى الرحى وطويت الدُّنيا، وما كان لي في الأرض حاجة غيرك وما لي فيها حاجة إلاَّ حضورك ثمَّ لزوم موقفي لا والذي بعث محمداً بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يخير إليه في ذلك كلمة، ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما نسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا قالت: فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي، وأمسكت بصدره وجعل يغمى عليه حتى يغلب، وجبهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط، جعلت أسلب ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول لَهُ: إذا أفاق بأبي أنت وأمي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح فقال: «**يا عائشة: إن نفس المؤمن تخرج بالرشح، ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إلي أبي**»، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد، وإنما صدّهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمى عليه قال: بل الرفيق الأعلى كان الخيرة تعاد عليه، فإذا أطاق الكلام قال: الصَّلاة الصَّلاة إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعاً الصَّلاة الصَّلاة، كان يوصي بها حتى مات، وهو يقول الصَّلاة الصَّلاة الصَّلاة.

قالت عائشة رضي الله عنها: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضُّحى وانتصاف النَّهار يوم الاثنين. قالت فاطمة رضي الله عنها: ما لقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة. وقالت أم كلثوم: يوم أصيب علي كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين، مات فيه رسول الله ﷺ وفيه قتل علي وفيه قتل أبي فما لقيت من يوم الاثنين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما مات رسول الله ﷺ تقحم النَّاس حتى ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه، فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم، فما تكلم إلاَّ بعد البعد، وخلط آخرون فلانوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون، فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته، وعلي فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس، ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد، وإن كان النَّاس لم يرعوا إلاَّ بقول أبي بكر حتى جاء

العباس فقال: والله الذي لا إله إلاَّ هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت، ولقد قال: هو بين أظهركم ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثمَّ إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ [سورة الزمر: الآية ٣١] وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج، فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه، ثمَّ أكب عليه فقبله، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله ﷺ.

ثمَّ خرج إلى النَّاس فقال: أيها النَّاس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله تعالى: ﴿وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤] الآية، فكأن النَّاس لم يسمعوا هذه الآية إلاَّ يومئذٍ.

وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر، دخل بيت رسول الله، وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال، فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي، ويقول: بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حياً وميتاً انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختيار أمنك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون، فأما ما لا نستطيع نعيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان اللهم فأبلغه عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة.

اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا، ولكن هذا آخر ما أقدرنا الله عليه، وجذب قلوبنا إليه ليكون لنا برسول الله أسوة حسنة، ونرجو من الله أن يبدل السيئة بالحسنة وأن يلقنا بنبينا ﷺ على الإيمان إنه أكرم مسؤول، وأعز مأمول والحمد لله رب العالمين.

تم الكتاب بعون الله تعالى

الفهرست